سلطنة عمان

وزارة الاوقاف والشؤون الدينية

كلية العلوم الشرعية

---

# مذكرة مادة منهج الدعوة عند الإباضية

مدرس المقرر د. إبراهيم الأغبري

## بسم الله الرحمن الرحيم

## النشأة التاريخية للإباضية

### خلافة ابي بكر الصديق رضي الله عنه :

لقد اكتمل الدين قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ورسخت جذوره تصديقا لقوله تعالى : ( اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ) ، غير أن هذا الدين كان في حاجة إلى من يقوم بنشره في اطراف العالم وأقاصي الأرض ، ولن يقوم بهذا إلا أمة قوية بزعامة رشيدة وقيادة حكيمة ، من أجل ذلك سعت الأمة إلى اختيار خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليتولى أمرها ويحافظ غلى مكتسباتها ويبقيها في مسارها الصحيح ، وقد رأى الأنصار أنهم أحق بالخلافة من غيرهم نظرا لمالهم من فضل حماية الدين ونصرة النبي صلى الله عليه وسلم عندما تخلى عنه قومه ، فقدموا سعد بن عبادة الخزرجي لتولي الخلافة ، وحينما بلغ ذلك المهاجرين سارع عدد منهم إلى سقيفة بني ساعدة حيث الاجتماع ، فطالبوا بأحقيتهم بالخلافة باعتبار اسبقيتهم في الإسلام ولأنهم أهل الرسول صلى الله عليه وسلم وهاجروا معه تاركين ديارهم واموالهم واولادهم من أجل دين الله .

احتدم النقاش بين الصحابة من المهاجرين والانصار وانتهى إلى اسناد الخلافة للمهاجرين وطالب ابو بكر المجتمعين بانتخاب عمر بن الخطاب او ابي عبيدة عامر بن الجراح إلا انهما رفضا قبول المنصب وناديا بمبايعة أبي بكر لأنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته في حياته في أمور كثيرة .

بهذا تمت بيعة ابي بكر الصديق وتمكنت الأمة من تجاوز المحنة ، وقدم الصديق رضي الله عنه نموذجا حيا سواء في تطبيق أحكام الشريعة او رعاية مصالح الأمة والتي تتجلى قي نشر العدل ومحاربة المرتدين والاهتمام بحركة الفتح الكبرى ما مكنها من الاحتفاظ بقوتها وهيبتها، وظل رضي الله عنه قائما بأمر المسلمين دونما تقصير.

وفاة الصديق وعهده للخلافة :

توفي أبو بكر -رضي الله عنه- عام 13 للهجرة وقبيل وفاته حرص على ضرورة إسناد خلافة الأمة لمن يراه كفوًا لذلك حتى يجنب الأمة الفتن و الاختلاف ، خشية ان يتكرر ما وقع في السقيفة ، و وجد أن الشخص الصالح الكفؤ لخلافة المسلمين من بين الصحابة الموجودين هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ كان أفضل الموجودين ، أولًا لمكانته العظيمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لخدماته الجليلة و مواقفه العظيمة في الاسلام ، و مع كل هذه المواصفات المؤهلة لم يشأ أبو بكر أن يستبد برأيه ، بل شاور كبار الصحابة الموجودين في المدينة و لقي من معظمهم موافقة وترحيبا .

ثم أملى أبوبكر على عثمان بن عفان وثيقة عهده لعمر بن الخطاب و جاء فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده في الدنيا خارجًا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر ، و يوقن المرتاب الفاجر ، و يصدق الشاك المكذب ، أني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب ؛ فاستمعوا له و أطيعوه ، فإني لم آل الله و رسوله و دينه و نفسي و إياكم خيرًا ، فإن عدل فذاك ظني به و علمي فيه ، و إن بدل فلكل امرئ ما اكتسب ، و الخير أردت و لا يعلم الغيب إلا الله " ، و الذي نستنتجه من هذه الوثيقة جملة أمور و هي :

أولاً : إن أبا بكر قام باستشارة الصحابة و هو حي .

ثانيا : إنه اختار وليًا للعهد من غير أقاربه .

ثالثا : إتخذ مقياسًا للخلافة الكفاءة حسب اجتهاده و معرفته .

رابعًا : أنه جعل المسؤولية بعاتق عمر لتنفيذ هذه الوصية .

خامسًا : جعل الأمة مراقبة له و متابعة .

## خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

سار عمر بن الخطاب في المسلمين سيرة حسنة فقد اقام العدل و اظهر الحق وكان نموذجا للاستقامة ، و استطاع بسيرته تلك أن يفرض هيبة الأمة الإسلامية حينما وفق في اسقاط صروح العجم وقصور الروم وبسط من خلالها نفوذ الدولة الاسلامية الفتية ، غير انه تعرض لطعنة غادرة من ابي لؤلؤة المجوسي أنهت حياة هذا الخليفة الذي ظل اسمه مرتبطًا أبدًا بالنزاهة و الحزم و حق أن يطلق عليه الفاروق لأنه فرق بين الحق و الباطل .

ومن المؤكد أن الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- فكر قبل مماته فيمن يتحمل من بعده مسؤولية الأمة ، و كانت تراوده فكرتان :

الاولى : أن يستخلف من الصحابة واحدًا ، و لكنه لم يكن مطمئنًا إلى أحد بعينه ، والثانية : أن يترك الامر للمسلمين لإختيار من يرتضونه .

وحينما حمل الفاروق إلى بيته ، استقر رأيه – بعد إلحاح من الصحابة بضرورة الاستخلاف –على أن يجعل الأمر شورى ، وقد حددها في ستة من الصحابة هم : علي بن أبي طالب ، عثمان بن عفان ، طلحة بن عبيد الله ، عبد الرحمن بن عوف ، سعد بن أبي وقاص ، الزبير بن عوام ، و قد بين عمر أسباب اختياره لهؤلاء النفر من الصحابة بقوله : " إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس ، و قادتهم ، و لا يكون الأمر إلا فيكم ، و قد قبض رسول الله – صلى الله عليه و سلم –و هو عنكم راض " ، ثم أردف قائلا : " إني لا أخاف اختلاف الناس عليكم إن استقمتم ، و لكن أخاف عليكم اختلافكم فيختلف الناس " .

اجتمع مجلس الصحابة و طالت المناقشات ، إلا أن الاجتماع لم يسفر عن اختيار أحد المرشحين ، حينها عهدوا إلى عبد الرحمن بن عوف ليقوم باستطلاع رأي المسلمين ممثلين بوجهاتهم و قياداتهم في المدينة .. و استقر رأيه على أن المرشحين المفضلين لدى الناس هما : علي بن أبي طالب و عثمان بن عفان وكانت أكثريتهم تفضل عثمان .

جعل عبد الرحمن بن عوف العمل بكتاب الله و سنة نبيه و سيره الخليفتين أساسًا للترشيح ، و في اليوم الرابع من انعقاد مجلس الشورى بعد أخذٍ و ردٍ بين عثمان و علي وافق عثمان على الشروط التي وضعها عبد الرحمن بن عوف و أعلن موافقته على العمل بكتاب الله و سنه رسوله و أن يسير على سنة الخليفتين من قبله ، و هو ما لم يقبله علي لأنه رفض التقيد بالخليفتين من قبله و إنما سيعمل بكتاب الله و سنة نبيه و بمبلغ علمه و جهده و طاقته ، و تمت بيعة عثمان في ذي الحجة من سنة 23للهجرة .

**خلافة عثمان بن عفان :**

واصل الخليفة عثمان بن عفان في بداية أمره العمل على النحو الذي سار عليه الخليفتان من قبله ، و يحدد المؤرخون ذلك بست سنوات ، و لكن ما لبث حتى ظهراستنكار المسلمين حول سيرته فيما تبقى من سني حكمه ، فقد أخذوا عليه ميله إلى اقاربه و عدوا عليه مواقف وتصرفات لم يعهدوها في زمن الشيخين ، خصوصا مايتعلق بالظلم الواقع على الناس من طرف ولاة الخليفة غلى الأمصار، وحينما كانوا يرفعون شكواهم إلى الخليفة لا يبادر إلى رفع الظلم عنهم ، وقد ساعد ذلك على توسع الإنتقادات وما فتأت أن تجمعت و تفاقمت فتحولت إلى غضب عارم ثم إلى ثورة ضد الخليفة انتهت بمقتله بصورة مروعة ما تزال تشكل محنة أليمه في تاريخ الأمة الإسلامية .

مثلت حادثة مقتل الخليفة عثمان بن عفان سابقة خطيرة في مسيرة الحضارة الإسلامية إذ نتج عن هذا الحادث الأليم المفجع حرب أهلية ذهب ضحيتها آلاف المسلمين، وكانت هذه الحادثة البذرة الاولى التي تفتقت عنها الاحزاب والفرق الإسلامية التي نشأت مختلفة حول منصب الخلافة ، ومنذ ذلك الحين أصبح للسيف وزن في تقرير أمر الخلافة ، وقيادة الامة الإسلامية ، أضف إلى ذلك أن حادث اغتيال عثمان كان عاملاً رئيساً في انقسام قريش على نفسها. ذلك الانقسام الذي استمر زمناً طويلاً بعد ذلك ، وكانت هذه الفتنة هي الحادثة الأولى التي عبرت فيها القبائل عن وجهة نظرها في سياسة الخليفة وأحقيته في البقاء في الحكم ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح للقبائل دور في اختيار الخليفة وتثبيته في منصبه بعد أن كان هذا الدور مقصوراً على أهل المدينة ممثلين بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.

وقد حرصت كافة الاحزاب والعصبيات بمختلف ألوانها وأشكالها على استغلال هذه الحادثة بعد ذلك أسوأ استغلال أدى إلى فتن وحروب طاحنة سال فيها من دم المسلمين الكثير، وحفرت بينهم أخاديد من الكراهية والعنف والتمزق، ورفع بعضهم الدعوة للثأر لعثمان وسيلة الوصول إلى الحكم والسلطة ، فجرت الحادثة مجرى المثل ، فقيل لكل عمل يتخذ وسيلة لغرض مخفي "كقميص عثمان" ، ولا بد من القول ان الأحداث الدامية التي شهدتها الساحة الإسلامية بعد ذلك لها صلة وثيقة من قريب أو من بعيد بهذه الفتنة الخطيرة .

**خلافة علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) :**

بعد مقتل الخليفة عثمان ، اختير علي بن أبي طالب لتولي منصب الخلافة وقيادة الأمة الإسلامية بعد اجماع المسلمين عليه ، وأنيطت إليه مهمة إعادة الاستقرار والهدوء للولايات الإسلامية المضطربة ، وقد أدرك علي نفسه أن اختياره كان وليد فتنة قادها رجال القبائل من الإمصار خارج الحجاز مما جعله يتردد بادئ الأمر في قبول منصب الخلافة ، وبقبوله المنصب واجه اكبر مشكلتين وهما :

1- إعادة الاستقرار والامن للدولة التي مزقتها الفتن والعصيات، وتصحيح الأخطاء التي خلفها نظام الحكم في خلافة عثمان.
2- القصاص من قتلة الخليفة عثمان بن عثمان .

وقد بادر عقب توليه إلى اصدار أمرين في منتهى الصرامة وهما :

1- عزل ولاة عثمان وتعيين غيرهم .
2- استرداد القطائع التي اقتطعها عثمان لأقاربه واسترداد الهبات الكبيرة التي منحها عثمان من بيت المال.

ونجح علي في بعض ما أراد ولكن الشام حيث كان معاوية بن أبي سفيان عصت أمره وتمردت عليه ، وقد تمخض التمرد الذي عاناه من الشام ومن غيرها عن موقعتين حربيتين كبيرتين تركت آثاراً عميقة في نفوس المسلمين إلى يومنا هذ والموقعتان هما: موقعة الجمل، وموقعة صفين .

- **موقعة الجمل:**

بينما كان الإمام علي بن ابي طالب يجهز الجيش للسير إلى بلاد الشام وإخضاع معاوية ومن معه ، ثار عليه طلحة والزبير ، وانضمت إليهما عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، ووقعت معركة عنيفة بين الطريقين بعد فشل السفارات بينهم في 36للهجرة ، سقط فيها عدد من المسلمين يتراوح عددهم بين ستة آلاف وعشرة آلاف ويقدره آخرون بأكثر من ذلك.

- **معاوية في الميدان:**

تحرك الإمام علي صوب الشام حيث معاوية الذي نجح في بسط نفوذه عليها وهو الداهية الذي علمته الايام كيف يملك القلوب عن طريق الدهاء والعطاء، والشام بلاد عنيفة لم يعرف سكانها منذ دخلوا الإسلام حكماً أزهى ولا أطول من حكم معاوية ، ولما كان الإمام علي منشغلا بقتال طلحة والزبير، ويفقد عناصر صالحة من جيشه، كان معاوية يقوي جيشه ويدعمه، ويفرق على أتباعه المال ويثيرهم ضد قتلة عثمان ، وفي هذا الجو المشحون بالتوترات النفسية والعصبية القبلية واضطراب الأمر سياسياً وعسكرياً زحف الإمام غلي إلى الشام لإجبار معاوية على الخضوع ، وحاول في البداية أن يعالج الأزمة سلماً دون إراقة الدماء ، وأرسل وفوداً إلى معاوية محاولاً إقناعه بالعدول عن رأيه والرجوع إلى الجماعة، ولكن معاوية أصر على موقفه معتمداً على تأييد أهل الشام له وتقابل الطرفان في صفين عام 37 هـ .

- **موقعة صفين :**

كان اللقاء الأول الذي جمع الجيشين على شكل مناوشات ، لكن سرعان ما تتطور إلى حرب طاحنة ، وقتل عدد هائل من الطرفين ، واستطاع الإمام علي أن يكون من جيشه قوة عالية كادت أن تحقق له النصر، وحينما أدرك معاوية هزيمة جيشه صاح بعمرو بن العاص "هلم مخبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا" فهتف عمرو بجنده "من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه....." فرفعوا المصاحف منادين : "كتاب الله بيننا وبينكم" ، وقد فطن الإمام علي إلى المكيدة ، لهذا طالب اصحابه بمواصلة القتال قائلا لهم : ( عباد الله ، امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم ، إلى أن قال : ويحكم ، إنهم ما رفعوها ، ثم لا يرفعوها ولا يعلمون بما فيها ، وما رفعوها إلا خديعة ودهنا ومكيدة

) ، لكن المكيدة انطلت على أتباع علي بن أبي طالب ، إذ أن فريقاً منهم كان يرى وجوب الاستجابة لطلب أهل الشام واللجوء إلى تحكيم كتاب الله ، وفريقا آخر رأى في رفع المصاحف خديعة من قبل الشاميين ، و تحت ضغط الأكثرية مال الإمام علي إلى قبول فكرة التحكيم ، وبناء على الخلاف توقف القتال وعاد الإمام علي بجيشه إلى الكوفة ، إلا أن الفرقة التي رفضت التحكيم فارقت معسكره وانحازت إلى حروراء وعرفت في التاريخ باسم الحرورية ، وقد حاول الإمام علي إرجاعها لممعسكره من خلال بعثاته المتواصلة ، إلا أن محاولاته انتهت دون جدوى نظرا لرفض المحكمة فكرة التحكيم التي قبل بها الإمام بصغط الأكثرية ، ونتيجة لتصميم الإمام علي على إنفاذ التحكيم أختير ابو موسى الأشعري ليمثلهم في التحكيم ، أما الشاميون فقد اختاروا عمرو بن العاص .

اجتمع الحكمان في دومة الجندل في شهر رمضان من عام (37) هـ ، وتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشملها من أمر قد أجمع رأيي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ، وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإني قد خلعت عليا ومعاوية ، ثم أقبل عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا قد قال ماسمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه واثبت صاحبي معاوية ، فقال أبو موسى : مالك لا وفقك الله ، غدرت وفجرت ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، قال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا .

**نتيجة التحكيم:**

رفض الإمام علي نتيجة التحكيم التي تخلعه من الخلافة واتهم الحكمين بأنهما لم يحكما بما أنزل الله ، وفي المقابل عارضه المحكمة الذين انحازوا في حروراء بشدة مبررين ذلك بأنه لا حكم إلا لله وأنه لا يجوز تحكيم الرجال في أمر من أمور الله ، وانتقدوا على علي رضوخه لمهزلة التحكيم ، لأنه شك في احقيته في خلافة المسلمين، ووتأسيسا على ذلك سارع المحكمة إلى مبايعة الإمام عبدالله بن وهب

الراسبي ليكون إماما عليهم ، حيث رأوا أن الإمام علي قد خلع نفسه من الخلافة حينما فوض أبا موسى في التصرف بأمر خلافته ، وأصبح على ذلك منصب الخلافة شاغرا ، فكان عليهم وهم جملة المسلمين وفيهم الصحابة والقراء وحفظة كتاب الله تنصيب إمام لهم لتصريف أمور الأمة .

- **موقعة النهروان :**

لم يعترف الإمام علي بحكومة الإمام الراسبي ، حيث قام بارسال الوفود بهدف اقناع المحكمة بالعودة إلى حظيرة الدولة ، و كان من الذين شاركوا في هذه المفاوضات الصحابي الجليل عبدالله بن عباس الذي أوفده علي لمناظرتهم أملا منه في أن يقنعهم للعدول عن موقفهم ، و جرت بين عبدالله بن عباس و بينهم مناقشات طويلة كانت نتيجتها عكس ما توخاه علي بن أبي طالب ،و تذكر المصادر الإباضية أن ابن عباس اقتنع بوجهة نظر المحكمة ،و اعتزل ابن عباس معسكر علي و فارقه.

ولما فشلت المفاوضات حرك الإمام علي بن أبي طالب جيشاً مدعيا استئناف حرب معاوية في الشام ، غير أن الجيش انحرف في اتجاه المحكمة ، و سرعان ما نشب قتال عنيف بين الطرفين في مكان يطلق عليه " النهروان " عام 38 للهجرة ، وقتل فيها علي من المُحكمة أربعة آلاف رجل ، و تشير المصادر الإباضية إلى أن أغلب القتلى ذلك اليوم كانوا من القراء و الفقهاء و أهل الشرف في الدين و الرأي ، منهم : أويس القرني ، و حرقوص بن زهير السعدي ، و غيرهما من أفاضل الصحابة – رضوان الله عليهم - .

لقد شكلت هذه الموقعه حداً فاصلاً بين علي و انصاره إذ تخلى خيار أصحابه و قيل انه خرج عنه في يوم اثني عشر ألفاً ، و ما زالت أيامه في الأدبار من يومهم، إذ نزع له معاوية اليمن و الحجاز و مصر ، و غارت خيله على الأدبار ، و قتلوا عماله ، فلم يعد يسمع له كلام أو يمتثل له أمر ، و قد تركت آثاراً عميقة في نفوس المسلمين بعد

ذلك ، بل تذكر المصادر الإباضية أن علياً ندم ندماً شديداً على قتله أهل النهروان ؛ لأنهم أنصاره بالأمس ، و كان يبكي بكاء مراً لتذكرهم .

أما المحكمة فلم ينج منهم عدا 400 رجل وقيل لم يتبق في صفوفهم إلا عدد قليل ذهب منهم اثنان إلى عمان ، واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى اليمن ، وفي نفوسهم جميعا الثبات على المبدأ ، والوفاء لمن قتل في النهروان ، وقد انضم إليهم عدد من الساخطين ، كما اكدت موقعة النهروان أنه لم يعد هناك أمل في عودة المحكمة إلى صفوف علي أو صفوف الجماعة ، و كانوا يتذكرون ما حل بإخوانهم في النهروان فتشتد حماستهم ، و تتأجج ثاراتهم .

- **ظهور القعدة (المعتدلون) :**

بعد معركة النهروان اصيب الإمام علي بالخذلان وتخلى عنه جل عناصر جيشه ولم يعد قادرا على إعادة ترتيب اموره ، وظل هكذا في حال تقهقر حتى تعرض لضربة سيف مسموم من يد عبدالرحمن بن ملجم المرادي توفي على إثرها عام 40 للهجرة ، وقد آلت الدولة الإسلامية من بعده لمعاوية عقب تخلي الحسن ابن الإمام علي عن السلطة ، درءا للفتنة وتجنبا لمزيد من القتال ، خصوصا بعد تشتت أمر المسلمين المواجهين لسلطة معاوية.

وبعد انتقال السلطة إلى بني أمية ساد البلاد الإسلامية حالة من الإضطراب استنكارا على نظام الحكم الجديد ، وكان العراق أكثر المناطق اضطرابا ، وقد أدرك معاوية خطورة ذلك لكون العراق هو مصدر الثورات ، من أجل ذلك سارع إلى البحث عن شخصيات ذات مؤهلات خاصة تعرف بالشدة والقسوة ، فشهد العراق ظهور حكومات ظالمة تعمل على حماية نفوذ بني أمية أمثال زياد بن أبيه (45 - 53) الذي اتبع سياسة القمع والتقتيل واستخدم طرقا إبادية فظيعة .

في هذا المناخ السياسي الصعب ، ونظراً للعوامل السابقة نشأت جماعة معتدلة انشقت عن الخوارج بعد معركة النهروان ، و اتخذت مدينة البصرة مقراً لها و مركزاً

أساسياً لحركتها ، واتبعت منهجاً سلمياً ، و عدم اللجوء إلى السيف إلاّ دفاعاً عن النفس ، و كان زعيم هذه الحركة التي تعد نواة أولى للاباضية هو أبو بلال مرداس بن أدَية التميمي . فمن هو أبو بلال مرداس بن أدَية التميمي ؟ و ما هي الحركة التي وضع بذرتها الأولى ؟ وكيف اشتدت هذه الحركة و صار لها في التاريخ شأن عظيم ؟

**أبو بلال مرداس بن أدَية و جهاده :**

هو مرداس بن حُدَيْر و قد يقال ابن أدَية ، و أديَة جدته و قيل أمه ، و هو من قبيلة تميم ، نشأ بالبصرة و عاش بها ، ويعتبر أبو بلال من زعماء الاباضية ومؤسسي مذهبهم لما عرف عنه من جهاد في سبيل عقيدة أهل الدعوة و الاستقامة ، و لما اتصف به من التقوى و العلم و الشجاعة و الاعتدال ، و بلغ من حسن سيرته أن عدداً من الفرق و الجماعات الاسلامية فيما بعد - كالشيعة و المعتزلة - ادعت نسبته إليها و اعتبرته من أتباعها .

كان أبو بلال ممن شهدوا مع علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – واقعة صفين و حارب في صفوفه و أبلى بلاء حسناً ، غير أنه وقف ضد التحكيم بحزم و انكر على الإمام قبوله له ، وقد خرج مع من خرج إلى النهروان ، و لكنه بعد أن شاهد ما وقع بها من سفك دماء المسلمين و رأى القتلى من أهله و عشيرته بالآلاف ازداد يقيناً بأن الغلو في فهم الأمور يؤدي بالأطراف المقاتلة إلى ما لا تحمد عقباه ، و على الرغم من قناعته بموقف الرافضين للتحكيم إلا أنه لم يرض بحال أن تؤول حال المسلمين إلى ما آلت إليه من تقاتل و تدابر و استحلال ما حرم الله من نفس و مال ، لهذا مضى بعد انتهاء معركة النهروان عائداً إلى البصرة حيث كانت قبيلته تميم و كان بها الأحنف بن قيس أحد الوجهاء و الزعماء في تميم و كان يميل إلى رأي المحكمة موافقاً على مسلكهم و خطهم ، فأوى إليه أبو بلال و أتباعه فأسبغ عليهم حمايته ، و قد أتاحت لهم هذه الحماية الفرصة لنشر دعوتهم المتميزة بالاعتدال و الدعوة بالحسنى مما جذب إليه الأنصار و الأتباع ، و كانت لأبي بلال علاقة حميمة مع جابر بن زيد ، و يقال أنه كان يستشيرُه في كل أموره ، و كانا يخرجان معاً من البصرة لطلب العلم من أصحابه .

ونتيجة لجهود الإمام فقد تزايد عدد أتباعه حتى بنوا لهم مسجداً خاصاً بهم في البصرة ، و لم يكن أمرهم بطبيعة الحال خافياً على زياد الطاغية و الي البصرة ، و لكنه هادنهم لرأي رآه و لخطة محكمة ينسجها ، ثم أن ميلهم إلى الاعتدال و تركهم مراجعة السلطة كل ذلك جعل ابن زياد ينصرف عنهم حتى يتفرغ لقتال الخوارج ، و حتى لا تتعدد جبهات القتال .

**دعوة أبي بلال :**

إن ما تميزت به دعوة أبي بلال هي انكاره العنف طريقة و منهجاً ، اقتناعاً منه بإن ذلك ليس من طبيعة الدين الاسلامي السمح ، ثم لأنه اتعظ من المصير الدامي الخطير الذي آلت إليه معركة النهروان ، فكان يأمر أتباعه بعدم استعراض المسلمين بالسيف ، و ألا يقاتلوا أحداً من مخالفيهم إلا إذا تعرضوا لعدوان أو واجهوا قتالاً ، فالسلاح لا يستخدم إلا في حالة الدفاع عن النفس ، وكان يقول: "ان تجريد السيف وإخافة السبيل لأمر عظيم، ولكنا نشذ عنهم، ولا نجرد سيفاً ولا نقاتل إلا من قاتلنا" حتى ان ابن زياد وكان يقول عن مرداس واتباعه : "لكلام هؤلاء أسرع إلى القلوب من النار في اليراع".

**استشهاده:**

ما لبثت دعوته هذه ان تأصلت ، وكثر حولها المؤيدون والاتباع ، ولكن الأمر لم يستمر طويلاً ، إذ سرعان ما تغيرت الأوضاع السياسية من قبل السلطة الأموية وتولي عبيد الله بن زياد مكان أبيه (سنة 55هـ) ، فقد استعمل ابن زياد الشدة والقسوة المتناهيتين وأعمل السيف في الرقاب دون رحمة أو لين ، وطارد الفرق المعارضة لحكمه وعلى رأسها المحكمة ، وفتح السجون على مصراعيها ، فعذب وقتل ومثل وصلب ، ولم تنج منه حتى النساء اللاتي كنّ تُمثّهن كرامتهن بشكل تتقزز له الأبدان هولاً وفظاعة .

ولما رأى ابو بلال ما حل بمعارضي ابن زياد ، وعلم أنه يجد في طلبه وانه ظافر به لا محالة عزم على الخروج من البصرة بثلاثين رجلاً وقيل أربعين ، وقال لأصحابه:

"أنه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجري علينا أحكامهم مجانفين للعدل، مفارقين للفضل ، والله ان الصبر على هذا لعظيم" ، فاجتمع اليه اصحابه فكان يقول لمن يلقاه موضحاً أصول دعوته :" إني لا أجرد سيفاً، ولا أخيف أحداً، ولا اقاتل إلا من قاتلني" ويقول :" أننا لم نخرج لنفسد في الأرض ، ولا لنروّع أحداً، ولكن هربًا من الظلم ، ولسنا نقاتل إلا من يقاتلنا ولا نأخذ من الفيء إلا اعطيائنا" .

نزل ابو بلال وأصحابه ببلد (آسك) من نواحي الاهواز في موضع بين رام هرمز وأرجان ، غير ان ابن زياد ما لبث ان ارسل جيشاً قوامه الف رجل ، ودار بين ابي بلال وقائد الجيش (اسلم بن زرعه) حوار، ولما حمل اصحاب ابي بلال عليهم حملة صادقة ايمانيه انهزم ابن زرعه هو واصحابه بغير قتال خوفا وهلعاً ، فلما بلغ ذلك ابن زياد غضب من هزيمة جيشه غضباً شديداً فاختار قائداً آخر هو (عباد بن اخضر) ووجه معه هذه المرة اربعة آلاف فاتبع ابا بلال واصحابه حتى لحقهم وجرى بينهم الحوار التالي: قال ابو بلال: "ماذا تريد؟" قال: "اردكم" قال: "اتدعونا إلى طاعة من يسفك الدماء ويأخذ المال الحرام، ويعطل الحدود، ويرتشي في الحكم، ويتسلط بالجبرية ويقتل بالظنة، ويأخذ على التهمة لا يقبل عثرة، ولا يقبل معذرة." قال: "نعرف ما تقولون ولكن لهم مع ذلك الطاعة" وقيل قال: "كذبتم هو خيرٌ منكم وانتم اولى بالضلال منه".

وبينما الحوار قائم بين الإمام وجيش ابن زياد دخل وقت صلاة الجمعة فناداهم أبو بلال : "إنكم في يوم عظيم فادعونا حتى نصلي و تصلوا "، فأجابوهم فلما دخلوا حملوا عليهم فقتلوهم بين راكع و ساجد و قائم و قاعد ، و هكذا استشهد أبو بلال و من معه من اصحابه في هذا الهجوم المباغت عام 61 للهجرة ، و لم ينج منهم احد ثباتاً وصموداً و ايماناً ، و هكذا طويت صفحة هذا الداعية الورع الذي آثر الإعتدال والدعوة إلى الله بالحسنى فلم ينج من الظالمين الجوره ، و بذلك غدا مثالاً عند اهل الدعوة للدفاع عن العقيدة و حب الآخرة ، كما غدا قاتلوه مثالاً للجبن و الجور و حب الدنيا .

**الإباضية في مرحلة الكتمان :**

**- الإمام عبدالله بن اباض :**

ترك مقتل أبي بلال وأتباعه أثرا عميقا في نفوس من تبقى من أصحابه، فاضطروا للالتجاء إلى السرية خوفا من بطش ابن زياد، وعندما ثار عبد الله بن الزبير في الحجاز معلنا معارضته للحكم الأموي ومن الخلافة الإسلامية، انضم المحكمة إليه للدفاع عن مكة المكرمة خشية أن ينالها من التدمير والفساد ما نال مدينة النبي صلى الله عليه وسلم على يد الجيش الشامي الذي بعثه يزيد بن معاوية للمدينة في 63هـ، حيث تمكن ابن الزبير ومن معه من مقاتلة الشاميين وطال عليهم الحصار حتى أجبروا على الانسحاب ورفع الحصار على إثر وصول نعي يزيد بن معاوية عام 64 هـ ، وكان ممن اشترك من المحكمة بجانب ابن الزبير، نافع بن الأزرق وعبد الله الصفار وعبد الله بن أباض، وفي أعقاب رفع الحصار عن مكة عاد المحكمة إلى العراق ، ومنها اتخذ ابن الأزرق آراء متطرفة خارجا في ذلك عن المبادئ التي سار عليها أبو بلال وأتباعه، فقد انتحل مسألة التشريك واعتبر أن محاربيهم مشركون ، كما نادى باستحلال الأمانة وقتل الأطفال وقطع عذر من قعد عن الخروج لقتال اهل الجور، واستحلال السبي والغنيمة، واستعراض المخالفين، كما نسب إليهم إنكار الرجم، وقد وافقه في تشريك المحاربين وما يترتب عليه من حرب المشرك النجدات والصفرية ، واختلفوا معه في بعض جوانب الاستحلال، في حين ظل ابن أباض على المبادئ التي نادوا به قبل الافتراق ، يقول الدجيلي :"وفي ما يتصل بفرقة الإباضية فإن عقائدها تتعارض تماما مع معظم آراء الأزارقة، وهي تمثل الاتجاه الذي سار عليه أبو بلال" ، فقد أعلن ابن أباض تبرؤه من التشريك ، وأكد ذلك في رسالته التي بعثها إلى عبد الملك بن مروان بقوله:"...فهؤلاء أهل الغلو في الدين، إنا نبرأ إلى الله من ابن الأزرق وأتباعه من الناس".

يمثل ابن أباض بهذا تيار المحكمة المسالم الذي حافظ على أفكاره ومبادئه بعيدًا عن الشطط والتطرف، ونظرًا لبروز ابن أباض على الساحة السياسية، فقد اعتبرته المصادر الإسلامية غير الأباضية المؤسس للمذهب ونسبت الأباضية إليه، وافق

الأباضية على التسمية باعتبار أن ابن أباض قد اشتهر بالتقوى والصلاح، ولكونه كما يقول الشماخي : " كان المجاهد علنًا، المناضل علنًا في سبيل تحقيق الحقائق، وتصحيح قضايا العقول، فيما أحدثه أهل المقالات والبدع، من الزور والافتراء في شريعة ربنا " ، في حين لا تعطي لابن أباض إلا دورًا ثانويًا بجانب جابر بن زيد الذي تعده المؤسس للمذهب، مؤكدة أن ابن أباض كان موجها من قبل جابر، ولا يصدر في أموره كلها إلا عن رأي جابر بن زيد ، ويصف لنا السالمي ذلك في قصيدة طويلة بعنوان ( كشف الحقيقة لمن جهل الطريقة ) نقتطف منها هذه الأبيات:

فما الأباضيون إلا علما ـــــ لخلفاء الحق منا فاعلم

ونحن الأولون لم يشرع لنا نجل أباض مذهبا يحملنا

ونحن في الأصل وفي الفروع على طريق السلف الرفيع

وإذا كان عبد الله بن أباض هوالمتحدث الرسمي للأباضية، فمن هوجابر بن زيد الذي يعده الأباضية المؤسس الفعلي للمذهب، وما الدور الذي قام به لبلورة الفكر الأباضي؟

**- الإمام جابر بن زيد :**

ينتمي الإمام جابر بن زيد الأزدي إلى قبيلة اليحمد الأزدية في عمان، وقد ولد بقرية فرق بولاية نزوى من أعمال المنطقة الداخلية من عمان، ويختلف المؤرخون في سنة ولادته ، لكنها تنحصر بين عامي18 و22هـ ، تلقى مبادئ العلم الأساسية ، وخاصة ما يتعلق منها بالجوانب الشرعية في مسقط رأسه، ثم قرر الرحيل إلى البصرة، ولا يعرف على وجه الدقة سنة رحيله ، ولكن يبدو أن ذلك قد تم في صدر شبابه بعد أن اكتسب ثقافة دينية وزاد نهمه للحصول على المزيد منها، فيمم نحو العراق التي كانت آنئذ كبرى المراكز العلمية الإسلامية ، لينهل منها ما قدر له من العلوم والمعارف ، دافعه في ذلك الرغبة الأكيدة ، وما اتسم به من الفطنة الشديدة والذكاء الوقاد، فحط رحاله في العراق، وفور وصوله أخذ يتردد بين العراق والحجاز طلبا العلم، فقد اتصل بكبار الصحابة يغترف من بحرعلمهم ، كعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعائشة أم

المؤمنين رضي الله عنها ، وغيرهم من كبار الصحابة، إذ يروى عنه قوله : "أدركت سبعين بدريا فحويت ما عندهم إلا البحر" يعني به ابن عباس .

نال الإمام جابر بحكم انقطاعه للعلم وحرصه الشديد على اكتساب المعرفة قدمًا راسخًا وباعًا طويلاً في العلم، وغدا أحد كبار قضاة البصرة، وشهد له بالعلم وعمق الفهم، فكان ابن عباس يقول للناس : " اسألوا جابر بن زيد فلوسأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه" ، وعندما كان يسأله أهل البصرة يرد عليهم بقوله :" كيف تسألونني وفيكم جابر بن زيد " ، وقد أهلته المكانة العلمية التي ارتقى إليها بأن يتزعم المحكمة الأباضية التي كان اتصاله بأتباعها منذ وقت مبكر، خاصة مرداس بن حدير الذي ربطت به علاقات حميمة غدت من العمق والمكانة بحيث لا يكادا يفترقان، ومما ساعد الإمام على الوصول إلى هذه المكانة بالإضافة إلى سعة علمه، ما كان يتصف به من التقوى والورع وبعده عن مباهج الدنيا، فكان يبدو في مظهره التواضع والناظر إليه يقول أنه لا يحسن شيئًا ولا يظن أنه فقيه عالم، كما كان يمتلك مقدرة سياسية وإدارية مكنته من إدارة شؤون الحركة ووضع التنظيم الدقيق لها، وطبقًا لذلك اتخذ السياسة السرية في بث دعوته خوفًا من بطش الحجاج والي العراق آنئذ، كما حرص على توطيد العلاقة مع الوالي لإبعاد الشبهة عنه ، متخذًا السلم والاعتدال أساسًا في المعاملة ، حتى أنه كان يصلي خلف الحجاج، وبهذا بدأ في نشر آرائه بين الناس من خلال أحاديثه وفتاويه وأجوبته على من يسأله عن أمور الدين ، فمن استأنس منه ميلاً مقبولاً لآرائه ومبادئه دعاه إلى مذهب .

ثم قام الإمام بجانب ذلك ببناء قاعدة من الدعاة المتمرسين الذين يجمعون بين جوانب عديدة كالفقه والسياسة والإدارة، حيث يتلقى هؤلاء تعليمًا خاصًا وتدريبًا مكثفًا من قبل الإمام نفسه، وقد أتت هذه الجهود ثمارها ، فقد تفوق عدد منهم وتمكن من الوصول إلى زعامة الحركة كأبي عبيدة بن مسلم، كما أعطى الإمام عناية خاصة للدعاة الذين سوف

يرسلهم إلى الأقاليم التي انتشر فيها المذهب الأباضي ، أوالتي يتوقع أن تبث الدعوة بها، وبهذا وضع النواة الأولى للدعاة الذين أطلق عليهم بحملة العلم والتي طورها بعده خليفته في زعامة الحركة أبوعبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وقد انتشر هؤلاء حاملين الدعوة إلى الأمصار الإسلامية كإقليم اليمن وخراسان ، ومصر ، والمغرب ، بالإضافة إلى عمان .

ظل الإمام جابر مجاهدا في سبيل الله منتهجا سياسة الكتمان ، غير أن الحجاج اشتبه في أمره فسجنه ، ثم نفاه إلى عمان ، لكن سرعان ما عاد إلى البصرة حيث توفي فيها عام 93 للهجرة ، ولم يغادر الإمام جابر الدنيا إلا بعد أن غدت الدعوة الإباضية حركة إسلامية شاملة اجتذبت عناصر مختلفة ..و أخذت قناعات المسلمين تنضج حيال الاباضية لارتباطها الوثيق بدعوة الإسلام الأصيلة في زمن يعج بالتيارات الفكرية المتناقضة ، ويعبر أحمد أمين عن ذلك بقوله :"عقيدة راسخة لا تزعزعها الأحداث، وتحمس شديد لها تهون بجانبه الأرواح والأموال، وصراحة في القول والعمل لا تخشى بأسا، ولا ترهب أحدا، وديمقراطية حقه لا ترى الأمير إلا كأحدهم، وما العظيم إلا خادمهم، ورسم الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه رسما مستقيما واضحا لا عوج فيه، ولا غموض، يجب أن يعدل الخليفة والأمير، ويجب أن يسير المسلمون حسب نصوص الكتاب والسنة من غير أن ينحرفوا عنها قيد شعره [...]، ويجب أن يقابل الواقع كما هو، ويشخص كما هو ويعالج كما هو، على طريقة عمر بن الخطاب، لا على طريقة عمرو بن العاص، يغضبون للعقيدة وللإسلام عامة بقطع النظر عن الأشخاص، وإن نظروا إلى الأشخاص ففي ضوء العقيدة، لا كما يفعل غيرهم من النظر إلى العقيدة في ضوء الأشخاص .

- **الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة:**

تولى الإمام ابوعبيدة زعامة أهل الدعوة بعد وفاة الإمام جابر ، حيث كان انجب تلاميذه وعده الأباضية الرجل الثاني من رجال الجيل الأول لعلمائهم الفضلاء ، فمن هو الإمام أبو عبيدة وما الأدوار التي قام بها لترسيخ الفكر ونشر الدعوة الأباضية ؟

هوأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم و يقال أنه كان مولى لعروة بن أدية التميمي أخي مرداس ، ولد بالبصرة و عاش بها و يقال أنه كان زنجيًا أسود اللون أعور و قد عمي آخر عمره ، عاش فقيرًا يقات من عمل السعف يصنع منها القفاف ولذلك لقب بالقفاف ، كانت ولادته تقريبا عام 45هـ حسب بعض القرائن التاريخية وكني الإمام أبو عبيدة بابنته (عبيدة ) التي أخذت العلم عن والدها فرويت عنها آثار في كتب الفقه الإباضي .

أخذ الإمام أبو عبيدة العلم عن شيوخ أجلاء مثل الصحابي صحار العبدي وجابر ابن زيد و جعفر بن السماك و ضمام بن السائب و هم أشهر علماء الإباضية في مرحلة الكتمان ، و قد اشتهر بالتقوى و الورع و الزهد و الانقطاع للدعوة إلى الله فكان مضرب المثل في كل ذلك ، حتى قيل أنه تعلم أربعين سنة و انقطع للتعليم أربعين أخرى و ترك تلامذة أعلامًا حملوا الدعوة من بعده و نشروها في أصقاع الأرض من المشرق و المغرب ، توفي حوالي سنة 145هـ و روي أنه أدرك من أدرك جابر من الصحابة وقد روي عنه قوله : " من لم يكن له أستاذًا من الصحابة فليس هو على شيء من الدين و قد من الله علينا بعبدالله بن عباس و عبدالله بن مسعود و عبدالله بن سلام ومن الراسخون في العلم و على آثارهم اقتفينا و بقولهم اقتدينا وعلى سيرتهم اعمدنا و على مناهجهم سلكنا" .

**أبو عبيدة الداعية :**

اتصف الإمام أبو عبيدة بأخلاق عالية أهلته لأن يكون من أكبر دعاة الإباضية وأئمتهم فقد كان إلى جانب ماعرف عنه من ورع ، و تقوى ، سديد الرأي، نير البصيرة ، ينطق لسانه بالحكمة ، و لقد تفجرت ينابيع الحكمة من فيه و طلعت من لسانه شموس العلم و بهذا استطاع أن يتولى زعامة أهل الدعوة بالبصرة بعد وفاة الإمام جابر بن زيد و يلم شعثها و ينظم شؤونها و على يده تبلورت وبعثت ، كما انصف باليقين و قوة الصبر كان عده في مواجهة جبابرة الأمويين و ملاحقتهم له ، فعندما سجنه الحجاج مع غيره من فقهاء المسلمين و خيارهم كان ضمام بن السائب مما يلاقون من عناء و ضيق في سجن الحجاج فكان أبو عبيدة يقول له " على من تضيق

يا ضمام ؟ " و كان شديدًا في ذات الله عزوفا عن الدنيا لا يحب التقرب إلى الأمراء ولا أخذ أعطياتهم ، و قد صقلت المحن التي مرت به وما رآه من استشهاد أغلب الأئمة من قبل أبي مرداس و أخيه عروة جنانه و لسانه وأهلته لأن يكون المشعل الذي قبس منه حملة العلم أنوار الدعوة إلى المشرق و المغرب .

**طرق الدعوة و وسائلها عند الإمام أبي عبيدة :**

أهتم الإمام أبو عبيدة بأمر الدعوة إلى الله و بث الروح الإسلامية بين المسلمين اهتمامًا بالغًا و أعطاه جل جهده المتواصل و لم يزده الضغط السياسي في البصرة يومئذ إلا تمسكًا بأهداب الشريعة و لم تؤثر فيه التناقضات الاجتماعية و الثقافية بل جعلته صامدًا أمام الأحداث و المؤثرات حتى لقي الله و هو عنه راض ، ويدل تاريخ الإمام أبي عبيدة عن مخطط سياسي محنك ولا أدل على ذلك من الوسائل المنهجية التي كان يتبعها فاستطاع أن ينشر دعوته ويبلغها إلى الأماكن البعيدة تحت سمع الحكومة الأموية الجائرة و عينها ، و قد سلك في سبيل ذلك وسائل ثلاث هي :

**1- المجالس المنظمة :**

أ - المجالس العامة : و تضم كل الذين دخلوا في المذهب و شايعوه و كانت هذه المجالس تعقد سرًا في أحد بيوت المشائخ أو في سراديب أعدت لذلك و كان يجري شرح أصول المذهب و دراسة أمور الدين و كان حرصهم شديدًا على التخفي والتستر و التنكر أمام أعين السلطة المتربصة بهم حتى أنهم يروى عن أبي سفيان قوله : " كانوا يأتون المجالس ويغيرون ملابسهم العادية و يحملون قرب الماء والمتاع ليظهروا أمام الناس و كأنهم فقراء وبياعون .

ب- مجالس المشائخ : و يقتصر حضورها على كبار أئمة المذهب وحدهم و كان يعتمد في هذه المجالس الخطط و الطرق التي ينبغي انتهاجها مع الأتباع و الخصوم و إيجاد الحلول لكل ما يواجه الدعوة من مشاكل في البصرة أو في غيرها من الأمصار و كانت شروط الالتحاق بها شديدة و قاسية حيطة و حذرًا.

ج- مراكز تدريب الدعاة : و يغشى هذه المراكز من يعرفون في تاريخ الإباضية بحملة العلم ، و كان هؤلاء يأتون من مختلف الأمصار لتلقي العلم عن إمام المذهب ، كما يتم تدريبهم الجوانب السياسية و الدينية ، و كان أبو عبيدة هو الذي يتولى هذه الأمور بنفسه ، و قد اتخذ لذلك سردابًا تحت الأرض لا يعرفه غير أتباعه وشيوخه و فيه يتظاهر الإمام و الطلاب بصنع القفاف و يضعون على مدخل السرداب سلسلة من الحديد يحركها أحد الحراس عندما يستدعي الأمر ذلك ليتظاهر من بداخل السرداب بصنع القفاف ، و عادة ما يختار الدعاة من حملة العلم من أبناء الأمصار التي يرسلون إليها ضمانًا للتبليغ و القبول و أهل الأمصار أدرى بمعرفة أحوالها و طباع أهلها .

**2- الحج و التجارة :**

اهتم الأمام أبوعبيدة بموسم الحج اهتمامًا بالغًا فقد كان أسوة بإمامه جابر لا يفوته إلا نادرًا للاستفادة من اجتماع الأئمة الإسلامية و تبليغ الرسالة على أوسع مجال وكان يرمي مع حرصه الشديد هذا إلى تحقيق فوائد جليلة يمكن حصرها فيما يلي :

- الأجر و الثواب جراء تأدية الحج و لو نافلة .
- الاجتماع بفقهاء و علماء و دعاة الأمصار و خاصة من بقي من الصحابة وكبار التابعين و قد يتعذر مثل هذا الاجتماع في غير الحج للظروف السياسية والاجتماعية المعروفة .
- التقاؤه بالحجاج الإباضية القادمين من الأمصار كعمان و خراسان و اليمن وحضرموت و مصر و المغرب و غيرها بالإضافة إلى من كان بالحجاز .
- فرصة سانحة لحل المشاكل التي قد تطرأ في طريق الدعوة أو التوسط لحل مشاكل التي قد تحدث بين الجماعة و الإباضية في الأقطار النائية فيقوم هو أو أحد المشائخ بفض الخلاف و حل النزاع كما حدث من قبل لأهل حضرموت إذ وقع بينهم خلاف كبير بعد مقتل الإمام طالب الحق كاد أن يؤدي إلى الفرقة لولا أنهم كتبوا إلى الإمام أبي عبيدة بالبصرة فأرسل إليهم حاجب الطائي في موسم الحج لحل المشكلة .

- الرد على استفسارات الحجاج فيما يخص حجهم أو الأمور الدينة أو الدنيوية الأخرى و إرسال الردود مع الحجاج العائدين و تبليغ الرسالة إليهم عن طريق وفودهم .

**3- المراسلات :**

كانت رسائل الأمام أبي عبيدة تحمل في مطاويها العلم و الفتوى و التنظيم السياسي للحركة آية ذلك العلاقة التنظيمية و الصلة الوثيقة التي كانت بينه و بين الدعاة الإباضية في المشرق والمغرب ، و لعل من أبرز أعمال أبي عبيدة في المجال الدعوي أولئك الطلاب الذين رباهم و علمهم و دربهم ثم أرسلهم رسلا لتبليغ دعوة أهل الاستقامة إلى المشرق والمغرب .

## الأباضية في الميدان

مع تواصل الجهود الدعوية التي بذلها الإمام ابو عبيدة وأصحابه والتي أسفرت عن وصول الدعوة إلى الأمصار البعيدة بدأت القيادة في البصرة والدعاة في الأقاليم التخطيط من اجل الانتقال إلى مرحلة الظهور ، وذلك بإقامة دولة تسير وفق الشريعة الإسلامية معتمدين في ذلك على عاملين أساسين هما :

1- انتشار الدعوة الواسع في كافة البلاد التي بلغها الفكر وتقبل الناس لمبادئها ما ساعد على كثرة الأصوات المنادية بالخروج من السرية إلى العمل على تطبيق احكام القرآن والسنة النبوية المطهرة بعد اسقاط دولة بني أمية الظالمة .

2 - - الظروف السياسية المتدهورة التي عاشتها الدولة الأموية في أخريات أيامها فقد كانت تعاني الثورات الداخلية و الخارجية من كل جانب و كانت خاتمة هذه الثورات الثورة العباسية التي اقتلعت جذور الحكم الأموي .

- **أهل الدعوة في اليمن :**

لقد وقع اختيار مركز الدعوة في البصرة على اليمن ليحتضن الدولة الأباضية الأولى ، نظرا لما كان يعانيه من الأوضاع الإجتماعية المتردية التي اتسمت بالظلم في ظل حكومات الجور والطغيان، وقد جاء هذا الإختيار بعد تخطيط بدأ منذ أمد على إقامة إمامة الظهور حينما توفرت الوسائل اللازمة ، ذلك أن الإمام أبا عبيدة كان قد أوكل الأمر إلى أحد تلامذته و هو أبو مودود حاجب الطائي مسؤولية جمع الأموال و الإعداد العسكري فلقي هذا العمل رغم مرحلة الكتمان إقبالًا عظيمًا من أهل الدعوة رجالًا و نساءً ، فق ذكرت بعض المصادر بأنهم جمعوا في يوم واحد عشرة آلاف درهم خصصت لأغراض الحركة في حضرموت ، و لذا نستطيع القول أن تسرب الدعوة إلى اليمن و حضرموت يعود إلى تاريخ سبق الحركة التي قامت في سنة 129هـ بسنين طويلة .

تمكنت الدعوة الإباضية من قيادة الحركة السياسية في اليمن لتصحيح الانحرافات العديدة التي مارسها الخلفاء الأمويين و ولاتهم في اليمن ، وذلك عن طريق الإمام عبدالله بن يحيى الكندي ( طالب الحق ) فمن هو طالب الحق ؟ و ماهي أبعاد ثورته و انتصاراتها ؟

- **الإمام طالب الحق :**

هو أبو يحيى عبدالله بن يحيى بن عمر بن الأسود بن عبدالله بن الحارث الكندي أحد أفراد قبيلة كندة الحضرمية ذا النفوذ و الجاه العريضين بهذه المنطقة ، كان ذا همة عالية و حزم شديد و ورع و تقوى و لعل شهرته بـ ( طالب الحق ) دل على مجمل صفاته تلك حيث كان قاضيًا على حضرموت من قبل إبراهيم بن جبلة الوالي على حضرموت من قبل القاسم بن عمر الثقفي في عصر مروان بن محمد ، أخذ طالب الحق العلم عن أبي عبيدة مع رفاقه القادمين من اليمن ومنهم وائل بن أيوب الحضرمي .

وفور استقرار طالب الحق باليمن كتب إلى أبي عبيدة مسلم يستشيره و يستأذنه في الخروج و سرعان ما جاء رد الإمام برسالة تحبذ الإسراع و المبادرة حسبما جاء فيها :

" إن استطعت ألا تقيم يومًا واحدًا فافعل ، فإن المبادرة بالعمل أفضل و لا تدري متى يبلغ أجلك ، ولله خيرة من عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه و يخصهم بالشهادة إكرامًا لهم بها " ، و لم يكتف أهل الدعوة بهذه الرسالة التحريضية و حسب إنما أرسلوا إليه النجدة المالية و العسكرية فقد أوفدوا القائد الشهير أبا حمزة المختار بن عوف الأزدي و بلج بن عقبة الأزدي مع مجموعة من الجند ، و حملوا معهم توصيات مشددة من أبي عبيدة يوصيهم فيها بالسيرة الحسنة و السلوك الطيب مع أعدائهم حتى و ان انتصروا عليهم .

- **جيش طالب الحق إلى حضرموت :**

ما إن وصل إذن أبي عبيدة من البصرة و مدده المعنوي و المادي و العسكري حتى اجتمع طالب الحق بأصحابه و أهل الرأي من الإباضية فأطلعهم على الأمر ، وبعد التشاور بايعوه إمامًا لهم عام 129 للهجرة ، و بذلك يكون طالب الحق أول إمام ظهور عند الإباضية .

وبعد اتمام البيعة تحرك الإمام إلى حضرموت وفتحها دون قتال يذكر ، و قبض على واليها إبراهيم بن جبلة و سجنه ثم ما لبث أن أطلق سراحه و تركه يلحق بسيده القاسم بن عمر الثقفي بصنعاء و هو بذلك قد عمل بوصايا الإمام أبي عبيدة و بسيرة السلف الصالح من الإباضية الذين مافتئوا يعاملون مخالفيهم بالتسامح و لو انتصروا عليهم .

**-الانتصار في صنعاء :**

و بعد أن وطد الحكم في حضرموت بسيرته الحسنة سبقته سمعته الطيبة إلى صنعاء التي ما فتئت تشكو من ظلم الولاة الأمويين و اضطهادهم ، و كان طالب على صلة بأنصار أهل الدعوة في صنعاء ، فلما أحس أن الوقت قد حان لدخولها استخلف عبدالله بن سعيد الحضرمي بحضرموت و سار طالب الحق على رأس ألفين من جنده إلى صنعاء ، و قد خرج إليه الوالي الثقفي ليلقاه خارج صنعاء واعد للقاء طالب الحق و أهل الدعوة جيشًا ضخمًا يصفه البلاذري بأنه " كان ذا عدد كبير و عدة ظاهرة " وتقول بعض المصادر أنه بلغ ثلاثين ألفًا ، و مهما يكن من أمره فإن ذلك يدل على أن الثقفي استعد الاستعداد كله للقضاء على جيش طالب الحق و هذا بأمر من السلطة

المركزية و لا شك ، و لكن إيمان أهل الدعوة و شدة شكيمتهم في الحرب و ثباتهم في الميدان هزم الثقفي و جنده شر هزيمة ، و فر إلى صنعاء و احتمى بها ، و كانت له بها هزيمة أشد ، و ما برح أن فر إلى الشام مع من بقي من جنده و هكذا استولى الإباضية على المدينة .

ساهم فتح صنعاء وزوال حكم بني أمية منها على نجاح الأباضية في إرساء دعائم دولتهم الأولى المعتمدة على المعاملة الطيبة ، وظل الإمام على سيرته الحسنة تلك فجمع قلوب الناس من حوله بما رأوه منه من عدالة اجتماعية إسلامية افتقدوها و حنوا إليها في ظل الحكم الأموي ، و من ذلك أن طالب الحق بعد أن استولى على ما في الخزائن من أموال وزعها بين الناس في صنعاء و بخاصة الفقراء منهم وبقي في صنعاء عدة أشهر يسوس الناس بالعدل ويدعوا إلى آرائه و مبادئه بالمعروف و الموعظة الحسنة حتى كثر جمعه و أتاه الناس من كل مكان .

## أهل الدعوة في الحجاز

لم يكن هدف أهل الدعوة من الوصول إلى اليمن و حضرموت أن تبقى دعوتهم اقليمية ، و إنما كانت حركة إسلامية شاملة تهدف إلى إقامة الإمامة الكبرى ، و الإطاحة بالفساد الذي اسشرى في ظل الحكم الأموي المتسلط ، و هكذا ما إن استب الأمر لطالب الحق في اليمن و حضرموت حتى وجه قائده العظيم أبا حمزة الشاري المختار ابن عوف الأزدي يرافقه بلج بن عقبة الأزدي و أبرهة بن الصباح الحميري على رأس قوة عسكرية إلى مكة ، و كانت أوامر طالب الحق أن يستولي أبو حمزة المختار على الحجاز و يقيم بها ، ثم يوجه بلج بن عقبة إلى الشام لمحاربة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية .

- **كيف دخل الشراة مكة :**

وصل الشراة الإباضية إلى مكة المكرمة في الثامن من ذي الحجة سنة 129هـ ، في جيش يقوده أبو حمزة قوامه ما بين سبعمائة إلى ألف و مائة ، و قد دخلها في موسم الحج و انضم إليه إباضية الحجاز بزعامة الفقيه و الداعية الإباضي أبي الحر علي بن الحصين الذي قام يدعوا للإباضية سرًا ، وكانت له صلا بالإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، و يقدر أباعه بأربعمائة رجل .

فوجئ والي الحجاز عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك بظهور الإباضية على جبل عرفات ، و لم يجد بدًا من التفاوض معهم خاصة و أنه لم يكن مستعدًا من الناحية العسكرية ، و تدخل بعض تابعي التابعين من كبار القوم تجنبًا للصدام على أساس أن يتخلى الوالي الأموي عن مكة بعد الحج مباشرةً ، وفعلاً غادرها في ذي الحجة سنة 129هـ ، و دخل الإباضية مكة دون قتال ، و كان تقدير القائد أبي حمزة الدخول في هذا الموسم عن تخطيط و دهاء سياسي بعيد فرصة للدعاية السياسية لأهل الدعوة ، بقدر مامثلت احراجا للوالي الأموي الذي لا يستطيع طلب مدد يأتيه من الشام و هي بعيدة ، وعلى الرغم من الموقف العدائي لأهل مكة لاعتبارات قبلية إذ أن أغلبهم قرشيون فإن السياسة الإباضية اظهرت موقفًا وديًا من أجل التقرب إليهم ، فقد نادى منادٍ لأبي حمزة لمدة أربعة أيام معلنًا الأمان لكل الناس باستثناء المحاربين .

ضم الطائف :

بعد أن استقر أبو حمزة في مكة وجه مجموعة من جيشه للاستيلاء على الطائف، و لما علم أهل الطائف بقدومه تركوها و أخرجوا النساء لاستقبال الشراة الإباضية، و قد أعطى القائد الأمان لأهلها فرجعوا إليها ، و لم يغفر القرشيون الذين تجمعوا في المدينة لمقاومة أبي حمزة موقف أهل الطائف ، و اعبروا هذا الموقف خيانة منهم و هددوهم إن هم ظفروا بهم ليسبين نسائهم ، و من هنا يتضح لنا موقف آخر يتجلى فيه تسامح أهل الدعوة و موقفهم من إخوانهم المسلمين و موقف القرشيين الذين يهددون بسبي النساء إخوانهم و بني قومهم و هم لم يحرروا أنفسهم .

- **معركة قديد و الاستيلاء على المدينة :**

جهز الوالي الأموي الهارب إلى المدينة بعد أن حرض أهاليها على مواجهة الإباضية حملة عسكرية عدد أفرادها حوالي ثمانية آلاف مقاتل و أعطى قيادتها لعبدالعزيز بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان و هو خيار له دلالته و أبعاده التاريخية كما لا يخفى ، و حالما علم المختار أبو حمزة بمسيرهم إلى مكة فضل أن يلاقيهم خارج مكة لكي لا يعطي أهلها مجالا للتحرك و الوقوف إلى جانب القوات القادمة من المدينة ، و كان جيش أهل الدعوة يتألف من طوائف متعددة : إباضية من اليمن و الحجاز من قبيلة خزاعة ، و مجموعة من إباضية الموصل ، و مجموعة من القرشيين المتحمسين للمذهب الإباضي بقيادة أبي بكر محمد بن عبدالله بن عمر القرشي ، لقد أضفت وحدة العقيدة الإباضية وحدة من الترابط و الانسجام على الجيش الإباضي الذي اجمع من عدة قبائل ، في حين كان جيش المدينة يتألف من عناصر متنافرة من القرشيين و الأنصار و مجموعا أخرى من عدة قبائل .

التقى الجيشان في قرية (قديد) بين المدينة و مكة ، و كعادة الإباضية كانوا لا يبدأون عدوهم بالقتال إلا بعد أن يوضحوا رأيهم ، و يدعون إلى السلم و ترك الحرب ، و قد أوضح بلج بن عقبة لجيش المدينة الغاية من حملتهم العسكرية بأنها لا تستهدف الحرب معهم بقدر ما تؤكد على إزالة السلطة الأموية في الشام ، لكن المفاوضات السلمية لم تفلح أمام القائد الأموي الجديد عبدالعزيز بن عبدالله الذي يعرف جيدًا موقف أهل

الدعوة من الخليفة عثمان في السنوات الأخيرة من حكمه مما أدى إلى نشوب المعركة في ( قديد ) في صفر سنة 130هـ ، وانتهى اللقاء بهزيمة الجيش الأموي و أهل المدينة بعد أن فقدوا العديد من رجالهم ، و بالرغم من تسامح أبي حمزة مع أهل المدينة إلا أن هذا التسامح شجعهم على الرجوع لمقاتلة الإباضية ، فأوقع بهم أبو حمزة هزيمة منكرة قتلاً و أسرًا و تركوا قائدهم صريعًا في الميدان ، و في رواية للطبري أن عدد القتلى في هذه المعركة سبعمائة قتيل .

دخل أبو حمزة المدينة ، و فر القائد عبدالواحد بن سليمان إلى الشام كما فر من قبل من مكة قبل وصول أبي حمزة إليها و بايع أهل المدينة عبدالله بن يحيى و أظهروا الطاعة كرهًا ، ثم توجه الإمام أبي حمزة إلى المسجد النبوي الشريف وأخذ يخطب في أهل المدينة يحثهم فيها على العودة إلى كتاب الله وسنة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم باعتبارهم أولى بالقيام بأمر المسلمين عن غيرهم ، لكن تلك الخطب لم تحرك في عزائمهم الخاوية شيئا ، والأكثر من ذلك فقد استنكر أهل المدينة سلوك أبي جمزة وأصحابه فتخلوا عنهم وانضموا مع الجيش الأموي القادم من الشام ـ كما سيرد ـ .

حينما وصلت انباء هزيمة الجيش الأموي إلى مروان استاء من الوضعية المزرية التي آل إليها جيشه العرمرم أمام فئة قليلة فاستعد للمعركة فجمع أربعة آلاف من أشجع رجاله و أعطى لكل منهم فرسًا و بغلاً لحمل ثقله و معه مئة دينار زيادة على عطائه و كان معظم الجيش من القبائل القيسية ، و بذلك أراد مروان أن يضرب الإباضية و معظمهم من القبائل اليمنية برجال من القبائل القيسية الموالين لبني أمية ، وعندما علم أبو حمزة بمسيرة هذا الجيش الشامي أرسل قائده بلج بن عقبة الأزدي لملاقاته ، و تقابل الجيشان في وادي القرى وهزم جيش أبي حمزة هذه المرة نظرًا لعدم توازن القوى فقد كان جيش بلج لا يتجاوز ستمائة مقاتل ، على أن الإباضية لم يبدأوا بالقتال و دعا بلج الشاميين إلى العمل بكاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، و رد عليهم أهل الشام بالشتائم ، فما كان من القائد إلا أن أمر بالهجوم و انهزم الشاميون أول الأمر ، ثم ما لبثوا أن أعادوا الكرة و هزموا جيش بلج الذي قتل في المعركة ، واعتصم عبدالله بن الصباح الحميري بأحد جبال المدينة و معه نصف جيشه فحاصرهم عبدالملك ابن عطية و قاتلهم ثلاثة أيام متوالية .

وعند وصول خبر الهزيمة ومقتل بلج إلى أبي حمزة قرر الخروج من المدينة لمقابلة الجيش الأموي خارجها ، و في سنة 130هـ جرت معركة ضاربة لم تكن فيها الفئتان متكافئتان ، فالجيش الشامي كان أكثر عددًا و أحسن عدة ، و انتهت المعركة باستشهاد القائد أبي حمزة المختار بن عوف ، وقد شجع استشهاد أبي حمزة و اندثار جيشه في الحجاز عبدالملك بن عطية للتفرغ لعبدالله بن يحيى الكندي طالب الحق بأمر من مروان بن محمد و قد التقى الطرفان إلى الشمال من صنعاء في منطقة (صعدة ) وجرت معارك عنيفة أظهر فيها الإباضية بسالة نادرة انتهت باسشهاد البطل الإمام طالب الحق ، و لمقتله اتسمت الحركة الإباضية بالانحسار داخل جنوب الجزيرة العربية مكتفية بالدفاع عن مراكز وجودها في اليمن .

على الرغم من الهزيمة واستشهاد الإمام غير أن الأباضية لم يستسلموا ، فقد تجمعوا تحت راية عبدالله بن سعيد الحضرمي إمام الدفاع الجديد للدفاع عن آخر حصونهم ، و قد سارع عبدالملك بن عطية للقضاء على الحركة قبل أن تعود إلى قوتها من جديد ، و دارت معارك حامية استمرت أيامًا و ليالي ، استبسل فيها الإباضية و هزم فيها الجيش عدة مرات بين كر و فر ولعل أعنف المعارك هي التي دارت حول حصن شبام .

و بعد أن سيطر عبدالملك على مدينة شبام مارس عمليات السلب و النهب و السبي و قطع المياة و المؤونة و وضع الحراسات على الطرق لمنع الإباضية من التزود بالمؤونة بعد أن سيطر على أهم مراكزهم المهمة ، و على الرغم من الحركة استطاعت لأن قتل القائد الأموي عبدالملك إلا أن قائدًا جديدًا هو الوليد بن عروة استطاع أن يقود حملات إبادة مروعة انتقامًا لمقتل عمه ، و يرجح أن القضاء على آخر كيان سياسي للحركة في حضرموت تم في مطلع عام 132هـ .

## حركة أهل الدعوة في عمان

### علاقة أهل عمان بالدعوة الأباضية :

لقد ارتبط أهل عمان بالفكر الأباضي منذ وقت مبكر ويعود ذلك إلى مجموعة من العوامل منها :

أولا : إن إمام الحركة هو جابر بن زيد دون منازع، وكان يعتمد في نشر دعوته السرية على الأزد أكثر من اعتماده على غيرهم ثقة وولاء ، ومنهم المختار بن عوف الشاري، وبلج ابن عقبة الأزدي، وصحار العبدي، وهلال بن عطية العماني ، والربيع ابن حبيب، وابو سفيان محبوب بن الرحيل، وغيرهم كثير.، كما استغل الإمام فترة وجوده بعمان إثر نفيه ، حيث انعكس ذلك على وضع الدعوة في عمان ، فساعدها على الانتشار بين القبائل العمانية .

ثانيا : جهود الإمام أبي عبيدة تمشيا مع سياسة شيخه في التركيز على عمان والتي تكللت بإرسال حملة العلم وهم الشيخ موسى بن أبي جابر الأزكوي والشيخ بشير بن المنذر النزواني والشيخ محمد بن المعلا الكندي والشيخ المنير بن النير الريامي الجعلاني الذين حملوا على عاتقهم ترسيخ الفكر حتى غدا العقيدة السائدة في المجتمع العماني بأسره .

ثالثا : طبيعة أهل عمان الرافضة لسياسة الظلم وللتيارات المنافية للشرع الحنيف مع تقبلهم للفكر الإسلامي الأصيل ، ففي الوقت الذي امتنع فيه العمانيون الخضوع لدولة بني أمية لكون سياستها تتعارض مع النظام الإسلامي ورفضهم الشديد للأفكار الخارجية الصفرية المتطرفة التي تمكنت من دخول عمان عام 67 هـ وقف العمانيون سدا منيعا وحاربوا دعاتها حتى طهروا البلاد من معتقداتهم الفاسدة ، وفي المقابل نجدهم يبدون تجاوبا منقطع النظير مع الفكر الأباضي ويعملون على تبنيه والدفاع عن مبادئه ، لأن العمانيين وجدوا أن الفكر الأباضي يحمل المبادئ الإسلامية الصحيحة ، فهوينادي بالعودة إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

**قيام الإمامة الإباضية بعمان:**

بعد الخسارة التي مني بها الأباضية في اليمن الناجمة عن سقوط الإمامة ، وجدت القيادة في البصرة ضرورة بعثها من جديد ، مستغلة الظروف التي يمر بها العالم الإسلامي سنة 132هـ والمتمثلة في المرحلة الانتقالية بين دولة بني أمية المتهالكة والدولة العباسية الناشئة التي تسعى إلى تثبيت مركزها ، وقد تم اختيار عمان لإعلان الإمامة الجديدة ، إذ كانت الظروف التي تتمتع بها عمان سياسياً واقتصادياً واستراتيجياً كلها تؤهلها لهذا الدور العظيم بعد فشل تجربة اليمن وحضرموت والحجاز .

وقد أُختير الإمام الجلندى بن مسعود الذي كان ضمن من بايع الإمام طالب الحق ولشخصيته الفذة ، ولما يتمتع به من المعرفة بالشئون السياسية والإدارية التي ورثها من اسرته الكريمة التي جكمت عمان منذ ظهور الإسلام .

**رد فعل السلطة العباسية:**

إن قيام مثل هذه الإمامة الشرعية ذات الطابع الإسلامي القائم على الشورى والإنتخاب كان لابد أن يزعج السلطات العباسية في العراق، فقد رأتها منافساً خطيراً قد يستقطب المضطهدين المتعطفيشن إلى حكم قائم على العدالة والتشريع الإسلامي، مما جعل السلطات العباسية تسارع إلى القيام برد فعل قوي سنة 134 هـ فعاملت الإمامة الاباضية كما عاملتها السلطات الأموية قبلها، ولذلك جندت حملة عسكرية بقيادة خازم بن خزيمة التميمي الذي كلفوه بالقضاء على الصفرية المجتمعين في جزيرة ابن كاوان ثم السير إلى عمان للقضاء على الإمامة الفتية قبل استفحال أمرها وثباتها ، وقد نجح خازم في هزيمة الصفرية وطردهم من الجزيرة فهربوا إلى منطقة جلفار في الشمال الشرقي في عمان، ولكن الجلندى بنزعته الوطنيه وكرهه لمبادئ الخوارج ارسل إليهم قوة عسكرية لطردهم من البلاد مالم يقبلوا الإنضواء تحت حركة اهل الدعوة، ولما رفض الصفرية هذا الشرط قاتلهم وقضى على قائدهم ، وبذلك استفاد القائد العباسي بهذه العملية من جهتين القضاء على الصفرية قضاءً تاماً وإضعاف الإباضية.

تقدم القائد العباسي الذي كان يرقب اللقاء وعرض على العمانيين الدخول تحت الحكم العباسي إلا أنهم رفضوا فدارت بين الجيشين معارك قاسية عنيفة، رجحت فيها كفة

العمانيين من البداية، ولكن خازماً اتبع طريقة جديدة فأحرق بيوت الإباضية وشغل اذهانهم بأولادهم واهلهم وممتلكاتهم مما ساعد على الانتصار عليهم ً، وبعد سبعة أيام من القتال الشديد استطاع خازم أن يهزم جيش الجلندى بعد أن قتل منهم نحو عشرة آلاف بحسب ابن الأثير.

ومع هذه النهايه المؤلمة التي أصابت العمانيين إلا أنهم لم يستكينوا للدولة العباسية التي كانوا يعتبرونها حكومة ظالمة لا ينبغي الركون إليها، والخضوع لسلطانها، فاعتبر الاباضية أن معركة جلفار الأولى والثانية تجارب ينيغي استغلال نتائجهما وجعلها دافعاً لهم لشحذ الهمم واستنهاض العزائم والعمل على تكريس الجهود للدفاع عن العقيدة والوطن ومواجهة سياسة الطغيان ، وتأسيسا على ذلك قدر لأهل عمان بعث الإمامة من جديد عام 177هـ مؤكدين على قدرتهم الفائقة في إقامة دولة الإسلام ورفض الظلم بكل أشكاله ، ومنذ ذلك التاريخ سادت الأباضية الحياة في عمان ولم تغب عنها شمس الإمامة إلا في القليل النادر.

## الأباضية في المغرب

**انتشار الدعوة :**

لقد ارتبط انتشار الدعوة الأباضية بالمغرب بالرحلة التي قام بها سلمة بن سعد الحضرمي ، فعد أول داعية أباضي ، وكان نزوله ناحية طرابلس ، وقد حرص فور وصوله على إظهار المبادئ ، فكان يقول : ( وددت أن يظهر هذا المذهب بأرض المغرب يوما واحدا من غدوة إلى زوال فما أبالي إن ضربت عنقي ) ، وبناءعلى جهود سلمة فقد ارتحل بعض من اعتنق المذهب من أهل جبل نفوسة إلى البصرة ليأخذوا أصول الدعوة وتعاليمها عن إمامها الأكبر أبى عبيدة . وتذكر المصادر الإباضية من مشاهير هؤلاء : أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغطير الجناونى الذي كانت له جهود كبيرة في إقناع كثير من بني قومه من نفوسة لاعتناق مذهب أهل الدعوة ، مما جعل جبل نفوسة معقلا رئيسيا وسندا حقيقيا لإباضية المغرب خلال الثلث الأول من القرن الثاني الهجري ، كما ساعد على انتشار المذهب بين القبائل البربرية القاطنة في الجبل وما حوله .

**حملة العلم الخمسة :**

ظلت الوفود القادمة من المغرب تتوافد على البصرة لإدراكها أن الدعوة الصحيحة تحتاج إلى منابع أساسية ولا يقوم بها إلا أبناء المنطقة نفسها ، ولا يستطيع ذلك إلا علماء مبرزون يتعمقون في الأصول الإسلامية ومبادئ الدعوة ، ومن أجل هذا الغرض توجهت أول بعثة علمية إلى البصرة متألفة من أربعة أشخاص اختيروا من مناطق مختلفة من المغرب وهم : أبو درار إسماعيل بن درار الغدامسى من غدامس جنوب طرابلس ، وعبد الرحمن بن رستم ( فارسي الأصل ) عربي المولد والنشأة والمولود القيروان ، وعاصم السدراتي من سدراته غربي أوراس ، و أبو داود القبلي النفزاوي من نفزاوة جنوبي تونس ، وانضم إليهم في البصرة أبو الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعافري اليمني الأصل ، وكان تحركهم للمشرق على أقرب تقدير عام 135 هـ ، ومكثوا في البصرة خمس سنوات ينهلوا من معين العلوم الشرعية على يد الشيخ الكبير أبي عبيدة .

## دولة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح:

كانت عودة حملة العلم عام 140 هـ وهم يحملون علما غزيرا ، وفور وصولهم عملواعلى نشرمبادئ الفكر الذي اعتنقوه وآمنوا به بمناطق المغرب ، فكونوا تلامذة نجباء اشتهروا بعلمهم وتقواهم وورعهم وإخلاصهم للدعوة الإسلامية ومن أشهر هؤلاء : أبو خليل الدركلى ، وعبدالوهاب ابن عبدالرحمن بن رستم ، ومحمد بن يانس ، وعمر بن يمكتن وغيرهم كثيرون .

وفي العام نفسه اجتمع رأي العلماء على مبايعة أبى الخطاب إماماً عليهم طبقاً لأوامر إمام المذهب أبي عبيدة ، وكانوا قد وضعوا الخطط السياسية المحكمة ، وأعدوا القبائل البربرية مثل نفوسة وهوارة لتستعد للثورة وتعلن الإمامة ، وهيأوا لعدة العسكرية والبشرية لإنجاح هذه الثورة ، وبعد أن تمت مراسيم البيعة توجهوا إلى مدينة طرابلس للاستيلاء عليها طبقا لخطة كانوا قد وضعوها من قبل ، وقد استطاعوا بفضل السرية التامة والتخطيط المحكم أن يدخلوا طرابلس ويفتحوها دون قطرة واحدة ، ولم يتمكن الوالي العباسي من الاستعداد الدفاع عن المدينة ، فاضطر إلى الاستسلام . وهكذا استولى أبو الخطاب على طرابلس فأحسن السيرة بها وأظهر العدل والمساواة اللذين طالما تشوق أهالي المنطقة لهما.

ولم يكتف الأباضية بهذا الإنجاز بل حرصوا على بسط نفوذهم ، حيث عملوا على الإستيلاء على القيروان مستغلين الظروف السيئة التي تمر بها في ظل حكم ورفجومة الصفرية ، ففي عام 141 هـ تحرك الإمام أبو الخطاب وفتح القيروان بعد أن سيطر في طريقه على قابس .

## ردة فعل الدولة العباسية :

بعث أبو جعفر المنصور للقضاء على أباضية المغرب جيشا بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي ، فاضطر أبو الخطاب للعودة إلى طرابلس للدفاع عنها ، وترك عبد الرحمن بن رستم واليا على القيروان ، وتمكن أبو الخطاب في صد الجيش العباسي ، ولكن مالبث أن أعاد الكرة بجيش قوامه أربعون ألفاً، واستطاع أبو الخطاب التغلب عليه مرة ثانية، وهنا لجأ ابن الأشعث إلى الحيلة فتظاهر بالانسحاب الى المشرق ، ولم يلتفت أبو

الخطاب لهذه الخديعة فسرح عناصر جيشه الذي كان من الأهالي والفلاحين الذين عادوا إلى مزارعهم في موسم الحصاد ، مما سهل على ابن الأشعث القضاء على من بقي مع أبي الخطاب فقتلهم جميعا في معركة تاورغا، وكان ذلك سنة 144هـ ، وقدأدت الهزيمة إلى تشتت الإباضية في البلاد والتجأوا إلى الجبال يتحصنون بها ، لأن تمادى في ملاحقة من بقي منهم تقتيلا وإبادة حتى افنى منهم خلقا كثيرا، وقدرأى أهل الدعوة تجنبا لعمليات الإبادة التي مارسها ابن الأشعث أن يلجأوا إلى الكتمان إلى حين اشتداد ساعدهم واجتماع كلمتهم . وقد استطاعوا ذلك سنة 145 هـ حيث اجتمعت القبائل على مبايعة إمام للدفاع وقع عليه اختيارهم وهو أبو حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي ، وقد استطاع بمساعدة نفوسة أن ينتصر على جيوش العباسيين ويدخل طرابلس، ويحاصر القيروان ويحقق انتصارات باهرة ، ولكن نجدات أخرى جاءت من المشرق بقيادة يزيد بن حاتم ، وقد استطاعت في الأخير أن تقتل أبا حاتم الملزوزي وتهزم جيشه ، وكان ذلك سنة 155 هـ ، ولم يكتف القائد العباسي بذلك بل عمل على ملاحقة أهل الدعوة وقتلهم في كل مكان فاضطروا للعودة للكتمان للمرة الثانية .

**الدولة الرستمية :**

عندما علم عبد الرحمن بن رستم بالمعارك الدائرة مع العباسيين تحرك إلى طرابلس ، لكنه علم أن الإمام قد استشهد ، فاضطر للعودة للقيروان ، لكنها تنكرت له كما تنكرت قابس على عامل الإمام ، فلم يجد بداً من التوجه فرارا إلى المغرب الأوسط بصحبة خادمه وابنه عبد الوهاب ، وظل سائرا بين القبائل الإباضية متخفياً سالكاً طريقا وعرة من جنوب الجزائر ، وقطعها من شرقها إلى غربها في مغامرة إلى حين وصوله إلى جبل يدعى (سُوفجَّجْ). وقد وجد عبدالرحمن أنصارا له في الطريق ساروا معه الى الموقع المذكور ، ولحق به ابن الأشعث وظل يحاصر هذا الجبل المنيع حتى أيس منه فرفع عنه الخصار .

**بناء العاصمة تاهرت:**

لقد خرج عبد الرحمن من الحصار منتصرا فساعد ذلك على تجمع المسلمين الفارين من ابن الأشعث حوله ، ورأى ومن معه من أصحابه من أجل حماية أنفسهم وعقيدتهم ضرورة بناء مدينة يأوون إليها ويتحصنون بها ، ويبدو أن الانطلاقة الفعلية لبناء هذه المدينة كانت في نهاية 155 هـ وبداية 156 هـ ، وقداجتهد الإمام عبد الرحمن ومن معه من أهل الدعوة على إيجاد مكان مناسب لبناء مدينة مثالية تحصيناً ومنعة ، وهواء وجمالاً ، وكان الموقع المختار أشجارا وأحراشاً ومرتعاً لأنواع السباع ، وتفصل بعض المصادر العملية في بناء المدينة بداية من المسجد الجامع ونهاية بالدور والقصور ، والبيوت والأسوار الحصينة . وقد ازدهرت المدينة واشتهرت بحسن جمالها وامتياز موقعها ، مما جعل الكتاب والرحالة يشيدون بوصفها، من ذلك وصف المقدسي حيث يقول : " . . . هي بلخ المغرب، قد أحدقت بها الأنهار والتفتت بها الأشجار، وغابت في البساتين، ونبعت حولها الأعين وجل بها الأقليم، وانتعش فيها الغريب ، واستطابها اللبيب ، يفضلونها على دمشق، وأخطأوا، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا، هو بلد كبير، كثير الخير رحب ، رقيق طيب، رشيق الأسواق، غزير الماء، جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف...."

تواصلت عملية التطوير وابناء في المدينة الجديدة ، وجاءها الإباضية من المغرب كله حتى كان عان 160 هـ ، وقد استأنس الإباضية من أنفسهم قوة ، ووجدوا أنهم يملكون كل المقومات المادية والمعنوية لإعلان إمامة الظهور ، فنظرو لمن يتولى الأمر ، فلم يجدوا أبرز ولا أليق من عبدالرحمن بن رستم لسابقته ودينه وعلمه، فضلا عن جهوده الجبارة في حماية الدعوة وأتباعها ،وبهذا يكون الإمام عبدالرحمن ابن رستم بعد هذه المبايعة أول إمام لأول دولة إسلامية في المغرب الأوسط ( الجزائر) عرفت في التاريخ بالدولة الرستمية، وكانت دولة إباضية تستظل بها جميع القبائل المعتنقة لهذا المذهب من المغربين الأوسط والأدنى، إضافة إلى غيرها من المذاهب الداخلة ضمن حدودها.

وقد امتازت هذه الدولة بنظامها الشوري ، وعدالتها ، وأمنها . وازدهارها ، إذ كانت رغم مذهبها الإباضي الرسمي الغالب ، يعيش تحت سلطانها كل المذاهب الأخرى ،

وعرفت مساجدها وأسواقها مناظرات مفتوحة بين العلماء وأهل الكلام ، وازدهر فيها الشعر والأدب ، واستمرت على هذا النحو من التطور والعمران انطلاقا من عاصمتها تاهرت التي كانت في مركز اقتصادي ممتاز سهل لها الاتصال بالدول شرقا وغربا شمالا وجنوبا ، فكانت تمر بها القوافل التجارية متجهة إلى الصحراء حتى وصلت علاقتها بإفريقية السوداء ، واتجهت شمالاً لتمتين الروابط مع الأندلس ، كما اشتهرت بالرخاء والأمن فقصدها الوافدون من كل الأقطار والأمصار ، وظلت مرتبطة بعلاقات وثيقة بإباضية المشرق ، الذين كانوا يرون فيها دولتهم، وقوتها من قوتهم ، لأنها ثمرة جهود علماء المذهب الإباضي في المشرق والمغرب .

وظلت الدولة الرستمية قائمة تشهد عهودا متميزة تؤكد من خلالها على رقي الفكر الأباضي وقدرته على تأسيس دولة قائمة على شريعة الإسلام احتضنت كافة المذاهب لأكثر من قرن ، حتى اصيبت بالوهن فكانت نهايتها على يد أبي عبدالله الشيعي الذي أتلف تراث دولة ساهمت في بناء الحضارة الإسلامية مائة وستة وثلاثين سنة ( 160 - 296 ) ، ونتيجة لذلك عاد أهل الدعوة إلى الكتمان ، لكن سرعان ماطوروا وضعيتهم عبر نظامهم الجديد المتمثل في حلقة العزابة ـ كما سيأتي في صفحات لاحقة بإذن الله تعالى ـ .

# أسس الدعوة عند الإباضية

بعد أن قُضِي على أبي بلال، بدأ الإمام جابر بن زيد يتأمل الواقع، ورأى أن المسلك العدائي ولمواجهة بالسيف مع الدولة الأموية أسلوب خاطئ، ورأى أن الدعوة السلمية تُوَاجَه بالعنف أيضًا، مما أدى إلى القضاء على خيار الدعاة.

وبحُكمِ ما عند الإمام جابر من سعةٍ في العلم فقد فكر في منهجٍ آخر، وهذا المنهج يقوم على عدة أسس، ومنها:

## الأساس الأول: كتمان أمر الدعوة

أول أساس وضعه الإمام جابر في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى هو: إتباع منهج الكتمان في حالة الخوف.

فبَعدَ أن شعر بضرورة الدعوة انطلاقًا من قوله تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) [آل عمران:١١٠]، كان لابد من استمرارية عملية الدعوية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن بأسلوب مختلف عن المحاولات الدعوية السابقة، وأن يكون لهذا المنهج الذي يريد أن يضعه دليل من القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، وفيما يلي ما يدل على هذا المنهج:

**١ – كتمان مؤمن آل فرعون للدعوة:**

في القرآن الكريم إشارات إلى كتمان الدعوة في حال الخوف عليها وعلى أصحابها، فعندما نتأمل كتاب الله ﷻ نجد أن المؤمنين في الأمم السابقة كانوا يمرون بظروفٍ صعبة وخوف شديد، فكان مسلكهم الكتمان، والبعد عن الأنظار؛ محافظةً على الدين، وبُعدًا عن الصدام الذي قد يؤدى إلى القضاء على الدعوة، أو على الدين بشكل عام.

ففي كتاب الله ﷻ نجد قصة الرجل المؤمن من آل فرعون، قال الله سبحانه وتعالى عنه: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ) [غافر:٢٨] فحكى الله سبحانه وتعالى عن هذا الرجل أنه كان يكتم إيمانه، ولم يكن يظهر

هذا الإيمان خوفًا من فرعون؛ ولذلك فالإنسان في حال الخوف يجوز له ما لا يجوز في حال الأمن، ولنا في كتاب الله عز وجل دليل على ذلك.

ففي وقت الاضطرار يجوز للإنسان ما لا يجوز في وقت الاختيار، أو وقت السلم والأمان والاستقرار، فالظروف الصعبة لها استثناءات، قال الله سبحانه وتعالى: (لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) [البقرة: ٢٨٦]؛ ولذلك حرم الله سبحانه وتعالى علينا الميتة وحرم علينا لحم الخنزير وحرم علينا الدم في الظروف الحياتية الطبيعية، لكنه أباحها وقت الاضطرار، قال تعالى: (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [البقرة:١٧٣].

فمؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه، ونستفيد من هذا أنه يجوز للداعية أن يكتم دعوته، عمن يخاف منهم القضاء عليه هو، أو القضاء على دعوته. وهذا ما فعله الإمام جابر في بداية دعوته.

**٢- كتمان أهل الكهف دينهم:**

في سورة الكهف يخبر الله سبحانه وتعالى عن أولئك الفتية، فقد اعتزلوا قومهم بعد إيمانهم، قال تعالى: (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهُ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا) [الكهف:١٦]. فهؤلاء الفتية آووا بأنفسهم إلى الكهف بعدًا عن الأنظار، وخوفًا من بطش الحاكم الجبار الظالم.

ثم قال الله تعالى عنهم بعد أن استيقظوا من رقدتهم: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) [الكهف:١٩]. أي: ليكن حذرًا وهو يحضر لنا الطعام بحيث لا يحس به أحد، أو يكتشف أمره وإلا سيُقضَى علينا، لذلك قالوا له: اذهب لإحضار الطعام في سرية، ولا تجعل أحدًا يحس بك حتى لا يكتشف القوم أمرنا.

انتبه:

يمكن للداعية أن يخفي دعوته، إذا خاف على نفسه أو على دعوته من الظالمين، كما كان متبعًا في الأمم السابقة.

٣- كتمان الدعوة في سيرة النبي ﷺ:

في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام ما يثبت جواز كتمان الدعوة إذا خاف الداعية على نفسه أو على دعوته، ففي بداية دعوة النبي ﷺ في مكة كان ملتزمًا بالمنهج الدعوي سرًا –كما مر بنا في الدروس السابقة–، فبداية الدعوة كانت سرية، ولم يكن يعلن على الملأ ما بعثه الله تعالى به للناس، وكان الصحابة يصلون في شِعاب مكة بعيدًا عن أنظار كفار قريش، وكان الرسول ﷺ يجتمع بالصحابة في دار الأرقم بن أبي الأرقم خفية بدون أن يعلم بهم أحد.

ففي البداية أراد أن يكتسب الفئة التي تؤمن بهذا الدين، والتي يرسخ فيها الإيمان، والتي من خلالها يحافظ على الدعوة حتى لا يقضى عليها في مهدها.

٤- النبي يأمر بالاستعانة بالكتمان في قضاء الحوائج:

في سنة النبي القولية ما يفيد صحة ما ذهب إليه الإمام جابر في بداية دعوته، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان». فلا ينبغي للداعية أن يذيع أمر الدعوة وهو يعلم أن الواقع المحيط واقعٌ صعب، وإنه ربما جر عليه مشكلةً أكبر.

كل هذه الأدلة كانت معروفة لدى الإمام جابر، وقد كان أمامه الواقع والتجارب الشاهدة، فثورة الإمام الحسين تم القضاء عليها، وكذلك ثورة الإمام أبي بلال السلمية تم القضاء عليها، لذلك سار الإمام جابر في دعوته سرًا وفقًا لما معه من الأدلة من القرآن والسنة التي ترشده إلى ذلك.

فمِن الحكمة أن يسلك الداعية إلى الله عز وجل مسلكًا فيه محافظةٌ على دينه ومحافظةٌ على دعوته، واستمرارية للدعوة بحيث لا تتوقف.

٥- الدعوة بين الإعلان والإسرار:

الأصل أن تكون الدعوة إلى الله ظاهرة وعلنية، والذي يجعل الداعية يلجأ إلى هذا أسلوب الكتمان هو ما يشاهده من تسلط وقهر وقتل وسفكٍ للدماء. لكن لو أتيحت لهم الدعوة وسمح له بالقيام بواجب الإصلاح فإنه من الواجب الإعلان بها؛ لأن أمر الدين والإصلاح ليس سرًا، فلا ينبغي أن يحتفظ به الداعية لنفسه، وإنما هو أمرٌ عام ينبغي أن يعلمه المسلمون جميعًا.

لكن للداعية أن يلجأ إلى السرية فقط عندما يكون هناك خطر، أما في حالة الأمن والاستقرار فإن عليه أن يقوم بهذا الدور علنًا، ويبتعد عن مسلك الكتمان.

٦- استخدام التَّقِيَّةِ في كتمان الدعوة:

إن الدعوة في بعض الأحيان تحتاج من الداعية أن يستخدم التقية في كلامه، بحيث يُوهِم الآخرين بأنه على غير مسلك الدعوة، أو أنه لا صلة له بالدعوة إن كان يخشى على نفسه أو على دعوته، ودليل ذلك ما ورد في قصة عمار بن ياسر ﷺ، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: (مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ) [النحل:١٠٦]. أن عمار بن ياسر كان يُعذَّب عذابًا شديدًا، حتى إنه كان يشارف على الموت، وطالبوه بِسَبِّ الرسول ﷺ، ففعل ما يرضيهم تقيةً وخوفًا منهم لا اعتقادًا في قلبه بذلك.

ولذلك صدرت من عمار رضي الله عنه بعض الكلمات التي تسيء للرسول ﷺ، فجاء إلى الرسول ﷺ معتذرًا فقال الرسول ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنٌ بالإيمان. فقال ﷺ: «فإن عادوا فعد».

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: وأما قوله تعالى: (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ) [النحل:١٠٦] فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهًا لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئنٌ بالإيمان بالله ورسوله.

قال ابن جرير بسنده: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا، فشكي ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنٌ بالإيمان. قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد».

ثم يقول ابن كثير: ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يُوَالَى المكره على الكفر إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال ﷺ يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل حتى أنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: "أحدٌ، أحدٌ". ويقول: "والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها".

إذن يجوز للداعية استخدام التقية بحيث يتقي شر أعداء الدعوة حفاظًا على نفسه ودينه، ويجوز أن يصارحهم بما يعتقد إن كان مستعدًا للشهادة في سبيل الله. فكلا المسلكين جائز.

**انتبه**

**إذا تعرض الداعية لمكروه شديد؛ فإنه يُرَخَّص له أن يتلفظ ببعض الكلمات الكفرية التي تستنقذ حياته من الأعداء، وله أن يأخذ بالعزيمة ولا يماشيهم فيما يطلبون منه.**

**٧- تطبيق الكتمان في دعوة الإمام جابر:**

لأن الإمام جابر بن زيد كان على علم وفقه كبيرين فقد قرر أن يسلك مسلك الكتمان، ولا يظهر أمام الناس أنه متزعم لجماعة تدعو إلى الله وتريد الإصلاح وإعادة

الخلافة على ما كانت عليه في زمن رسول الله ﷺ وزمن خلفائه الراشدين، فكان يختلط بالناس ولا يشعرهم بأن له دعوة خاصة، أما علاقته بأتباعه وببعض مناصري الدعوة في ذلك الوقت فكانت وثيقة، وقد تمثل ذلك في بعض الأمور، منها:

**أ- صلاة الجمعة خلف بني أمية:**

رُوِي عن الإمام جابر أنه كان يصلي الجمعة في المسجد الجامع بالبصرة خلف بن زياد، إمعانا منه في الحفاظ على سرية معتقده، وإبعادًا للتهمة عنه وعندما كان أصحابه من القَعَدَة يعاتبونه على ذلك كانوا يجيبهم: "إنها صلاةٌ جامعة وسنةٌ متبعة".

ففي الأمور الظاهرة لا ينبغي للداعية أن يعتزل الناس، أو يستقل بنفسه، بل يمكن له أن يخالطهم وأن يصلي معهم وأن يعيش معهم عيشة طبيعية.

**ب- تمزيق رسائل المراسلة الخاصة بالدعوة:**

من شدة حرص الإمام جابر على هذا المسلك إنه كان إذا بعث رسالة إلى بعض أصحابه فإنه كان يأمره بتمزيقها، كما ذكر ذلك الدكتور فرحات الجعبيري في كتابه عن "رسائل الإمام جابر بن زيد"، فكان للإمام منهج صارم في الحفاظ على سرية الدعوة.

**ج- الوصية لأتباعه بالكتمان:**

كان الإمام جابر يوصي أصحابه وأتباعه بهذا المسلك، بحيث لا يفشون شيئًا من أسراره؛ ولذلك وردت بعض الروايات تقول: يقول أبو سفيان محبوب بن الرحيل -والد العلامة محمد بن محبوب المؤرخ والإمام الإباضي المعروف-: إن شيخًا من الإباضية يُدعَى أبو سفيان قَمْبَر قد أخذه عبيد الله بن زياد -والى الأمويين على العراق- وجلده ليدل على أحد من المسلمين (المقصود بالمسلمين: الإباضية، لأن الإباضية في بداية نشأتهم لم يكن لهم اسم مستقل، وكانوا يسمون أنفسهم المسلمين بمعنى: الملتزمين الموفين بشرائط الإسلام، ولكن هذا لا يعنى أنهم ينفون صفة الإسلام عن بقية المسلمين) فلم

يفعل، قال الإمام جابر: وكنت قريبًا منه، وما كنت انتظر إلا أن يقول: هذا هو، فعصمه الله.

أي: كان أبو سفيان متحملًا للأذى، ولم يفشِ سر دعوة الإمام جابر؛ لأنه لو قُضِيَ على الإمام جابر فقد قضي على الدعوة، لأن الإمام جابر هو العالم الكبير الذي كان كانوا يستقون منه العلم والتوجيهات الدعوية.

ومع كل هذه الاحتياطات التي اتبعها الإمام جابر بن زيد إلا أنه لم يسلم من الأذى، بل سُجِنَ ثم نُفِي إلى عمان، وكان هذا النفي إلى عمان من تقدير الله ونعمته على أهل عمان، فلما جاء إلى عمان وجدها تربةً خصبةً لتقبل دعوته، وأقبل الناس عليه، وتتلمذوا عليه، وفهموا فكرته ودعوته، وبالتالي انتشرت دعوته في عمان ووجدت قبولًا، لكنه لم يلبث كثيرًا وعاد مرةً أخرى إلى البصرة.

هذا المنهج الذي اتبعه الإمام جابر غرسه في تلميذه الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريم، والإمام أبي عبيدة من التابعين؛ لأنه أدرك بعض الصحابة، وتتلمذ على يد كبار التابعين كجابر بن زيد ﷺ وكالحسن البصري وغيرهما.

فهم الإمام أبو عبيدة منهج الإمام جابر فهمًا عميقًا؛ ولذلك استطاع أن يستوعب علم الإمام جابر، ويستوعب منهجه الدعوي، فحرص على أن تكون الدعوة مستمرة في منهج الكتمان؛ خوفًا من أن يبطش بها الأمويون؛ وبعد رحيل الإمام جابر بن زيد ﷺ استمر الإمام أبو عبيدة على نفس المنهج، وأخذ يجتمع بأصحابه في سراديب تحت الأرض، وفي بيوتٍ بعيدة، وكان يضع سلسلة عند أبواب السراديب، ويتظاهر بصناعة القفاف، بحيث إذا داهمهم أحد فأنهم يظهرون بأنهم فقراء ليس لهم حرفة إلا صناعة القفاف؛ ولذلك سُمِيَ بالقفاف، وسُمِّي مَن معه بـ "القفافين".

وفي بعض الأحيان كانوا يذهبون بعيدًا عن أنظار الناس، حتى لا يراهم أحد، فمنهج الكتمان جعل الدعوة محضنًا وتربية لعدد من أتباعها وأفرادها. فتتلمذ على يد الإمام أبي عبيدة عدد كبير من حملة العلم الذين أتوا إليه من مختلف بقاع الأرض لتلقي العلم، وبالتالي استطاع الإمام أبو عبيدة أن يربي مجموعة من العلماء، ومن بين هؤلاء: الإمام الربيع بن حبيب الذي روى المسند، وكذلك جعفر بن السماك العبدي، وأبو نوح صالح الدهان، وضمام بن السائب، وطالب الحق عبد الله بن يحي الكندي، وأبو حمزة الشاري، وعبد الرحمن بن رستم... كل هؤلاء تتلمذوا على يد الإمام أبو عبيدة تحت المنهج الكتمان الذي كان يدعو إلى الله سرًّا، وقد أدى هذا المنهج دوره، وكان له نجاحٌ كبير في إعداد هذه الفئة المجاهدة والداعية إلى الله سبحانه وتعالى.

إذن يعتبر الأساس الأول والمهم في دعوة الإمام جابر هو كتمان الدعوة؛ ولذلك ما استطاع الأمويون إن يكشفوا عن دعوة الإمام جابر، ولا الإمام أبو عبيدة؛ ولذلك حفظهم الله ﷻ من أن يقعوا تحت سيف الأمويين.

### الأساس الثاني: التربية الإيمانية للأفراد

منهج الكتمان ليس هو المنهج الوحيد الذي اتبعه الإمام جابر والإمام أبو عبيدة من بعده، وإنما لهم أسس أخرى في الدعوة، ومن هذه الأسس: التربية الإيمانية للإفراد، ونقصد بالتربية الإيمانية: إن مَن ينتمون لهذه الدعوة ينبغي أن يكونوا قمةً في الورع والتقوى والصلاح، بحيث لا يرتكبون شيئًا من الموبقات أو من الكبائر، أو لا يظهرون خلاف ما يبطنون، وإنما لا بد أن يكونوا في مقدمة الناس في الالتزام بهذا الدين.

**١ – التربية الإيمانية عند الإمام جابر:**

كان الإمام جابر قدوة لإتباعه، فقد كان معروفًا بالزهد، ولم يكن عنده مال، ومع ذلك كان يقول عن نفسه: "ليس فيكم أغني مني، ليس عندي درهم ولا عَلَيَّ دين".

وكان الإمام جابر يعيش عيشة الكفاف، وكان حريصًا على دينه ولم يكن حريصًا على دنياه، وكان بإمكانه أن يكسب الأموال الطائلة من بني أمية بحيث يصدر لهم الفتاوى التي تشرع لهم أفعالهم الذميمة، لكنه نأى بنفسه عن ذلك، وسلك مسلكًا حافظ به على رضا ربه سبحانه وتعالى، ويبتعد به عن الاصطدام مع هذه القوة المتغطرسة.

وكان الحسن البصري يقول عنه: "أن الإمام أبي الشعثاء كان مسلمًا عند الدينار والدرهم". بمعنى إنه كان متقيًا لله ﷻ، فلا يأخذ حق أحد، ولا يهتم بجمع الثروة ولا يبيع دينه مقابل ثمن بخس من هذه الدنيا، وإنما كان يطمح إلى ما عند الله ﷻ من أجرٍ عظيم.

**٢- التربية الإيمانية عند الإمام أبي عبيدة:**

كل الصفات السابقة كانت معروفة عن الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، فقد كان معروفا عنه الورع والتقشف، ولم يكن يأكل إلا القليل وما يسد رمقه، ولم يكن يعيش في قصر أو في بحبوحة من العيش، وإنما كان يعيش عيشة الكفاف، ولا يعبأ بجمع المال، وإنما كان مهتمًا بالتعليم والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه بالنوافل والعبادة والطاعة... وهكذا كان حال كل التلاميذ الذين تربوا في مدرسة الإمام جابر.

**٣- التربية الإيمانية عند أهل الحق والاستقامة:**

سلك العلماء من أهل الحق والاستقامة في جميع عصورهم مع تلاميذهم مسلك التربية الإيمانية، فكانوا ينشئون طلابهم على الزهد والورع والبعد عن الحرام والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك نجد أبا مسلم البهلاني يُثني عليهم في نونيته ثناءً بليغًا وهي أبيات طويلة نذكر بعضًا منها، يقول أبو مسلم:

أئمةٌ حُفِظَ الدينُ الحنيفُ بهمْ ... مِن يومِ قيلَ لدينِ الله أديانُ

صِيدٌ سُرَاةٌ أباةُ الضيمِ أُسْدُ شرًى ... شُمُسُ العزائمِ أوَّاهُونَ رهبانُ

سُفنُ النجاةِ هداةُ الناسِ قادتُهم ... طُهْرُ السرائرِ للإسلامِ حيطَانُ

إلى أن يقول:

سُبُقٌ إلى الخيرِ عَن جَدٍّ وعن كَيَسٍ ... دَانُوا النفوسَ فعزَّت حيثما دانُوا

سيماهُمُ النورُ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... وهَدْيُهُمْ سُنةٌ بيضاءُ تِبْيَانُ

همْ أسمعُ الناسِ في حقٍّ وأبصرُهُمْ ... وفي سواهُ هُمُ صُمٌّ وعُميانُ

لم تلهِهِمْ زهرةُ الدنيا وزخرُفُها ... إذْ همُّهُمْ صالحٌ يتلُوهُ رضوانُ

باعوا بباقيةِ الرضوانِ فانِيَهُم ... كأنَّ لذةَ هذا العيشِ أوثانُ

وَقْفٌ على السُّنةِ البيضاء سعيُهُمُ ... وفِي الجهادَيْنِ إن عزُّوا وإن هانوا

ما زايلت خطوةَ المختارِ خطوتُهُم ... ولا ثنَى عزمَهُمْ نفسٌ وشيطَانُ

فجاهَدُوا واستقَامُوا في طريقتِهِ ... عزومُهُمْ لصروحِ الدينِ أركانُ

أولئك القومُ أنوارِي هُدِيتُ بِهِم ... عُقبَى مَحبَّتِهم عفوٌ وغُفرَانُ

أئمَّتِي عُمدَتِي دِينِي محجَّتُهم ... غوثي إذا ضاقَ بِي في الكونِ إمكانُ

**نشاط (١):**

**بالرجوع إلى الشبكة العنكبوتية، ابحث عن قصيدة أبي مسلم البهلاني كاملة، واستنبط منها جوانب التربية الإيمانية عند الإباضية.**

وهذه القصيدة وغيرها الكثير من الأدلة مما يدل على أن المنهج في الدعوة ينبغي أن يكون متوافقًا: كتمانٌ وهو أساسٌ في العمل الدعوي، وأيضًا عمل صالح والتزام بمنهج الإسلام، ليس فيه تناقض، فالله ﷻ ذم التناقض فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ [٢]كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ) [الصف:٣٢].

٤ – أهمية التربية الإيمانية للداعية:

لابد أن يكون الداعية إلى الله متربيًا على الالتزام بالدين، بالمحافظة على الفرائض وأدائها حسبما أمر الله من صلاةٍ وصومٍ وزكاةٍ وحج... وغير ذلك، ومسارعةٌ إلى الأعمال الصالحة والنوافل، والتقرب إلى الله بصنوف العبادات، وبعدٌ عن الدنيا وحطامها أو التعلق بها.

وهذا لا يعني أن يترك الداعية أعمال الدنيا والكسب، بل لابد أن يكون موازنًا بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، حتى لا يقع في المحظور (الرهبنة)، فالرسول ﷺ يقول: «لا رهبانية في الإسلام»، فلا ينبغي للداعية أن يقول: سأعتزل الناس من أجل أن أعبد الله وأتقرب إليه، وسأتعبد في صومعتي أو في بيتي أو في مسجدي، ولا آمر بالمعروف ولا أنهي عن المنكر... هذا كله لا يصح من الداعية.

وكان الإمام أبي عبيدة وهو في مسلكه السري كان يعمل في القفافة من أجل كسب رزقه، وكذلك بقية العلماء كانوا يجتهدون هم يكتسبون رزقهم من أجل البقاء وليس من أجل الثراء، وهذا لأنهم فضلوا الآخرة على الدنيا.

## الأساس الثالث: التربية العلمية

ذكرنا قبل ذلك أن مِن سمات المنهج النبوي في الدعوة: العلم، والله سبحانه وتعالى قال: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) [يوسف:١٠٨] وأثنى الله ﷻ على العلماء في مواضع كثيرة، حيث قال: (يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) [المجادلة:١١]. وقال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) [فاطر:٢٨] وقال سبحانه وتعالى: (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) [آل عمران:١٨]. فالعلماء شهدوا لله سبحانه وتعالى بالوحدانية، وشَرَّفَهُم الله تعالى بأن قَرَن شهادتهم بشهادته وبشهادة الملائكة.

١ – التربية العلمية عند الإمام جابر بن زيد:

إن التبحر في علوم الشريعة مهم للداعية، ولذلك كان الإمام جابر متبحرا في العلم، وذكرنا كيف كان الصحابة يثنون عليه في سعة علمه.

وكان للإمام جابر ديوان كبير في باب العلم الشرعي سمى "بديوان الإمام جابر"، وقد روى أحاديث كثيرة، وأغلب ما جاء في المسند هو من الرواية عنه، وله روايات في صحيح البخاري ومسلم.

٢ – التربية العلمية عند الإمام أبي مسلم وتلاميذه:

كان الإمام أبو عبيدة مهتمًا بالجانب العلمي وتفقيه أصحابه وأتباعه وتعليمهم مبادئ دينهم وأحكامه، وأحكام القرآن وأحكام السنة النبوية الشريفة، وذلك غرس فيهم روح العلم وتتلمذ على يديه علماء كبار، كالإمام الربيع بن حبيب صاحب المسند، وطالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي أول إمام إباضي في اليمن، وعبد الرحمن بن رستم أول إمام بالمغرب، وسلمة بن سعد وأبو حمزة الشاري... وغيرهم، فهؤلاء كلهم كانوا من حملة العلم.

هذا المنهج انعكس في وجود مؤلفات كان لها أثر كبير في نشر الدعوة، ومن أهم المؤلفات "ديوان الإمام جابر"، و"مسند الإمام الربيع" و"رسالة الإمام أبو عبيدة في الزكاة" و"مدونة أبي غانم الخراساني". وهذه الكتب من مرجعيات الإباضية في عهدٍ مبكر، وهناك كتب كثيرة أُلِّفَت فيما بعد، تدل على أن الإباضية اهتموا في جانب التعليم والعلم، ولم يهملوا هذا الجانب التربوي؛ لأنه أساس مهم في مجال الدعوة.

**نشاط (٢):**

للإباضية إنتاج غزير في المجال العلمي، بالرجوع إلى مادة "تاريخ عمان والحضارة الإسلامية"، اكتب خمسة من علماء عمان في القرون الخمسة الأولى، واكتب أشهر مصنفاتهم، مع بيان أثر تلك المؤلفات في نشر الدعوة.

٣- التربية العلمية عند الإباضية في العصر الحاضر:

لا زال العلماء إلى يومنا هذا يؤلفون في مجال العلوم الشرعية المختلفة، وهذا دليل على ضرورة التربية العلمية وعلى ضرورة أن يتولى جانب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى العلماء، وأن على العلماء الدعاة أن يهتموا بجانب العلم، وأن يشجعوا على الاجتهاد؛ لأن باب الاجتهاد ما زال مفتوحًا، وفي كل عصر يظهر عددٌ من العلماء المجتهدين، وآخرهم في عصرنا سماحة شيخنا أحمد بن حمد الخليلي حفظه الله، والشيخ سعيد بن مبروك القنوبي، وهما من القامات العلمية البارزة والكبيرة في مجال الدعوة، ويعتبرون من علماء المجتهدين والذين جددوا في الدعوة إلى الله ﷻ، وفي علم الشريعة بما يوائم هذا العصر ويواكبه، وهذا دليل أن العلم له دور مهم في مجال توعية الناس والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

- خاتمة:

إذن هذه ثلاثة أسس رئيسة لمنهج الإمام جابر بن زيد في الدعوة، وهناك بعض الأسس الأخرى سنتطرق إليها إن شاء الله في الدرس القادم، ويتبين لنا أن مِن أهم الأسس التي أرساها الإمام جابر رحمه الله: الكتمان، ثم المنهج العملي التربوي، ثم المنهج العلمي.

* * *

وفي هذا الدرس بمشيئة الله نواصل تلك الأسس التي وضعها الإمام جابر، وسار عليها أتباعه من بعده، ومن تلك الأسس:

## الأساس الرابع: المسلك السلمي في التغيير

المسلك السلمي في التغيير يقومُ على أساس أن الدعوة إلى الله عز وجل تقوم على الإقناع والمحاجة والدعوة بالحسنى، وهذا ما فعله الإمام جابر، وإليك تفصيل ذلك:

**١ – الأمر الإلهي بالدعوة بالحسنى:**

تقومُ الدعوة إلى الله عز وجل على الحسنى، كما قال الله سبحانه وتعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل: ١٢٥]، فالدعوة إلى التغيير إنما تكون بالحسنى، والله سبحانه وتعالى يقول: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) [البقرة: ٨٣] أي: بالإقناع والمحاجة، وليس بالإكراه وليس بفرضِ الرأي على الآخرين أو بفرضِ المعتقد أو بفرضِ شيءٍ من الأحكام، دون أن يكون هناك توعية وتفهيم.

**٢ – الدعوة النبوية بالحسنى:**

استمر الرسول ﷺ في مكة المكرمة ثلاثة عشر عامًا، ولم يأمر أصحابه باستخدام السيف ولا بالرد حتى على الإيذاء والصبر التحمل –كما سبق أن درسنا–.

**٣– الإمام جابر يلتزم بالمنهج السلمي السري:**

كان الإمام جابر رحمه الله يدرك أن الخط السلمي هو الأكثر تأثيرًا، لكن الخط السلمي ممكن أن يكون جهرًا، وممكن أن يكون سرًا، وقد مارس أبو بلال الجهر السلمي، لكن في زمن الإمام جابر وأبي عبيدة مارسوا السِّلْم السري؛ لأنه لم يكن يسمح لهم حتى بالجهرِ بالدعوة.

٤ – الابتعاد عن منهج الخوارج:

لم يسمح الإمام جابر وأبو عبيدة باستخدام السيف في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ولا في تغيير المنكر، ولم يأمر أحدًا بإكراه الناس على هذا الأمر، وابتعدوا عن مسلك الخوارج الذين كانوا يريدون التغيير بالسيف، وكذلك لم يصدروا أحكاما في المخالفين بالتكفير، لأن التكفير مقدمةٌ لقتل الناس ولسفك الدماء؛ ولذلك لم يكن هناك رؤية عند الإباضية في بداية مسلكهم بتفكير المسلمين، وإنما كانوا يعتبرونهم إخوانهم ولهم حقوق الإسلام -كما هو معلوم.

٥ – عبد الله بن إباض يبرأ من العنف:

كان عبد الله ابن إباض في رسالته إلى عبد الملك بن مروان يبرأ من مسلك العنف في مواجهة المخالفين، أو في الدعوة إلى الله أو في إنكار المنكر، وكان يقول في رسالته: (نبرأ إلى الله من ابن الأزرق وأتباعه)، وابن الأزرق كان يحكم على مَن يختلف معه أو على بقية المسلمين بالكفر، وبالتالي كانوا يستبيحون الدماء؛ لأنهم يعتبرون مرتكب الكبيرة كافرًا كما ورد عنهم، ولكن الإباضية تحرزوا من إصدار مثل هذه الأحكام.

أما الإباضية فإنهم يرون أن بعض الكبائر تُعدُّ فسوق -أو كما يسمى في المصطلح الفقهي أو العقائدي: الكفر النعمة-، ويسمى عند أهل الحديث: كفرٌ دون الكفر، أو: كفرٌ لا يُخرِج من الملة، وقد يصور البعض أن الإباضية يكفرون المسلمين أو يكفرون مرتكب الكبيرة، وهذا له أسس شرعية، فالرسول ﷺ كان يقول: «لا ترجعون من بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»، فسمى القتال فيما بينهم كفرًا، لكن قال العلماء: هذا الكفر هو كفر النعمة، وليس الكفر الجحود أو كفر الشرك كما يعرِّفُه علماء العقيدة.

وكذلك قول الرسول ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمَن تركها فقد كفر»، أي: مَنْ ترك الصلاة فقد كفر كفرًا ليس مخرجًا من الملة لكن كفر النعمة بمعنى الفسوق أو النفاق.

٦ – حُرمة قتل المسلم إلا بدليل شرعي:

لا يجوز أن يُقتَل المسلمون إلا أن يقعوا فيما يوجب القتل كأن يقتلوا مسلمًا بريئًا فإن القاتل يقتل، (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى) [البقرة: ١٧٨]، فالقاتل وإن كان مسلمًا فإنه يُقتَل قصاصًا، وكذلك الزاني الذي يزني بامرأةٍ من محارمه فإنه يُقتَل، أو مَن يبدِّل دينه ويخرج من الإسلام، فقال الكثير من العلماء: إنه يقتل. لكن لا يجوز أن يُكفَّر المسلمون أو يُقتَلوا بسببِ معتقدٍ له وجه من التأويل؛ ولذلك لم يقاتل الإباضية.

أما الخوارج فكانوا يرون أن هذا نوع من القعود والخوف والجبن من خوض المعارك مع المخالفين أو مع المسلمين أو مع بقية مرتكبي الكبائر، والحقيقة هذا ليس خوفًا وليس جبنًا، وإنما هو ورع، وكان الخوارج يستندون إلى قوله تعالى: (لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا) [النساء: ٩٥]. وهذا الاستدلال في غير محله، فالمقصود هنا بقتال الكفار وفي ساعة الجهاد، والتي يعلنها ويقررها الرسول ﷺ أو يقررها الخليفة أو الحاكم أو العالم الكبير الذي ترجع إليه الأمور، ولا يقررها العوام أو يقررها طلبة العلم المبتدئين أو المتحمسين.

وهذا المنهج يتضمن السلامة للمسلم في الدنيا والآخرة، وأما الخوض في دمائهم وقتلهم -كما هو حاصل في عصرنا-، فكثير من الجماعات التي تريد الإصلاح وتسلك مسلك العنف، هذا حقيقةً لا يقره الإسلام، فهذا منهج يرفضه الإسلام.

إن الرسول ﷺ لم يكن في دعوته يأمر بقتل الناس جزافًا، بل كان منهجه عليه الصلاة والسلام منهجًا حكيمًا فيه رأفة ورحمه، والله سبحانه وتعالى قال: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) [الأنبياء: ١٠٧]، ولم يرسله نقمة على العالمين. ولا تتوافق الرحمة مع مسلك العنف والقتل.

**نشاط (٢):**

أشار الأستاذ إلى بعض صور العنف التي تحدث في العصر الحاضر، راجع فيديو المحاضرة، واكتب نموذجًا لذلك، وبيّنْ أثرَهُ في الدعوة.

إن مسلك العنف والقتل وسفك الدماء ناتجٌ عن الفكر فإذا كان الفكرُ يبيح القتل فإن عندما تعتقد أن مخالفك هو مشرك وإنه يجوز قتله فعندئذٍ يدفعك إلى أن تقتله أما إذا كان الفكرُ أو المعتقد لا يبيح لك ذلك ولا يسمح لك أن تحوم على المسلمين بالشرك فعندئذٍ ستبتعد عن مسلك العنف.

٧- المنهج السلمي عن الإباضية في العصر الحاضر:

كان الإباضية ولا يزالون يبتعدون عن مسلك العنف، وذلك نجد سماحة الشيخ الخليلي يقول: (إن الإباضية لم يتجرؤوا قط على إخراج أحدٍ من الملةِ وقطع صلته بهذه الأمة ما دام يدينُ بالشهادتين، ولا ينكرُ شيئًا مما عُلِمَ من الدين بالضرورة بغير تأويل؛ كأن ينكر الصلاة أو الزكاة، أو شيئًا من أركان الإسلام أو أركان الإيمان أو لا ينكر القرآن أو لا ينكر آية من القرآن أو لا ينكر نبيًا من الأنبياء، لأن هذا مما عُلِمَ من الدين بالضرورة).

فما دام مؤمنا بالله ومؤمنا برسول الله وبما جاء به رسول الله ﷺ وبالملائكة وباليوم الأخر ومقر بالفرائض ولا ينكر شيئًا من أمور الدين، فعندئذٍ لا يجوز استباحة دمه وإن كان مخالفًا في المذهب، لأنه قد تكون له مخالفات ناتجة عن تأويل أو عن حديث صح عندهم ولم يصح عند أخر، فلا يقتل بمثل هذه الأمور.

ثم يقول الشيخ الخليلي: (لم يتجرءوا -الإباضية- قط على إخراج أحدٍ من الملةِ وقطع صلته بهذه الأمة مادام يدينُ بالشهادتين ولا ينكر شيئًا مما عُلِم من الدينِ بالضرورة بغير تأويل، أما مَن استند إلى التأويل -وإن كان أوهى مِن نسج العنكبوت- فحسبه تأويله واقيًا له مِن الحكم عليه عندهم من الخروج من حظيرة الأمة، وخلع ربقة الأمة عن عنقه).

فالمتأول وإن كان تأويله أحيانًا غير مقبول، ولكنه اجتهد في فهم النص القرآني أو النص النبوي فأَوَّلَهُ على غير تأويل الصحيح، فلا نستطيع أن نحكم على هذا بإنه خارجٌ من الملة وأنه مشرك أو مرتد، وأنه يجب قتله.

هذا هو المنهج الذي سار عليه الإباضية في طوالِ عصورهم منذ نشأتهم وإلى عصرنا هذا، وما زال العلماء يؤكدون على هذا المفهوم، وبالتالي أصبح منهجًا مستقرًا وثابتًا ولا ينبغي لأحدٍ مِمن ينتسب إلى هذا المذهب أن يخالف هذا الجانب فإنه خطأه محمولٌ عليه بنفسه، ولا يحمل المذهب بكامله.

وعندما ننتقد بعض الجماعات الإسلامية وهي من مذاهب مختلفة فإننا لا نحمل مذاهبهم كلها نتيجة أفعالهم، فكل إنسان يتحمل وزره، وكل فئة تتحمل أوزارها، ولا يحكم على الجمع منهم، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤] الإنسان يحاكم على ما يفعله، ولا يحاكم الجمع بما فعله شخص أو مجموعة صغيرة.

وهذا المسلك السلمي جعل الناس يفهمون أن الإباضية ليس عندهم منهج عدائي للآخرين، وإنما دعوتهم سلميةٌ يدعون بها إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يبتغون بها أي عنف، ولا يسلكون فيها إكراهًا ولا يجيزون فيها سفك دم من دماء المسلمين.

## الأساس الخامس: التعايش مع الآخرين

كان مسلك الإمام جابر بن زيد رحمه الله التعايش مع المسلمين، فبجانب السلمية التي اتبعها، سلك مسلك التعايش مع المسلمين من أهل القِبْلَة، بحيث أنه لم يمنع الأباضية وأتباعه من التعايش مع المسلمين في كل شؤونهم كالبيع، والشراء، أو التزاوج، أو التوارث، فأجاز لأتباعه أن يكونوا من ضمن الأمة، فيصلوا معهم في مساجدهم.

### ١ – التعايش عند الإمام جابر:

كان الإمام جابر يصلي مع الوالي عبيد الله بن زياد ومع الحجاج بن يوسف، ولم يكن يعزل نفسه أو ينشئ كيانًا مستقلًا بعيدًا عن المسلمين. وكان يختلط بالناس ولم يظهر أن هناك حواجز

بينه وبين بقية المسلمين، لأن المسلم يبقى مسلمًا وإن لم يكن يفهم بعض الجوانب الدينية، أو بعض الجوانب الدعوية أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو الغايات الإصلاحية في المجتمع، لكنه يبقى على عقيدته وإسلامه، فالتعامل معه جائز والصلاة معه جائزة، سواء صلى إمامًا بالإباضية، أو صلى به الإباضي إمامًا. وهذا كله جعل هناك تعايش بين الإباضية وبين غيرهم من المخالفين

٢- التعايش عند أبي حمزة الشاري:

كان أبو حمزة الشاري من تلاميذ الإمام أبي عبيدة، وكان يعيش في القرن الثاني الهجري؛ ولذلك عندما جاء في المدينة المنورة كان من ضمن ما أعلنه من مبادئ أنه قال: (الناس منا ونحن منهم، إلا مشركًا بالله عابدَ وثن، أو كافرًا من أهل الكتاب، أو إمامًا جائرًا باغيًا). فهؤلاء الثلاثة أنواع من البشر هم الذين لا نتعايش معهم، وينبغي أن يكون هناك حد فاصل معهم، أما بقية المسلمين فهم يعتبروا إنهم إخوانٌ ونتعايش معهم ونتصاهر معهم ونتعامل معهم كبقية المسلمين.

وأكد هذا المفهوم علماء الاباضية من بعد ومنهم الإمام نور الدين السالمي رحمه الله حيث يقول:

**ونحـــن لا نطَالِـــبُ العبـــادَا ... فـــوقَ شـــهادَتَهِمُ اعتقـــادَا**

**فمَـــن أتـــى بـــالجملتين قلنـــا: ... إخواننـــا، وبـــالحقوقِ قُمْنـــا**

فمنهج الأباضية يعتبر أن جميع المسلمين منهج أخوانٌ لنا مادام يقرون بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأن ما جاء به محمد ﷺ هو حقٌ من عند الله تعالى. فهذه أسس ومبادئ نشترك جميعًا فيها، فلا ينبغي أن نكفر أحدًا من المخالفين بحجة أن هؤلاء ليسوا على مذهبنا أو ليسوا على نفس مسلكنا أو طريقتنا.

٣- التعايش في المجتمع الإباضي:

هذا المسلك اتبعه علماء الاباضية من السابق وحتى في عصرنا هذا وإذا كنا نحن وإياهم في مجتمعٍ واحد فإن الحقوق هي نفسها، وليس هناك تمايز بين الإباضي وغير الإباضي، وحتى

3 – بلوغ بنو أمية حد الفجور:

سُئل القائد الأموي: ما تقولون في القرآن والعمل به؟ قال: نضعه في جوف الدوارق– الدوارق: الأوعية المصنوعة من الصوف أو الليف، ويسمَّى عند العمانيين الجواني أو عند الشاميين الشوال، هذا تعبير مجازي يقصد به أن نهمل القرآن ولا نهتم به– فقال: ما تقولون في مال اليتيم؟ قال: نأكل ماله ونَفجر بأمه. فهذا البطر وهذه الصراحة فيها معاداة الحق وفيها الفجور والطغيان.

وكذلك أيضًا في خطبة أخرى يقول أبو حمزة لآل المدينة: «يا أهل المدينة سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فأسأتم، لعمر الله فيهم القول–يعنى أهل المدينة نفسهم كانوا يعترفون بأن بني أمية كانوا سيئين– وسألناكم هل يقتلون بالظن؟ فقلتم: نعم، وسألناكم: هل يستحلون المال الحرام والفرج الحرام؟ فقلتم: نعم، فقلنا لكم: تعالوا نحن وأنتم فنناشد الله أن يتنحوا عنا وعنكم– يعنى اخرجوا عن ولاية المسلمين وأمرهم ليختاروا المسلمون لأنفسهم– فقلتم: لا تفعلوا.

فهم ينكرون عليهم ولكن في نفس الوقت يقرونهم في ولايتهم. فقال أبو حمزة: تعالوا نحن وأنتم نلقاهم، فإن نظهر نحن وأنتم نأتي بمن يقيم كتاب الله وسنة نبيه –يعنى تعالوا ساعدونا وعاونونا نحن نقاتلهم فإذا لم يرضوا فإننا ننحيهم عن هذه السلطة ونتعاون نحن وإياكم على هذا المبدأ بحيث نطبق كتاب الله وسنة نبيه ﷺ– وأن نعدل في أحكامكم ونحمِلَكُم على سنة نبيكم».

فرفضوا هذا الكلام؛ لكن الإمام أبا حمزة ومن معه دخلوا في بعض المعارك مع بني أمية واستطاعوا أن يصلوا إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة ويقيموا فيها العدل، بناء على هذا رأى الإباضية أن هذا الواقع السيئ لم يستطيعوا أن يتقبلوه وبالتالي أقاموا العدل، بعدما نالهم ما نالهم من القتل، وعلمتم أن أبا بلال في السابق قُتل شر قتلة هو ومن معه، وكذلك نفي الإمام جابر بن زيد، والإمام أبو عبيدة عُذِّب وسُجِن أيضًا، فالمواجهات التي أرادوها في

في حال تعرض مخالفي الإباضية -وهم من المسلمين- لغزو من غير المسلمين فإن الإباضية يوجبون على أتباعهم مناصرة إخوانهم من المذاهب الإسلامية الأخرى، ولا يجيزون لهم التخلي عنهم أو خذلانهم.

٤ - التعايش عند الإباضية في العصر الحاضر:

للتعايش مع الآخرين عند الإباضية أشكال متعددة ظهرت في العصر الحاضر، منها:

أ- وجوب مناصرة الفلسطينيين:

يذهب علماء الإباضية إلى وجوب مناصرة باقي المسلمين من المذاهب الإسلامية الأخرى كما هو حادث الآن في القضية الفلسطينية، ولا يجيزون لأتباعهم التخلي عنهم أو خذلانهم.

فمعلوم أن اليهود استعمروا فلسطين، واستولوا على بيت المقدس والمسجد الأقصى، وذلك فتحرير المسجد الأقصى وتحرير فلسطين بشكل عام واجب على جميع المسلمين؛ ولذلك نجد علماء الإباضية يقرون هذا الواجب، ويوجبون على أتباعهم مساندة إخوانهم المسلمين في القضية الفلسطينية والدعوة إلى مناصرتهم، ومدهم بما يحتاجون إليه، ولذلك نجد علماؤنا في هذا العصر يحضون إخوانهم الأباضية إلى إسعاف إخوانهم في فلسطين بما يستطيعون.

فعندما يوجد هناك سبيل إلى مناصرة هؤلاء الإخوة المسلمين -وإن كانوا على غير نفس المذهب-، فالجميع مسلمون، وهذا هو الأساس الذي يوحدنا، وكما قلنا: أن الاباضية ليس عندهم مصطلح «الأباضية» في الأصل، سماهم المخالفون بهذا الاسم، والإسلام هو الأصل الذي يجمعنا ببقية إخواننا من بقية المذاهب.

ب- التعايش في ظل الحكومة الإباضية:

نجد أن المجتمع الذي يحكمه الاباضية يكون فيه تعايش بين الاباضي وغير الاباضي، فمثلًا: الحكومة في عمان على رأسها حاكم إباضي، وكذلك في السابق كان الأئمة كلهم إباضيون، وفي الدولة الرستاقية في شمال أفريقيا كان في مجتمعاتهم المالكية وغيرهم من المذاهب الأخرى، وكان الجميع سواسية، ولا يحس أحدهم بالفرق بينهم وبين الآخرين.

ج- التعايش عند الشيخ الخليلي:

يؤكد سماحة الشيخ الخليلي على المشتركات بين المذاهب فيقول: (يجب علينا أن نفكر فيما يجمع ما بين هذه الأمة، فنحن نرى قواسم مشتركة تجمع ما بين الأمة جميعًا، منها: وحدة المصدر؛ فإن جميع الأمة تؤمن بكتاب الله أنه هو المصدر الأول لفكرها وفقهها ومنهجها في حياتها، وتؤمن أيضًا بسُنة رسول الله ﷺ الثابتة الصحيحة، ومع هذا قبلتُها واحدة فإنها تجتمع على التوجه إلى بيت الله الحرام الذي يحجه المسلمون جميعًا على اختلاف طوائفهم، وعلى اختلاف مذاهبهم الفكرية والفقهية، وهناك اتحادٌ في أصولٍ كثيرة، أهمها: أركان الإسلام الخمسة، فإن أركان الإسلام الخمسة لا خلاف فيها، وإنما الخلافُ في تفسير جزئيتها، إذ لم تختلف الأمة في وجوب اعتقاد أنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، ولم تختلف في وجوب إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله تعالى الحرام، كما أن أركان الإيمان الستة لم تختلف الأمة في خمسةٍ منها، فقد اتفقت جميعًا على وجوبِ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر، وإنما وقع الخلاف في الإيمان بقضاء الله وقدره، بناء على تفسير كل طائفةٍ لهذه المسألة، فكل طائفة لها موقفٌ من هذه القضية، وبالنسبة للأركان الخمس من حيث الكليات الكل متفقون عليها وإنما الخلاف في الجزئيات). فهذه الأسس هي التي توحِّدُنا، وهي أهم من الفروع التي تفرِّقُنا.

وقد سُئِل سماحة الشيخ الخليلي: هل نصلي وراء المخالفين وإن لم يُجِزْ هو الصلاة خلفنا؟ فأجاب: نعم، نصلي خلفهم.

وعلى الرغم من هذا، فهناك البعض من المذاهب الأخرى –وليس كلهم– يقول: لا نصلي خلف الإباضي. لكننا نقول: صلاة الإباضي صلاةٌ صحيحة بحسب ما ثبت عن الرسول ﷺ، ولا تخرجُ عما أمر الله تعالى به وأمر به رسول الله ﷺ، ولذلك فصلاة الإباضي خلف غير الأباضي صحيحة، والعكس.

إن التعايش مع بقية المسلمين من أهم المبادئ التي أرساها الإباضية، ولذلك نجد والحمد لله التعايش في عمان بين الاباضية وإخوانهم من بقية المذاهب الأخرى تعايشًا قويًا، وهذا ناتجٌ عن الفكر الذي يستقيه الاباضية والذي يتعاملون به في مسلكهم مع بقية إخوانهم.

الأساس السادس: بيان الحقِ للسلطة وعدم قطع الصلة بها

هذا هو الأساس السادس والأخير من الأسس التي أرساها الإمام جابر بن زيد رحمه الله وأتباعه في الدعوة إلى الله تعالى، وهو: عدم قطع الصلة بالسلطة الحاكمة، فالسلطة الحاكمة يتم التخاطب معها وإن أنكرنا عليها بعض الأشياء، لكن نبين لها الحق بأسلوبٍ حسن.

١ – الإمام جابر والسلطة:

كان الإمام جابر بن زيد –على الرغم من الخلاف بينه وبين الأمويين– لا يقطع الصلة بهم، بل إن الحجاج بن يوسف كان يأمره بعد الذهاب إلى الحج إبقاءً له في مجتمع العراق حتى يسأله الناس في الدين، لأنهم كانوا يعتمدون عليه في الفتوى.

وكان يتكلم أمام الحجاج بما ينصحه به، وحينما يبدو من الحجاج موقفٌ مخالفٌ للدين فإنه يبين له الموقف، والإمام جابر كان معروفًا بالحكمة وسعة العلم، وكان الحجاج بن يوسف على الرغم من أنه معاديًا لمنهج الإباضية أو لكل من يدعو إليها، لكنه كان يحترم الإمام جابر احترامًا كبيرًا، وكان يريد أن يجعله قاضيًا، واعتذر الإمام جابر وقال: إني امرؤ ضعيف. فقال الحجاج: ما بلغ ضعفك؟ قال الإمام جابر: تأتيني المرأة وأمتها فلا أستطيع أن أعدل بينهما، فقال: إن هذا لهو الضعف.

وقد فسر العلماء قول الإمام جابر بأنه أراد عدم تولي القضاء عند بني أمية، ولم يكن بذلك الضعف، بل كان مرجعًا فقهيًا، ولكنه وَرَّى (استخدم التورية) بهذه المقولة بحيث يدفع عن نفسه تولي القضاء لحكومة لا يراها شرعية.

٢ – عبد الله بن إباض والسلطة:

كان عبد الله بن إباض على تواصل مع عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي، وكان يوجه له النصائح المباشرة، فكان يقول له: (مِن عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان، سلامٌ عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأوصيك بتقوى الله؛ فإن العاقبة للتقوى والمرد إلى الله، وأعلم أنه إنما يتقبل الله من المتقين، أدعوكم إلى كتاب الله وسُنة نبيه ﷺ، لتحلوا حلاله وتحرموا حرامه ولترضوا بحكمه وتنيبُ إلى ربكم)... إلى أخر ما جاء في رسالة عبد الله بن إباض إلى عبد الملك ابن مروان ولذلك هذا الموقف كان ممتدحًا من قبل الإمام نور الدين السالمي حيث يقول:

قد كانَ في أيامِ عبدِ الملكِ ... مع شدةِ الأمر وضيق المسلكِ
ناقشَهُ وبَيَّنَ الصوابَا ... ولم يكن لبأسِهِ قد هابَا
وكان لا يدعوه إلا باسمه ... تعزُّزًا بحقِّه وعلمِهِ
فصار معروفًا مع الجميعِ ... لِمَا حوى مِن شرفٍ رفيعِ
ونسبُوا مَن كان في طريقتِهْ ... إليه لاشتهارِ حسنِ سيرتِهْ

**نشاط (٢):**

**اكتب ثلاثة نقاط لكيفية تطبيق الأسس التي وضعها الإمام جابر بن زيد لخدمة الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر، واعرضها على أستاذ الفروض الافتراضية لمناقشتها.**

- خاتمة:

نكتفي بهذا القدر، بعد أن بيَّنا الأسس الست التي أرساها الإمام جابر وأبو عبيدة وعبد الله بن إباض في بداية الدعوة، وهذا الذي ينبغي أن يفهمه الأتباع والدعاة، ويسيرون على منواله ويختطون نفس المسلك حتى تكون الدعوة في مسارها الصحيح، وتُؤتي ثمارها وأُكُلَها بإذن ربها، ونلقاكم في درس لاحق لنشرح أهداف الدعوة عند الإباضية – إن شاء الله تعالى–.

* * *

# أهداف الدعوة عند الإباضية

## هدف الدَّعوة كما بيَّنه الشيخ الحضرمي

الشيخ العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن قيس الحضرمي أحد أئمة الإباضية في حضرموت في القرن الخامس الهجري، حيث كانت حضرموت في ذاك الوقت كلها من الإباضية، وقد كان قائمًا بالعدل والحق وداعيًا إلى الله وآمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر. كان له ديوان كبير اسمه: «السيف النقاد» هذا الديوان حققته بنفسي، وكل شعره فيه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ودعوة إلى إقامة الحق في الأرض، فيقول من ضمن ما قاله في الشعر:

**والله لا أشـــرًا قنـــا ولا بطـــرًا ... لا لا ولا طلبًـــا ملكًـــا وعـــدوانًا**

**لكـــن كقـــدوتنا بالعـــدل إذ نبـــذت ... آيـــات خالقنـــا والحـــق قـــد بانـــا**

**لســـنا نخيـــف ســـبيل العـــالمين ولا ... أيضًـــا ننبـــه غيـــر الضـــد يغشـــانا**

**لســـنا نســـائل خلـــق الله مـــا لهـــم ... حرصًـــا ولســـنا نـــولي الأمـــر خوانًـــا**

**لســـنا نقاتـــل مـــن يبغـــي مفاوضـــة ... قبـــل الـــدعاء ولا مـــن قبـــل يبـــدانا**

**لا نســـتحل لـــه مـــالاً ولا ولـــدًا ... كالمشـــركين ولا نكســـوه إيمانًـــا**

يعنى لا نبدأ أحدًا بقتال وكل من يريد أن يتفاوض معنا ويتحاور معنا ويتناقش معنا فنحن نمد له يد السلم ويد الأخوة ويد التعاون، ولا نصفه بأنه مشرك حتى نستحل دمه وماله؛ إنما هو يكون داخلاً في إطار الأمة المسلمة، فهناك أهداف نبيلة ومقاصد جليلة تصب في مصلحة المسلمين يسعى الإباضية إلى تحقيقها ومن هنا نأتي إلى تحديد هذه الأهداف.

### الهدف الأول: ردُّ الأمة إلى الهدي النبوي بعد انحرافها

تقديم:

تغيرت الأوضاع في العصر الأموي تغيرت كبيرًا عما كانت عليه في عهد النبوة، وعهد الخلفاء الراشدين، فمعلوم أن في عهد النبوة كانت شريعة الله هي المطبقة وكانت الحقوق

والواجبات الكل يعرفها والكل يؤديها، وكان يسود الناس العدل والإنصاف وليس هناك تمايز بين مسلم وآخر، فلا يوجد قتل ولا سفك دماء، فكان مجتمعًا نظيفًا، وكان من ضمن الأهداف أن يعيد الإباضية الواقع الذي اختلف في عهد بني أمية، وبرزت مظاهر اختلاف العهد الأموي عن العهد النبوي في الآتي:

1- توارث الخلافة:

أصبحت الخلافة بالتوارث فقد غير بنو أمية الواقع، وغيروا الخلافة إلى ملك عَضُوض، فصار بالتوارث، وكأن هذا الشيء ملكهم وأنهم أحق به من بقية المسلمين، وأنهم يتميزون بذلك عن غيرهم.

2- قتل المعارضين:

أصبح كل من يناوئ بني أمية، أو يعارضهم في هذه الفترة يقتل على الفور، وكانوا لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة، وكانوا يقتلون بالظن، ومعروف أن كثيرًا من الحروب خاضوها ضد المسلمين، وكانت نكبات في حقيقة الأمر، ومن ضمنها موقعة «الحَرَّة» فقد ذُكر أن ما يقارب عشرة ألاف من الصحابة وأبنائهم وأحفادهم قتلوا في تلك المعركة، وأنه استبيحت الأعراض والأموال فيها، وعُيِّن على المسلمين ولاة قساة مثل الحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه، وأصبحوا يستبيحون الدماء ويقتلون بالظن؛ لذلك قال أبو حمزة الشاري رحمه الله: «ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عُطِّلت -يعنى أطفئت- وعُنِّف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط؛ ضاقت بنا الأرض بما رحبت» فكان مقصد الإمام من ذلك أن يقيم الحجة على بني أمية.

☆ معلومة إثرائية:

**وقعة الحَرّة: كانت في عام 63 هـ بين أهل المدينة من طرف ويزيد بن معاوية والأمويين من طرف آخر، وانتهت بمقتل عدد كبير من الصحابة والتابعين.**

إصلاح الدعوة وفي إصلاح الواقع كانت عنيفة؛ أدت بهم إلى أنهم لا يقبلون بهذا الواقع حتى يُقيموا شرع الله في أرضه.

انتبه:

**نحن لا نحصر الإصلاح في فئة الإباضية. هناك فئات من الصحابة والعلماء والأئمة التابعين، حاولوا أن يصلحوا وأن يعيدوا الأمر إلى ما كان عليه، ابتداءً من الإمام علي كرم الله وجهه وابنه الحسين.**

وقد استطاع الإباضية –بعد مرورهم بفترة الكتمان– أن يكون لهم كيان وأن يقيموا الخلافة الإسلامية ويعيدوها إلى سابق عهدها فاستطاع عبد الله بن يحيي طالب الحق أن يكون إمامًا للمسلمين في اليمن وانتدب أبا حمزة الشاري لأن يبسط العدل في المدينة ومكة، وكانت نيته أن يتجه أيضًا إلى الشام وإلى سائر بلاد المسلمين ولكنها –بقدرة الله تعالى ومشيئته– لم تستمر، حيث تكالب الأعداء عليهم مِن كل صَوْب، وكان الإباضية قِلَّة من حيث العدد، فما استمرت خلافتهم لفترة طويلة فرجع الوضع إلى ما كان عليه في عهد بني أمية.

## الهدف الثاني: تحقيق مبدأ الحاكمية لله

لا شك أن الإباضية يستقُون مبادئهم وأفكارهم ومعتقداتهم وتصوراتهم من كتاب الله سبحانه وتعالى ومن سنة رسوله ﷺ، فهم لا يبتدعون أشياءً من عندهم، بل فَهْم النصوص وترجمتها إلى أرض الواقع.

ومعنى أن تكون الحاكمية لله: أن تَلَقِّي الأحكام والتصورات وجميع المفاهيم والقِيَم يكون من كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة رسوله ﷺ.

**أدلة أكَّدَت وجوب الاحتكام لأمر الله تعالى:**

الله سبحانه وتعالى عندما فرض هذا القرآن وفرض هذه الشريعة أمرنا بالاحتكام إلى كتاب الله في كل شيء ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾[الشورى:10]، ويقول الله عز وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف:40]، ويقول أيضًا سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:50]، وفي الآية بيان أن الحكم ينبغي أن يستمد من كتاب الله، سواء أكانت أحكامًا شرعية في الحياة أو التصورات أو الأفكار.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:]، وذلك من أجل أن نتفادى تحكيم البشر في قضايا نزل فيها حكم شرعي، هذا لا ينفي الاجتهاد، الاجتهاد فيما ليس فيه حكم شرعي ظاهر؛ فإنه يستنبط من القرآن الكريم والسنة النبوية وذلك بالقياس ولذلك يعتبر القياس أحد مصادر التشريع، وإذا تشابهت العلل أحيانًا تتشابه الأحكام.

وحقيقة كان الإباضية يدعون إلى هذا من منطلق أنه لابد من التسليم بما حكم الله، في كل القضايا؛ ولابد عندما ندعي إلى كتاب الله وإلى أن هذا هو حكم الله عز وجل فإن الجميع عليهم بأن يلتزموا بما حكم الله سبحانه وتعالى، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]،.

**موقف الإباضية من أمر التحكيم بدايةً:**

عندما نشبت الفتنة بين الإمام علي ومعاوية، كان موقف سَلَف الإباضية –لأن مصطلح الإباضية لم يكن موجودًا في ذلك الوقت– ينادون أنه لا حكم إلا لله بمعنى أن الحكم معروف وظاهر وهو أن الخليفة هو الإمام علي كرم الله وجهه ولا مجال للتنازل عن

هذا الحكم، وكانوا يسعون إلى أحد خيارين: استسلام معاوية ومن معه لحكم علي كرَّم الله وجهه، أو محاربة معاوية وقتاله حتى يتم القضاء عليه ومن معه، ولكن للأسف كان هناك مجال للتفاوض وبالتالي تلاشت الخلافة وضعف أمر المسلمين وصار الأمر لمعاوية ومن ثَم لابنه يزيد وصار الحكم إليه وهذا نتيجة القبول بمفهوم التحكيم، وأصبحنا نعاني تفرُّق المسلمين إلى يومنا هذا وأصبح الملك يتوارث ملكًا عضودًا وتغيرت مفاهيم الخلافة الإسلامية.

وعندما نادي سلف الإباضية أنه لا حكم إلا لله أُتهموا بأنها كلمة حق أريد بها باطل، مع أنه لا يوجد باطل، فالإباضية كانوا يريدون تثبيت الإمام علي فقط، وأصرُّوا حتى طالبوه بأنه يثبت ويستمر في القتال حتى يكون له الغلبة، هل هذا فيه باطل؟ هذا مما اتهم به هؤلاء المحكمة الذين كانوا يرون أنه لا مجال للتفاوض في هذا الأمر وأنه لابد أن تستمر الخلافة على ما كانت عليه، ولكن أسيئ بهم الظن وقوتلوا وحوربوا لأجل هذا واتهموا في نياتهم مع أن النيات لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

**قضية الحاكمية كما وضحها المفكِّر سيد قطب:**

قضية الحاكمية عند الإباضية أصبح في العصر الحديث من يفهمها بل ويطالب بها ولذلك نجد المفكر الإسلامي السيد قطب في كتابه (معالم في الطريق): حين تكون الحاكمية العليا في المجتمع لله سبحانه وتعالى وحده متمثلة في سيادة الشريعة الإلهية، تكون هذه هي الصورة الوحيدة التي يتحرر فيها البشر تحررًا كاملاً حقيقيًّا من العبودية للبشر، وتكون هذه هي الحضارة الإنسانية لأن حضارة الإنسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للإنسان، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع ولا حرية في الحقيقة ولا كرامة للإنسان في مجتمع بعضه أرباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون.

إذن التشريع الحقيقي هو لله سبحانه وتعالى ولذلك علينا أن نفوِّض الأمر له وأن نحتكم إليه وأننا لا نلجأ إلى أحكام أخرى قد تغوينا أو تصرفنا عن المنهج الحق الذي جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجل، فهذا كان المفهوم الواضح منذ البداية.

ويقول أيضًا سيد قطب موضحًا مفهوم الحاكمية فيقول: «إن مدلول الحاكمية من التصور الإسلامي لا ينحصر في تلقى الشرائع القانونية من الله وحده -يعنى ليست مجرد شرائع- والتحاكم إليها وحدها والحكم بها دون سواها، إن شريعة الله تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية، وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد وأصول الحكم وأصول الأخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة أيضًا».

فالإسلام ليس فقط (عبادات) كما يفهمه بعض الناس ولا يكون فقط في المساجد، بل الإسلام يتمثل في حياة الإنسان في جميع نواحيه.

**قضية الحاكمية كما أكد عليها بعض المفكرين المتأخرين:**

أكد على قضية الحاكمية كل من: أبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي، وهؤلاء من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث الذين حلَّلوا الواقع الحاضر وأرجعوه إلى ما حصل من انحراف منذ العصر الأموي، فهناك شبه إجماع على أن الانحراف في الأمة بدأ منذ ذلك العصر، فقد وضَّح أبو الحسن الندوي في كتابه: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) وأرجو من الكل أن يطلع على هذا الكتاب القيم، حيث بين أن الأمويين والعباسيين حولوا الخلافة الإسلامية إلى قيصرية وكسروية يعنى شبيهة تمامًا بالحكم القيصري بأن القيصر هو كل شيء، وكذلك كسرى كأنه هو الرب الذي يأمر وينهى والذي يشرع لأن ما يأمر به ينبغي أن يمتثل وأنه لا مجال لخلافه وإن كان مخالفًا لأمر الله، وأكد هذا الكلام أيضًا سماحة الشيخ الخليلي في كتاب له عن الاستبداد، فكل من يفكر في واقع الأمة الإسلامية ويعلم مصلحتها فإنه لا شك سيظهر له بكل نزاهة بأن الانحراف الذي انحرف إليه بنو أمية أوقع الأمة الإسلامية في إشكالات كثيرة ومازلنا نعانيها إلى يومنا هذا.

الهدف الثالث: تحقيق مبدأ المساواة بين المسلمين

التقوى هي المعيار في الأفضلية بين المسلمين، وفي حقيقة الأمر الإباضية يعتقدون أن جميع المسلمين سواسية، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على لأسود.

**أدلة أكدت على مبدأ المساواة بين المسلمين:**

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13]، فلا نميز مسلمًا على مسلم، فالكل سواسية عند الله سبحانه وتعالى، وهذا المفهوم نادى به الإباضية، والرسول ﷺ أكد على هذا المعنى أيضًا لقوله: «وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ» وقال ﷺ لعمته صفية وابنته فاطمة وهما من أقرب الناس نسبًا إليه: «يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللهِ، اشْتَرِيَا أَنْفُسَكُمَا مِنَ اللهِ، لَا أُغْنِي عَنْكُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا»، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن المسلمين في موازين الله كلهم متساويين والأفضلية عند الله سبحانه وتعالى إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

ونحن عندما نتأمل في كتاب الله سبحانه وتعالى نجد أن إبراهيم عليه السلام قال الله تعالى عنه بعدما نصحه بتلك المواعظ الحسنة المذكورة في سورة مريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ [مريم:45]، يعنى هذه الآيات البليغة المؤثرة ومع ذلك كان أبوه معارضًا له ولم يتقبل هذا النصح بصدر رحب فكان يقول: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾، فلما وصل إلى درجة اليأس منه قال الله عز وجل عنه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّـهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة:114] فإذا كانت هناك مفاصلة بين الأب

وابنه، أو بين الابن وأبيه، فإن النسب في الدين يكون بالإيمان والصلاح، وليس النسب العرقي أو الدموي بين الأب وابنه.

وكذلك العلاقة التي كان بين النبي نوح عليه السلام وابنه، قال الله تعالى عنه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 45] فنحن نلاحظ هنا أنه نفى الأهلية عنه بالرغم من أنه ابنه في النسب ولكن الاعتبار هنا لأهلية الإيمان والصلاح، وليست أهلية النسب أو العرق.

**اختلاف البعض مع الإباضية حول أولوية النسب:**

يرى الإباضية –كما بينا– أن التقوى هي معيار الأهلية والتمايز بين المسلمين، ، لكن هناك من اختلف مع الإباضية في هذا الجانب ورأوا أن للنسب مكانة خاصة، فقالوا: إن لآل بيت الرسول ﷺ مكانة، وأن لهم الأولوية في الإمامة والزعامة مهما كانوا، وقال بعض آخر: إن المكانة هي للقريشيين بحكم أن الخلافة كانت فيهم، خاصة بعد رسول الله ﷺ.

ونحن نلاحظ أيضًا أن القريشية التي كانت في الخلافة الراشدة لها أسباب، وليست لأن بعض الخلفاء من قريش؛ بل لأن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي تربوا في مدرسة الرسول ﷺ وكانت لهم سابقة إلى الإسلام فمن الطبيعي أن يكونوا هم أولى بالخلافة لمعرفتهم بأحكام الإسلام ولمعايشتهم للرسول ﷺ ولفقههم في الدين، ولجهادهم الطويل في سبيل الله عز وجل، ولأن لهم السبق في الإسلام.

**المعيار في تولي القيادة عند الإباضية:**

المعيار في القيادة هو مدى توافر الصفات المؤهلة لذلك، حتى يكون المعيار سليمًا في الاختيار، ولذلك عندما نقرأ قوله تعالى عن قصة طالوت كيف اصطفاه الله عز وجل ليكون ملكًا على بني إسرائيل لم يقل: إنه من نسب فلان وفلان، ولم يقل: إنه كان متميزًا بالمال، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ

عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّـهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّـهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، بمعنى أن القائد أهم ما يتمتع به هو القدرات العلمية والفكرية والذهنية وكذلك القدرات الجسمية التي يستطيع بها مباشرة الأعمال القيادية وليس الرجل الضعيف أو الجاهل بحكم أن نسبه كذا وإن كان شريف النسب، ولكن ليس عنده علم وليس عنده فقه وليس عنده صلاح ولا استقامة فإن هذا الرجل قد يؤدي إلى وقوع انحرافات كثيرة في الأمة أو في المجتمع، وما أمر بني أمية عنا ببعيد ولا أمر بني العباس عنا ببعيد، كانوا يولون سفهاء منهم وقليلي العلم وكثير منهم لم يعرف عنهم الصلاح والإيمان اللهم إلا عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فهؤلاء غالبيتهم ما كانوا على صلاح ولا سعة في العلم. وفي ذلك يقول الشاعر:

**وإنَّ كَبِيـــرَ الْقَـــوْمِ لاَ علْـــمَ عِنْـــدَهُ صَـغيرٌ إذا الْتَفَّـتْ عَلَيـهِ الْجَحَافِـلُ**

**الإباضية يحذرون من قضية معيار النسب في الولاية:**

كانت مسألة معيار النسب واضحة عند الإباضية، فإن المعيار في الاختيار والتمايز هو معيار الإيمان والتقوى والعلم والعمل الصالح، وليس النسب، وكان الإباضية يحذرون من قضية الاعتماد على النسب في مجال ولاية المسلمين، سواء بحكم قرابتهم من الرسول ﷺ أو بحكم انتمائهم إلى قبائل أو انتمائهم إلى قريش، هذا التصور أدي إلى أن بعض الفئات الإسلامية اعتقدت أن العصمة تخص شخصيات معينة، وأنهم لا يقعون في الخطأ كما حدث لبعض الفرق الإسلامية التي تعتقد ذلك في آل البيت أو بعض أئمتهم، فالعصمة ليست إلا للأنبياء، أما بقية البشر فليسوا معصومين ولو كانت هناك عصمة لَبينها الرسول ﷺ، وكذلك أيضًا لا ندعي العصمة للخلفاء الراشدين فهم أيضًا بشر، وكان أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما يقولان: «إذا رأيتم فينا اعوجاجًا فقومونا»، وهذا يدل على أن:

1 – الخلفاء رضوان الله عليهم، عندهم قابلية الوقوع في الانحراف؛ وبالتالي الرعية مطالبة، بتقويم هذا الخليفة أو ذاك القائد في حالة انحرافه أو وقوعه في الخطأ.

2 – هذا دليل على عدم وجود العصمة بسبب النسب، ولذلك ينبغي أن نتعامل مع المسلمين بمفهوم واحد هو أنهم جميعًا سواسية وأنه المعيار الأساسي في التفاضل بين المسلمين إنما هو العلم والتقوى والعمل الصالح والحكمة والقدرات المؤهلة الأخرى التي تستلزمها القيادة والزعامة والرئاسة.

- خاتمة:

نكتفي بهذا القدر وسنواصل إن شاء الله في الدرس القادم من المقرر، بقية الأهداف الرئيسية التي كان الإباضية يطمحون في تحقيقها وفي إيضاحها لجميع المسلمين وإلى غرسها في أفراد المجتمع المسلم وتفهيمها لكل من كان عنده شيء من الضبابية التي لم تتضح في هذا المجال.

* * *

نعلم جميعًا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مِن أهمِّ أمور الدين التي شرعها الله سبحانه وتعالى، والتي قال الله تعالى عنها في محكم كتابه: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ) [آل عمران: 110]، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مِن أساسيات الدين التي ينبغي أن يعلمها الجميع، ولا شك أنها من الأمور الواجبة على المسلمين -كما مر الخلاف حول وجوبها على الكفاية أو على الأعيان.

فمِن هذا المنطلق كان الإباضية يسعون إلى تحقيق هذا الأمر، ويهدفون إلى أن يكون المجتمع كله آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي الحكمة، فلا يصح التطاول على مَن هم أعلى مكانة في العلم أو في السن أو في المنصب الاجتماعي بالسباب والشتيمة أو غير ذلك، أو النقد غير المقبول أو التشفي بطريقة غير صحيحة، فهذا كله لا يعد من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المقصود بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إصلاح الواقع بطريقة حسنة، كما قال تعالى: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) [النحل:125]، والإباضية يعتبرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثابتًا من ثوابت الدين، وغايةً يطمحون إلى تحقيقها منذ بدايات دعوتهم؛ ولذلك نسوق قول الشيخ بشير بن محمد بن محبوب الرحيلي -وهو من علماء القرن الثالث الهجري- يقول في كتابه «المحاربة»: (فالمنكر واجب إنكاره، والأمر بالمعروف فرضٌ فيما فرض الله فعله، ونَفْل فيما نَفَّلَ فعله)، فيكون فرض وأحيانًا يكون نافلة حسب الظرف حسب المقام.

ويستشهد الشيخ على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأدلة عقلية وأدلة نقلية فيقول -رحمه الله-: (فأما الدليل على لزوم ذلك وفرضه من كتاب الله وسُنَّة رسوله، فإن الله يقول: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ

مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُون * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُون) [المائدة: 78:79]، وقال أيضًا: (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُون) [الأعراف:165]، فدَلَّ بالآية الأولى على وجوب اللعنة بترك النهي عن المنكر، وأنه اعتداء ومعصية. وفي الآية الثانية: وجوب النجاة من عذاب الله بالنهي عنه، فلو لم يكن فرضًا لما استحق النجاة به؛ لأن النفل من الأعمال إنما يُنال بها من الله الزيادة في ثوابه)، فلو كان مجرد نافلة لما وجبت اللعنة على تارك الأمر بالمعروف، وتارك النهي عن المنكر.

ثم يقول الشيخ –رحمه الله–: (وقال تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون) [آل عمران:104]، فأمرهم أيضًا به، وسماهم مفلحين بفعله)... إلى غير ذلك من الأدلة التي استنبطها الشيخ مِن الكتاب والسنة التي تدل على وجوب ذلك الفعل.

**نشاط (1):**

**تناولنا في الدروس الأولى حكم الدعوة إلى الله عز وجل، بمراجعة الدروس الأولى اكتب حكم الدعوة إلى الله عزوجل.**

يقول الشيخ بشير في بيان هذا الأمر: (وأما الإنكار في قدر الإمكان فأقل ذلك الكراهية للمنكر من أهله، وكذلك المعروف الإرادة له ممن يجب ذلك عليه، فإذا أظهر هذه الكراهية وهذه الإرادة له قامتا مقامَ المخاطبة). فأقل شيء يكون عندك كراهية لما ترى من المنكرات التي تتنافى مع أمر الله عز وجل ومع أمر الرسول ﷺ.

وكذلك إذا أردت أن تأمر بالمعروف فأقل ما يجب عليك هو أن تكون لديك الإرادة، وأن تصرح أحيانًا بكراهيتك لهذا الأمر، وتصرح بإرادتك لفعل الخير، فهذا يقوم مقام الإنكار في حالة عدم استطاعتك أن تنكر بلسانك أو تغيِّرَ بيدك.

هذا الأمر كان واضحًا عند الإباضية منذ البداية، ولا مجال فيه للتهاون أو التساهل بحيث أن يكون معدومًا في المجتمع؛ لأنه إذا انعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع فإنه لا شك أنه تتسرب إليه المنكرات وتنتشر فيه المفاسد، وبالتالي يتحول المجتمع شيئًا فشيئًا إلى مجتمع فاسد، وقد يؤدِّي به ذلك -والعياذ بالله- إلى الخروج من الإسلام، فلا بد من إنكار المنكر لا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذه المفاهيم يؤكدها الشيخ السلمي فى كتابه «جوهر النظام»، فيقول الشيخ رحمه الله:

| | |
|---|---|
| والأمـرُ والنهـيُ عـلى العبـادِ | فـرضٌ عـلى القـادرِ في الـبلادِ |
| وَهْـوَ عـلَى الـوُلاةِ والأئمَّـهْ | أشـدُّ مِـن وجوبِـهِ في الأُمَّـهْ |
| لأنهـم لـذاك قَـدْ تجـرَّدُوا | وقصدوه في الذي قـد قصـدُوا |
| وقيـلَ: مَـن قـدْ تـرك الإنكـارَ | عـن منكـرٍ فيـه شريكًـا صَـارَ |

فهو يقصد الأئمة والولاة والذين عندهم السلطة والقرار والقدرة على التغيير باليد، فهو أشد وجوبًا عليهم. وأن مَن يترك الإنكار بقلبه وبلسانه وبيده فهو يعتبر مشارك في هذا الإثم والعياذ بالله.

### الهدف الخامس: ترسيخ مبدأ الشورى ونبذ الاستبداد

من الأهداف التي كان الإباضية يسعون إليها: ترسيخ مبدأ الشورى ونبذ الاستبداد، فالشورى أقرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، بل وامتدح بها نبيه ﷺ ومن معه من المؤمنين، فقال عز وجل: (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) [الشورى:38]، وأمر بها رسوله الكريم فقال: (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) [آل عمران: 159]، فالله سبحانه وتعالى يأمر النبي ﷺ أن يستشير أصحابه، فإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام وهو مَن هو في مقامه الرفيع يأمره الله تعالى بأن يشاور أصحابه، فمَن هو

دونه أولى بذلك. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الإنسان بحاجة إلى من يستشيره وإن كان عنده العلم الكثير والخبرة الكبيرة و الفكر المتوقد... وغير ذلك من الصفات الحسنة، لكن يبقى هناك جوانب قصور، لا يستطيع أن يراها وإنما يُعِينُهُ مَن حوله.

ولذلك فالإنسان مطالب ألا يستبد بالأمر لنفسه، فالحكم في الإسلام ليس بالاستبداد وليس بفرض الأمر الواقع أو سياسة فرعون الذي كان يقول: (مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ) [غافر: 29]، يعني: لا أعترف بأي رأي آخر.

إن هذا المسلك مسلك خاطئ؛ ولذلك كان الرسول ﷺ يعلِّم صحابته الشورى، وفي معركة بدر كان يقول لأصحابه: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، فكان يطلب منهم الرأي والمشورة.

وكذلك في معركة أُحد استشار الرسول ﷺ، وكانت رأي الأغلبية أنهم يريدون خوض هذه المعركة، وهذا ترسيخ مبدأ الشورى عند المسلمين.

وكذلك أشار عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق في معركة الأحزاب، فكان رأيًا سديدًا، والرسول ﷺ عندما يرى رأيًا سديدًا فإنه يأخذ به.

كما أخذ برأي الحباب بن منذر في معركة بدر، عندما ردم كثيرًا من الآبار وغَيَّرَ موقعه، وأنشأ حوضًا مستقلًا للمسلمين. فكل هذه الأمور استشار فيها الرسول ﷺ أصحابه، وعمل بهذه الشورى، وهذا ترسيخ هذا لمبدأ الشورى في الأُمَّة.

وكان الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون يستشيرون منذ بداية عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولما توفي جُعِل الأمر شورى في المسلمين، فاختاروا من رأوه أهلًا للخلافة، وكذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، فكان أمر الخلافة شورى بينهم.

أما بنو أمية فاستبعدوا هذا الأمر تمامًا، وكان الاستبداد هو ديدنهم، فحصروا الخلافة فيهم، ولم يكونوا يستمعون لرأي صحابي ولا لعالم جليل؛ لذلك كان الاستبداد السمة الأساسية وهم مَن سنوا توارث الحكم في الأمة الإسلامية.

لكن الإباضية كانوا يسعون في حقيقة الأمر إلى ترسيخ مبدأ الشورى، ولذلك كان تعيينهم للأئمة مبنيًا على الشورى، فعندما عينوا الإمام طالب الحق عينوه بناءً على مشورة من العلماء، ومن أهم العلماء الذين تمت مشورتهم الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وكذلك كان تنصيب الإمام الجلندى بن مسعود عن مشورة، وكذلك تنصيب الإمام أفلح بن عبد الوهاب في شمال أفريقيا.

---

فكان أمر اختيار الإمام عن مشورة، وليس عن استبداد، وعندما يموت الإمام فإنهم يختارون بديلًا عنه لا يمد إليه بصلة نسب، إلا في النادر، أما في الغالب فإنهم يكونون من قبيلة أخرى أو من أسرة أخرى، فكانوا ينتخبون الإمام نتيجة لما لديه من قدرات ومؤهلات كالعلم والورع والتقوى والصلاح والشجاعة والحكمة... وغير ذلك.

وقد كان الإباضية مستمرين على هذا النظام، وخاصة الأئمة الذين تم تنصيبهم في عمان، فكانوا يتعاقبون بناءً على الشورى، وكان آخرهم -كما هو معلوم- الإمام سالم بن راشد الخروصي، وبعد وفاته تم انتخاب الإمام محمد بن عبد الله الخليلي، فهؤلاء الأئمة كانوا يُنتخبون من قِبَلِ العلماء، أو مِن قِبَلِ أهل العلم وأهل الفضل في ذلك الوقت.

وإذا أردنا أن نستشهد على هذا المجال فإننا نستشهد بما كتبه بعض الدارسين من غير الإباضية، الذين أشادوا بالتجربة الإباضية في انتخاب الأئمة، وعرفوا أن الإباضية سبقوا إلى قضية الديمقراطية الإسلامية منذ وقت مبكر، وأنهم مضوا عليها، وإن الهدف الرئيسي هو تنصيب الأكفأ في الحكم.

نجد الباحث الكبير الدكتور حسين غباش في كتابه «عمان الديمقراطية الإسلامية» يقول: (يستند نظام الإمامة الإباضية في إدارة شئون الدولة والمجتمع إلى مبدأ الشورى الذي يؤلف قانونًا ثابتًا وإلزاميًّا). فمبدأ الشورى ثابت وإلزامي.

ثم يقول: (وهذا المبدأ -مبدأ العدل والمساواة- الذي يمثل روح السلطة السياسية في الإسلام يرمي أساسًا إلى توحيد الأمة وتوحيد المجتمع من خلال المشاركة الفعلية للمواطنين، كما يهدف إلى تحقيق مبدأ الإجماع)، فعندما يُنتخب الإمام، فإنه يكون هناك رضا من غالبية الناس، وفي ذلك الوقت كان يمثل المواطنين العلماءُ والمشايخُ من أهل الحل العقد وهم الذين يتفقون على مصلحة والناس كانوا تثق فيهم، وتفوضهم في اختيار الحاكم، حتى يكون هناك شبه إجماع على هذا الاختيار.

ثم يقول: (إن نظام الإمامة يقوم على الانتخاب الحر للإمام)، وهذا مبدأ أساسي، وهذا لا يعني أنه لم تحدث مخالفات أو لم يحدث تغيير في هذا المبدأ الأساسي، فقد حصل في دولة الأعاربة اختلال لهذا النظام، ففي بدايتهم كانوا ينتخبون الإمام لكفاءته، فبعد الإمام ناصر بن مرشد أتى الإمام سيف بن سلطان الملقب بقيد الأرض، لكن بعده أصبحوا يتوارثون، وكان هذا التوارث في بدايته محمودًا بحكم الكفاءات التي حظوا بها، لكن بعد ذلك أصبحوا يظنون أن المُلك وراثة، وهذا الذي أضاع الحكم فيما بعد.

وقد انتقد الإمام نور الدين السالمي في كتابه «تحفة الأعيان» ما آلت إليه دولة الأعاربة؛ لأنهم اعتبروا أن الإمامة تتوارث كما فعل بنو أمية أو بنو العباس، فعلماء الإباضية لا يرضون بأن يكون الحكم متوارثًا باستمرار، ممكن أن يكون توارثًا محدودًا في حالة أن ابن الإمام أو ابن عمه أو قريبه يتمتع بصفات قيادية وعنده من النزاهة ومن العدالة ومن الحكمة ومن العدل ما يؤهله، فيكون عنده خبرة الكبيرة في هذا المجال لكن

بشرط ألا يستمر هذا الأمر، وإنما بشكل مؤقت يراعي الظرف، أما أن يتخذ ويسن هذا ما لا يجيزه الإباضية في مذهبهم.

ثم يقول الدكتور حسين غباش: (وبصرف النظر عن طبيعة الإمام؛ فإن مبدأ الشورى لدى الإباضيين غير قابل للتجاوز، فالإمام العالم والتقي الذي لا تحمل بيعته شروط الرجوع إلى أهل الحل والعقد لا يستغني عن الرجوع إليهم، على العكس من ذلك فإن الأئمة المنتمين إلى صفوف العلماء والمشهورين بأنهم أقوياء هم أكثر حرصًا على تطبيق مبدأ الشورى، والرجوع إلى مجالسهم، وهكذا فإن مبدأ الشورى والمشاركة يبدو مركزيًّا في الفكر السياسي الإباضي، بل إنه مميِّزٌ لروح المدرسة الإباضية)، فبناء على الدراسات أثبتت أن الإباضية يسعون إلى إقامة مبدأ الشورى في اختيار الإمام وتنصيبه أولًا، ثم المشاورة بعد توليه مهام الحكم.

وهناك نوعان من الأئمة فيما يتعلق بأخذ الشورى:

**النوع الأول:**

أئمة علماء كبار ولهم القدرة على استنباط الأحكام، ولهم معرفة كبيرة بأحكام الشريعة.

**النوع الثاني:**

أئمة قد لا تكون لهم القدرة على استنباط الأحكام، وليسوا متمكنين في علوم الشريعة، ولكن تميزهم صفات قيادية أخرى.

وعلى كل حال، فالإمام لا يستغني عن المشورة، وبالرغم أنه لا يشرط على الإمام إن كان من أهل الاجتهاد واستنباط الأحكام الرجوع إليهم، ولكن ينبغي أن يستشير العلماء والثقات، أما بالنسبة للإمام غير العالم فإنه يُلزم بالرجوع إلى أهل الحل والعقد.

هذا هو منهج الإباضية، وهذا هو الهدف الذي يسعون إليه وترسيخه في المجتمع بحيث يعلم من الجميع أن الشورى شيءٌ أساسي، وأن للمسلم التعبير عن رأيه وإدلاء بصوته إلى الإمام أو إلى المسئولين، وبيان ما ينبغي العمل به.

الهدف السادس: تحقيق مبدأ العدل بين الناس

قضية العدل مختلفة عن قضية مفهوم المساواة، فالمساواة تعني: أنه لا فضل لعربي على أعجمي، وليست هناك ميزات خاصة، أو عرق يتميز بميزات خاصة عن عرق آخر، أو أن هذا النسب له مميزات على باقي الأنساب، فلا ينبغي أن نقيم الاعتبارات على هذا.

لكن هناك مبدأ آخر وهو مبدأ العدل، والمقصود به: الحكم بين الناس بالعدل، وأن يأخذ كل ذي حق حقه. فالمظلوم لا بد أن يُنصر وأن يُرد إليه حقه، وكذلك الضعيف لا بد ألا نسمح للقوي بأن يظلمه أو يهضمه حقه، بل لا بد أن يكون هناك العدل، والله سبحانه وتعالى أمر بالعدل في كتابه العزيز حيث قال: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ) [النحل:90]، فإذن الله أمرنا بالعدل، فعلينا جميعًا أن نلتزم به.

ويقول سبحانه وتعالى: (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) [المائدة: 8]، فالعدل أمرٌ أساسٌ في الدين، ولا ينبغي الانصراف عنه أبدًا، وفقدانه مؤذِنٌ بفساد المجتمع، وتسلط فئة على فئة.

وقد كان ﷺ مرسِّخًا لهذا المبدأ في المجتمع المسلم؛ ولذلك كان يقول: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». فالرسول ﷺ يعلنها صريحة أمام الملأ، وحاشا السيدة فاطمة أن تسرق، ولكنه ﷺ يريد أن يرسخ العدل في المجتمع، بمعنى أن العدل ينطبق على الجميع.

وليس هناك استثناء في تطبيق العدالة، ومن الاستثناءات المرفوضة ما حكاه رسول الله ﷺ عن الأمم السابقة: «إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد». فهذا ليس من العدل.

ولذلك كان الإباضية يسعون إلى ترسيخ هذا المفهوم، وتحقيق هذا المبدأ في المجتمع ورفضوا كل أشكال الظلم والبغي، وأرادوا تطبيق العدالة في المجتمع الذي أقاموه، بل إنهم في حقيقة الأمر كانوا يطبقونه، ولم يكن مذهبهم مجرد شعارات، وإنما كان واقعًا ملموسًا.

وأول مثال تم تطبيقه هو ما فعله الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي في اليمن، فأول ما بدأ به في اليمن أنه لم يستأثر لنفسه بالأموال التي ورثها من الوالي الأموي، وإنما قسمها على فقراء المسلمين، ومَن كان لهم مظلمة رَدَّ إليه حقه. وهكذا صار الأئمة من بعده، فكلهم يطبقون مبدأ العدالة ولا يحيدون عنه.

ويمكن الاستشهاد على صحة هذا الكلام برسالة الإمام الصلت بن مالك الخروصي رحمه الله وهو من أئمة الإباضية في عمان في القرن الثالث الهجري، فيقول في وصيته إلى واليه غسان بن جليد عندما بعثه واليًا على رستاق -وهذه الرسالة موجوده في كتاب «تحفة الأعيان»-: (إني أوصيك بتقوى الله في سرك وجهرك، وأن تعمل بالعدل في الرعية، وأن تقسم بينهم بالسوية، وأن تُقِيمَ فيهم كتاب الله، وتحيي فيهم سُنَّةَ نبي الله ﷺ، وتسير بهم بسيرة أئمة الهدى في حد الغضب منك والرضا، ولا يخرجُكَ غضبك من الحق، ولا يدخلك رضاك في الباطل، ولا تعاطي من الناس عند قدرتك عليهم ما لم يأذن الله به لك فيهم، ولا تَخَفْ في الله لومت لائم، واجعل الناس عندك في الإنصاف سواء، واحذر أن يستميلك أحد منهم هوى، ولا تركن إلى أهل الجهل والباطل والطمع والغي؛ فإن الله قد حذر نبيه محمد ﷺ فقال: (وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ)

[المائدة:49]، وقال: (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُون) [هود:113]، وقال: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيئًا وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ واللهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِين) [الجاثية: 18:19]، وأَنْصِفِ الضعيف من القوي، والفقير من الغني، والعبد من المولى). هذه الوصايا ناتجة عن علم واسع وعن خبرة كبيرة وعن التزام بمنهج العدل؛ لأنه لا يمكن أن يصدر هذا الكلام من شخص لم يمارس العدل، ولكن صَدَرَ هذا الكلام من شخص هو على قمة المجتمع في ذلك الوقت، وعلى خبرة ودراية بجميع المؤثرات التي تحيط بالإمام أو بالوالي أو بالقاضي في كل وقت.

ولذلك فالإمام ينبِّهُ واليهُ أن هذه الجوانب هي التي قد تحرف الوالي أو الحاكم عن إتباع العدل، فينبهه لئلا ينحرف أو يزيغ على مبدأ العدل، فالعدل من الأساسيات التي ينبغي أن يلتزم بها الإمام أو الوالي أو القاضي أو أي شخص يتولى المسؤولية.

ثم يقول الإمام الصلت في رسالته: (ولا تكن فظًّا غليظ القلب من كثرة المعاني، ولا محتجبًا عن مطالب الحق والضعفاء واليتامى، ولا تحكم بين الناس وأنت غضبان، ولا تتبع في ولايتك شيئًا إلا ما لا بد منه مِن بيعه، ومن طعام الصدقات من غير أن تجبر أحدًا يشتري منك شيئًا)، لأن الوالي قد يحتاج إلى أن يبيع لأنه في النهاية بشر، ولكن لا يتخذ من هذا العمل تجارةً يستغل بها منصبه ومكانته، فهو يحذره من هذا المسلك.

ثم يقول الإمام: (ولا تجبر أحدًا يحمل طعامًا من بلد إلى بلد استكراهًا منك لهم، ولا تَقْبَل من أهل ولايتك الهدِيَّات، ولا تجبْهُم إلى الدعوات، وأْمُرْ بذلك ولاتك وأصحابك فإن ذلك من المعايب)، فمن أجل أن يظل الوالي نزيهًا فلا يتقبل الرشاوى أو الهدايا التي تميله عن الحق، فإذا أتاه شخصٌ بهدية عليه أن يردها حتى لا يكون له فضلٌ عليه، وإنما يكون في اتخاذه للأحكام نزيهًا.

هذه الوصية التي صدرت من الإمام الصلت بن مالك الخروصي -رحمه الله- تدل دلالة قاطعة على أن المنهج الذي كان يسعى الإباضية إليه هو إقامة العدل، ويمكن الرجوع إلى كتب الفقه عند الإباضية لنعلم أن كلها تصب في مجال إقامة العدل.

ولذلك نجد الشيخ سالمي ينص على هذا المبدأ في كتابه «جوهر النظام» يقول:

**وأنـــه لا يصـــلح للبريَّـــةِ ... شيءٌ سـوى العـدلِ مـع الرعيَّـةِ**

**والظلـــم لا يُبنَـــى عليـــه دارُ ... لأنـــه الخـــرابُ والبـــوارُ**

**والعدل لا شك أساس الملـكِ ... وهـو أسـاس الخـيرِ دونَ شَـكِّ**

فهذا يدل على أن العدل من الأمور المهمة التي ينبغي أن يلتزم بها الحاكم العادل والوالي العادل والقاضي العادل، بل ينبغي أن يلتزم به الجميع.

إذن يتضح لنا أن الدعوة عند الإباضية لها غايات ولها أهداف سامية، وأنها ليست دعوة عشوائية، وإنما هي دعوة إصلاحية هدفها: إقامة العدل والمساواة بين الناس، وأن تكون الحاكمية لله سبحانه وتعالى، وأن يكون هناك شورى بين المسلمين، وأن يُردَّ الوضع إلى ما كان عليه زمن الرسول ﷺ وزمن الخلفاء الراشدين، فإذا ما تحققت هذه الأهداف فإنه بلا شك سيكون المجتمع مجتمعًا مسلمًا وفق منهج الله تعالى، ويتحقق فيه ما أمر الله تعالى به وما شرعه عز وجل وتتحقق فيه الخيرية التي ذكرها الله عز وجل: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110].

**تنبيه:**

**تناول الأستاذ في نهاية فيديو المحاضرة التالية الهدفين السابع والثامن، وقد نقلنا هذين الهدفين إلى هذا الدرس حتى تدرس الموضوع متكاملًا في هذا الدرس.**

## الهدف السابع: نشر الإسلام في بقاع الأرض

إن نشر الإسلام في بقاع الأرض من الأهداف المهمة في الدعوة إلى الله تعالى؛ لأن الإسلام جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولينتشر هذا الدين في أرجاء الأرض، كما قال الله ﷻ: (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) [الصف:9].

فإظهار هذا الدين على جميع الأديان الأخرى مِن أهم الأهداف التي يسعى إليها المسلمون بشكل عام، وكذلك الإباضية باعتبارهم إحدى الفرق الإسلامية، فهذا الهدف منصوص عليه بكثير من مؤلفاتهم، وكذلك في سيرهم.

وتاريخ الإباضية معروف بكثير من أنشطة الدعوة في في سبيل الله، وإدخال كثير من الناس في الإسلام.

**أولاً: دور الإباضية في نشر الإسلام في شمال أفريقيا:**

استطاع الإباضية في شمال إفريقيا أن ينشروا الإسلام في تلك المناطق حتى وصل إلى بعض الدول منها: مالي وأفريقيا الوسطي وغيرهما، فكان لهم فضل السبق في نشر الإسلام في تلك البقاع.

**ثانيًا: دور الإباضية في نشر الإسلام في شرق آسيا:**

استطاع إباضية المشرق أن ينشروا الإسلام في الهند وفي شرق آسيا، حتى وصلوا إلى ماليزيا والصين، ونشروا الإسلام باسم الإسلام وليس باسم المذهبية؛ لأن مفهوم المذهبية لم يكن متعمقًا لدى الإباضية، ولذلك انتشر الإسلام في تلك الدول، وما زال كثير من الآثار العُمانية موجودة وشاهدة على على ذلك. وثابت في التاريخ أن التجار المسلمين الذين نشروا الإسلام في تلك الديار أغلبهم من عُمان.

نشاط (2):

بالرجوع إلى مادة التاريخ والحضارة الإسلامية، اكتب ثلاثة أدلة تبرهن على سبق العمانيين إلى نشر الإسلام في بلاد شرق آسيا، كالصين وماليزيا وإندونسيا.

إن الإباضية عندما ذهبوا إلى تلك البلاد فإنهم نشروا الإسلام بمفهومه العام وليس بمفهومه المذهبي الضيق، وتركوا للناس قضية المذهبية فيما بعد، ولأن كثيرًا ممن كانوا على مذهب الإباضية فيما بعد تحولوا إلى مذاهب أخرى، فمن المعلوم أن اليمن كان كثير منهم إباضيون، ومع مر التاريخ تحول الكثير منهم إلى مذاهب أخرى.

**ثالثًا: دور الإباضية في نشر الإسلام في شرق أفريقيا:**

نشر الإباضية الإسلام في شرق أفريقيا، وهم الذين يسمَّوْن إباضية المشرق ابتداءً منذ عصر اليعاربة، فإن العمانيين عندما كانوا يطاردون البرتغاليين أسسوا بعد ذلك هناك في تلك القارة ممالك إسلامية، وكانت كل حكامها من أهل عُمان من الإباضية، ونشروا الإسلام في أدغال أفريقيا، ودخل كثير منهم في الإسلام، وظلت الحكومات تتعاقب في زنجبار وأغلبهم من المذهب الإباضي، وإن كان مع الزمن تغيروا وانكمشوا ولكن ما زالت آثارهم باقية.

## الهدف الثامن: الدفاع عن الإسلام

من أهداف الدعوة عند الإباضية الدفاع عن الإسلام، وهذا الهدف تابع للهدف السابق؛ لأن الدفاع عن الإسلام ضد أي غزو أو عدوان على أرض الإسلام فهو مِن الأهداف المهمة في دعوة الإباضية.

**أولًا: دور الإباضية في مقاومة البرتغاليين:**

استطاع الإباضية أن يصدوا الهجوم النصراني مِن قِبَلِ البرتغاليين، واستطاعوا أن يطردوهم عن بلاد المسلمين بعدما استولوا على الشريط الساحلي لعُمان وأمارات ساحل

عُمان في ذلك الزمان، وبعض المناطق في جزيرة العرب، واستطاع الإباضية أن يصدوا هذا الهجوم، وأن يحرروا بلاد الإسلام من كيد هؤلاء الغزاة.

**ثانيًا: دور الإباضية في ثورة الجزائر:**

ظل الإباضية يدافعون عن بلاد المسلمين أينما كانوا، ويشاركون في الدفاع عن قضايا الإسلام، ففي ثورة الجزائر التي قامت ضد الاحتلال الفرنسي فإن الكثير من إباضية الجزائر اشتركوا في هذا الدفاع، واستشهدوا في المعارك ضد الفرنسيين، واستطاعوا أن يحققوا مع إخوانهم من المذاهب الأخرى الاستقلال.

**ثالثًا: دور الإباضية في مقاومة الاحتلال الإيطالي لليبيا**

استمر الإباضية في الدفاع عن بلاد المسلمين كما كان الشأن في ليبيا، حيث كان المعروف عن الشيخ سليمان الباروني أنه كان من المؤسسين للثورة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي، وقد قاوم الاحتلال قبل ثورة عمر المختار، فكان الشيخ سليمان الباروني من المؤسسين للثورة ضد الاحتلال الإيطالي في ليبيا، وهو من العلماء ومن ذرية ملوك الإباضية في ليبيا، وكان له دور كبير وشأن وتقدير من قبل الحكومة العثمانية التي كانت في ذلك الوقت معروفة بأنها دولة الخلافة الإسلامية في إسطنبول، وكان على تواصل مع الحكومة العثمانية، حتى أنه عُيِّنَ في مجلس النواب العثماني.

**رابعًا: دور الإباضية في دعم القضية الفلسطينية:**

مما يدل على اشتراك الإباضية في الدفاع عن الإسلام والمسلمين في العصر الحاضر موقف الإباضية من القضية الفلسطينية، فإن الإباضية يدعمون إخوانهم بالمال والفتاوى التي تشجع على الدفاع عن النفس، والمواقف السياسية الصادرة من الحكومات الإباضية والتي تدعم الحق الفلسطيني، وحق العودة للاجئين، وتحرير الأقصى.

كل هذه النماذج تدل دلالة قاطعة على أن الإباضية من أهدافهم الدفاع عن قضايا الإسلام وعن أرض الإسلام أينما كانت، وليس فقط ما يخص الإباضية، وإنما كل شبر إسلامي في بقاع المعمورة يتعرض لأي اعتداء فإن الإباضية بشكل عام يقفون مع إخوانهم من المسلمين في كل أنحاء المعمورة.

كل ذلك ناتج عن أن الإباضية جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية، وأن كل ما يصيب الأمة في أي بقعة من بقاعها فإن الإباضية يشاركون إخوانهم آلامهم وآمالهم وتطلعاتهم.

- خاتمة:

هذه هي المبادئ والأهداف التي كان الإباضية يطمحون إلى تحقيقها، وعندما وفقهم الله سبحانه وتعالى واستطاعوا أن يصلوا إلى إقامة الدول والممالك الإسلامية فإنهم ما تراجعوا عنها، بل طبقوها، وأصبحت واقعًا ملموسًا، وشهد بذلك الكثير من الدارسين والباحثين في العصر الحاضر، بل ومن المخالفين في السابق، وشهدوا لهم بأن المنهج عند الإباضية منهجٌ نزيه وعادل، وأن مبادئهم وتوجهاتهم إنما هي لصالح الأمة الإسلامية وليست ضدها.

* * *

# خصائص الدعوة عند الإباضية

مقدمة الدرس

- وصف الدرس:

نتناول في هذا الدرس: خصيصتين من خصائص الدعوة الإباضية، وهما: التسامح، واتباع الحق، مفصلين القول في مظاهر كل خاصية.

- تمهيد الدرس:

تناولنا في الدرسين الماضيين الأهداف التي يسعى الدعاة من الإباضية إلى تحقيقها من خلال دعوتهم المباركة، وتطرقنا إلى عدد من الأهداف في الدرسين السابقين بالشرح والبيان، ونواصل في هذا الدرس الحديث عن الدعوة عند الإباضية، ونتناول في هذا الدرس بعضًا من خصائص الدعوة عند الإباضية.

تنبيه:

**تناول الأستاذ في بداية فيديو هذه المحاضرة الهدفين السابع والثامن من أهداف الدعوة عند الإباضية، وقد نقلنا هذين الهدفين إلى الدرس السابق حتى تدرس الموضوع متكاملًا هناك.**

إن المتتبع والدارس والمتأمل في سيرة الدعوة عند الإباضية وكذلك في كتبهم ورسائلهم وكتاباتهم وفي أسلوب التعايش معهم يكتشف أن الدعوة عند الإباضية تتميز بعدة خصائص، منها:

الخصيصة الأولى: التسامح

من أهم خصائص الدعوة عند الإباضية مبدأ التسامح، والتسامح عند الإباضية يكون مع كل المسلمين من كل الفِرَق في بقاع الأرض، وخصيصة التسامح لها كثير من المظاهر في تاريخ الإباضية وواقعهم، **ومن تلك المظاهر التي تدل على تلك الخصيصة:**

1 – عدم معاداة المسلمين أو تكفيرهم:

يرى الإباضية عدم معاداة المسلمين، وعدم استباحة دمائهم، وعدم الاعتداء عليهم، وعدم جواز سبي ذراريهم أو سلب أموالهم أو استحلال شيء من حقوقهم، فهذا كله غير موجود عند الإباضية، بل يعتبرون جميع المسلمين إخوة، والله سبحانه وتعالى قال: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) [الحجرات:10]. فهذا المبدأ أساس، ولذلك يتعاملون مع بقية المذاهب بنفس هذا التصور.

وقد أعلن الإمام أبو حمزة الشاري هذا الكلام، حينما وقف على منبر رسول الله ﷺ فكان من ضمن ما قاله: (الناس منا ونحن منهم، إلا ثلاثة: مشركًا بالله عابدَ وَثَنٍ، أو كافرًا من أهل الكتاب، أو إمامًا جائرًا)، فهؤلاء هم الذين بيننا وبينهم فواصل الكبيرة، ولا نعتبرهم منا، وهذا لا يعني عدم الحوار معهم، أو عدم تبادل المنافع معهم. فالمشرك والكافر والإمام الجائر الغاشم المتسلط المستبد الذي يستبيح الدماء أو الأموال أو الأعراض أو ينتهك الحرمات كل هؤلاء ليسوا من المسلمين، فالمجاوز لحدود الله ﷻ لا يعتبر من ضمن المسلمين الذين يُتَوَلَّوْن ما لم يعلن التوبة والرجوع إلى الله.

يقول الشيخ السالمي -رحمه الله- في ذلك:

فمَـــن أَتَـــى بـــالجملتين قُلنـــا: إخواننـــا، وبـــالحقوق قُمْنَـــا

أي: مَن أتي بالشهادتين (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله)، وشهد أن ما جاء به محمدٌ حق من عند الله، والتزم بما شهد به فإنه يكون من إخواننا المسلمين.

ولذلك فالإباضية يعتبرون بقية المذاهب الإسلامية مِن ضمن الأمة الإسلامية، ولا يجوز تكفيرهم، أو تفسيقهم بدون وَجْهِ حَقٍّ.

فمن نطق بالشهادتين فيكون قد حفظ نفسه وماله، وكذلك سبي الذرية أو الأهل. فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هي الواقية، فَمَن دخل فيها لا يجوز قتله أو

معاداته، «كُلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». فالإنسان إن نطق الشهادتين أصبح أخًا لنا في الإسلام وله حقوقه، ومن هذه الحقوق: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصح والإرشاد.

ولو تتبعنا كتب الإباضية وسِيَرهم لا نجد عندهم ما يُجِيز قتل المخالفين في المذهب، فلا يجوز قتل النفس بغير وجه حق، إلا ما وردت النصوص بقتله: كمَن قتل مسلمًا، أو ارتكب ما يوجب حد القتل، وهذا يطبق على الإباضية وغيرهم، فمن فعل أي شيء يستوجب القتل وجب قتله بغض النظر عن مذهبه.

2 – عدم التعصب للآراء المذهبية:

مما يدل على التسامح عند الإباضية أنهم في كتبهم وفي أقوالهم يستشهدون بآراء وأقوال مخالفيهم، ولا يحصرون أنفسهم في أقوالهم فقط أو في كتبهم أو في مروياتهم، فالإباضية عندهم سعة وقدرة على استيعاب الآخرين والأخذ منهم؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن فإن وجدها فهو أحق بها، فإذا وجد في أقوال مخالفيه ما يوافق الحق فلا مانع من الأخذ والعمل به.

ومن تطبيق ذلك: أنك عندما تطلع على كتب الإباضية فتجد فيها أقوالا للشافعية، وتجد فيها أقوالا للحنابلة، وتجد فيها أقوالا للحنفية، ولكن هذه الأقوال تُمحص ويرجح مثلها مثل أقوال علماء المذهب الإباضي أنفسهم.

وهذا لا يعني أنه لا يوجد بعض العلماء الإباضية المتشددين الذين قد تصدر منهم بعض الأقوال المتشددة تجاه مخالفيهم، ولكن هذا نادر، ولا يقاس عليهم، والمنهج المتبع عند الإباضية أنهم لا يلتزمون بأقوال هؤلاء العلماء، وغالب ما تجد في سلوك الإباضية أنهم لم يعتدوا على مخالفيهم بسبب الاختلاف المذهبي، وربما استخدم الإباضية القوة أحيانًا في الدفاع عن أنفسهم؛ لأنهم تعرضوا في بعض الفترات للعدوان والانتهاكات

لحقوقهم، والاضطهاد، كما حدث في شمال أفريقيا، وحوصروا في الجبال وفي أماكن محدودة، وتعرضوا لكثير من المآسي، بالإضافة إلى أن هناك بعض الفتاوى من المخالفين المتشددين التي تبيح قتلهم، ويعتبرهم البعض من الخوارج أو أنهم مبتدعة أو غير ذلك.

فكان الإباضية يردون من باب الدفاع عن النفس، والدفاع عن النفس مشروع، ولكن الأصل أنهم يستوعبون المخالف، ويرغبون في التعايش معهم والتسامح معهم، وأنهم يفتحون قلوبهم وعقولهم لمخالفيهم، ولا يضعون فواصل بينهم وبين مخالفيهم.

3- **التعايش مع المخالفين في العصر الحاضر:**

أدى التسامح إلى وجود نوع من التعاون بين أفراد المجتمع الذي يتواجد فيه الإباضية، فنحن نلاحظ في عُمان -وغالبية أهل عمان من المذهب الإباضي- أنهم يتعايشون مع إخوانهم من أهل السُنة والشيعة، ويصلون جميعًا في مسجد واحد، وهذا ناتج عن سببين:

**السبب الأول:** الفتاوى الدينية من علمائنا التي تجيز الصلاة مع بعضنا البعض. وهذا أدى إلى الاتحاد والألفة.

**السبب الثاني:** التوجهات الحكومية التي رسخت هذا المفهوم، وبالتالي فالسلطة السياسية والسلطة الدينية متعاونتان على ترسيخ هذا المفهوم.

وقد يحدث بعض السلوكيات الفردية الشاذة، ولكن بشكل عام هناك وحدة وطنية كبيرة تؤلف بين أفراد المجتمع بمختلف مذاهبه، فكلنا على دين واحد، وكلنا نعبد الله سبحانه وتعالى، وكلنا نؤمن بكتاب الله ونؤمن برسول الله، ونتوجه إلى القبلة ونصلي إليها، ونؤدي الفرائض الخمس، ونؤمن بوجوب الصيام وبوجوب الزكاة وبوجوب الحج... إلخ، فهذه أُسس وأصول نتفق عليها كلنا.

ولذلك يقول الشيخ الخليلي: (ينبغي أن نفرق بين اختلاف المذاهب في القضايا الفرعية التي لا تشتت الأمة ولا توزعها، فإن هذه لا نعد الاختلاف فيها بلاءً ونقمة وإنما نعد الاختلاف فيها رحمة ونعمة، أما الاختلاف الذي يؤدي إلى التفرق والتنابذ بالألقاب وقذف كل طائفة طائفة أخرى بالباطل ومحاولة وصفها بما يشينها في أعين الآخرين فهو الذي يعاب، وهو الذي لا يُقَرُّ أبدًا). فالاختلافات المذهبية موجودة، لكن هذه الاختلافات تعتبر اختلافات فرعية؛ لأن الأصول متفق عليها، وليس هناك ما يدعو إلى أن نكبِّرَ الاختلافات الفرعية إلى أن تصير اختلافات في الأصول؛ لأن الاختلافات في الأصول هي التي تؤدي إلى التكفير والتفسيق وإصدار فتاوى ضد الآخرين بالقتل وسفك الدماء وغيرها.

ولو قارَنَّا بين الجوانب التي يتفق عليها المسلمون والجوانب التي يختلفون فيها لاكتشفنا أن النسبة الكبرى مما يتفقون فيه، وعندما تقرأ بعض الكتب بين الإباضية وبين المخالفين تجد أن هناك تقاربًا كبيرًا، فمثلًا: عندما تقرأ فصلًا في أحكام الزكاة عند الإباضية، وتقرأ هذا الفصل في كتب المذاهب الأخرى تجد تقاربًا كبيرًا جدًا. وكذلك في كل العبادات كالصوم والحج.

فالاختلافات قليلة جدًّا، والاختلافات أحيانًا تكون موجودة في داخل المذهب الواحد، ويمكن أن تجد عالمًا من مذهب معين يتفق مع عالم من المذهب الإباضي، والعكس صحيح، نجد اختلافات هنا واتفاقات هنا، فمثلًا: قد تجد أحد فقهاء الشافعية يختلف مع مذهبه، ويذهب إلى رأي يوافق مذهب الإباضية.

وظهرت دراسات فقهية مقارنة (الموسوعة الفقهية الكويتية) أثبتت أن كثيرًا من الأحكام الفقهية متفق عليها بين الإباضية وكثير من المذاهب الإسلامية.

وقد اطلعت على بعض الكتب والدراسات عند الإباضية التي أجريت فيها المقارنات في بعض المسائل فاكتشف أن كثير من الأمور متفق عليها، بل إنها تصل إلى ما يزيد عن 95٪ من المسائل نحن وبقية المذاهب الأخرى متفقون فيها، وبقي ما يقارب 5٪ فيها الخلافات.

ولكن يبقى أن الخلاف المذهبي موجود، والله سبحانه وتعالى يقول: (وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) [هود:118]؛ لأن الاختلاف هو سُنة الله في خلقه، وقد يكون الاختلاف أحيانًا رحمة وتوسعة على الناس؛ لأن ما يناسب هذه البيئة قد لا يناسب بيئة أخرى، وما يناسب الإنسان في وطن ما قد لا يناسبه في وطن آخر.

وعندما نتأمل في مذهب الإمام الشافعي، نجد أن الإمام الشافعي له مذهبان: مذهب قديم، ومذهب جديد، فعندما كان في العراق كان له مذهب سُمِّيَ المذهب القديم، وعندما ذهب إلى مصر وضع مذهبًا آخر. فهو نفس الشخص، ولكنه غَيَّرَ كل مذهبه ما عدا بعض المسائل الفقهية النادرة، وهذا التغير يحدث بسبب الظروف والأحوال، فلا ينبغي أن يكون الفقيه جامدًا.

والاختلاف في فهم النصوص الشرعية موجود منذ العهد النبوي، ومن أمثلة ذلك: أن الرسول ﷺ قال للصحابة رضوان الله عليهم: «لَا يُصَلِّيَن أحدُكُم الْعَصْرَ إلّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، فحينما كانوا في الطريق أوشك وقت العصر أن يخرج، فاختلف الصحابة إلى فريقين:

**الفريق الأول**: صلى العصر في الطريق قبل الوصول إلى بني قريظة؛ لأنهم فهموا أن الرسول ﷺ كان يريد الإسراع منهم فقط، وليس تأخير العصر.

**الفريق الثاني**: لم يصلِّ العصر إلا في المكان الذي حدَّدَهُ لهم الرسول ﷺ، في بني قريظة.

فبعض الصحابة التزم بنص كلام النبيِّ ﷺ، وبعضهم أخذ بفحوى الحديث، وقد أَقَرَّ الرسول ﷺ الفريقين ولم ينكر عليهما.

إن فهم النصوص وفهم الظروف وتقدير الظروف وارد، فإذًا ينبغي أن نأخذ الخلافات المذهبية من هذا الباب، وإنه لا ينبغي أن نتخذها ذريعة للتكفير والتفسيق، وإنما نتخذها ذريعة للتوسعة والرحمة بين المجتمع، ولا ينبغي أن نتنازع امتثالًا لقوله الله سبحانه وتعالى: (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) [الأنفال:46].

وفي حال الاختلاف في المسائل الشرعية فالمرجع هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، كما قال الله ﷻ (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى الله) [الشورى:10]. وعلينا أن نمتثل جميعًا قوله سبحانه وتعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا) [آل عمران:103].

يقول الشيخ الخليلي: (الإسلام داع إلى الوحدة، كما أن دواعي الاتحاد بين الأمة كثيرة، فالرب المعبود واحد، (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) [البقرة:163]، فما دام المعبود هو الله سبحانه وتعالى فهذا من دواعي الائتلاف، وبجانب هذا كيفية العبادة أيضًا واحدة؛ لأن الصلوات التي تؤديها الأمة قد اتفقت عليها جميع طوائفها، فما من قائل بأن المفروض أربع صلوات أو صلاتان أو ثلاث أو ست أو عشر، إنما الكل يقطع بأن الفروض التي تتكرر في اليوم والليلة هي خمس ليست أكثر من ذلك ولا أقل.

وكل هذه الأئمة متفقة على وجوب صيام شهر رمضان وعلى وجوب تزكية المال وعلى وجوب حج بيت الله الحرام، كما أن هذه الأمة قِبلتها واحدة، وكتابها الذي ترجع إليه وتعتمد عليه كتاب واحد، ونبيها الذي تأتم به وتهتدي بهديه هو نبي واحد، كل ذلك مما يدعو إلى الألفة والاجتماع). فأسباب اجتماع الأمة كثيرة ومتنوعة والحمد لله.

فمنهج الإباضي ودعوتهم قائمة على تأليف والتوحيد والتسامح وترسيخ هذا المبدأ بين المسلمين حتى يلتقي المسلمون كلهم على الأصول، ويعذرون بعضهم بعض فيما اختلفوا فيه من الفروع.

ولا يمكن الحجر على الأفهام؛ لأن العالم إذا تبحر في علمه واعتمد على الأدلة والشواهد من القرآن والسُّنَّة وبالنظر الثاقب واعتمدنا على القواعد الشرعية والأصول الفقهية، واتكأ على قواعد اللغة العربية، واستطاع أن يستنبط حكمًا ما... فلا ينبغي أن يُحْجَرَ عليه فهمه، وإنما هناك سعة، خاصة إذا استنبط ما يدعو إلى الألفة والوحدة والتقارب.

---

وينبغي على جميع المسلمين أن يسعوا إلى الاتفاق قدر الإمكان، فإذا وجد مجال لأن يَصِلُوا إلى قول واحد في مسألة ما فهذا هو الأفضل، لأنه يوحد المسلمين، لكن في حالة أن كل مذهب أو كل طائفة ترى ترجيح قول ما فإن هذا مباح، بشرط ألا يخرج عن القواعد الشرعية في الخلاف.

4- **القول بجواز التصاهر مع المخالفين:**

من مظاهر التسامح عند الإباضية: أنهم يجيزون التصاهر مع إخوانهم المسلمين، فالإباضي يجوز له أن يتزوج من غير الإباضية من مذاهب أهل السُنة أو من مذاهب الشيعة، والعكس أيضًا، فيبيحون للمخالف لهم في مذهبهم أن يتزوج من مذهبهم؛ لأنه نحن كلنا مسلمون، والتزاوج بين المسلمين جائز.

5- **القول بجواز التوارث بين المخالفين:**

من مظاهر التسامح عند الإباضية: أنهم يقولون بالتوارث بين الإباضي وغير الإباضي، فمثلًا لو كان الزوج إباضيًّا والزوجة شافعية، فإنها لا تحرم من ميراث زوجها

بسبب اختلاف المذهب، فطالما أنها زوجة فإن لها الميراث –على التفصيل المعروف في مادة المواريث–. وكذلك لو كان الأب والابن مختلفين في المذهب فإنهما يتوارثان.

إننا ندعو جميع المسلمين إلى كلمة سواء تجمع بيننا، وإلى الأصول والثوابت، وإننا نتفق جميعًا على ما نَصَّ عليه كتاب الله ﷻ وسُنة رسوله ﷺ، وإذا وجد مجال للخلاف مما يسوغ فيه الخلاف فلا بأس في ذلك، وهذا سيسهل التعايش بين المسلمين.

الخصيصة الثانية: اتباع الحق

من خصائص الدعوة عند الإباضية: اتباع الحق بغض النظر عن المصدر، كما جاء في القرآن: {أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ} [يونس:35]، فالذي يهدي إلى الحق والحكم الصائب، يجب اتباعه بغض النظر عن مذهبه، فالحق هو الذي ينبغي أن يتبع.

**أولًا: قبول الرأي الآخر إن كان صوابًا:**

نجد أن علماء الإباضية لا يتمسكون بقول عالم واحد، فلا يتمسكون مثلاً بقول الإمام جابر بن زيد فقط، بل نقول: إن أقواله ليست ملزمة، فإذا وُجِدَ عالم مجتهد من بعده فإنه يجوز أن نأخذ بما توصَّل إليه هذا العالم إن كان صحيحًا موافقًا للكتاب والسُّنَّة.

وأيضًا يأخذ الإباضية بالقول الموافق للحق وإن كان هذا القول من عالم مخالف (من غير المذهب الإباضي)، فإنه إذا بسط المسألة وذكر فيها الأدلة الواضحة فإن الإباضية ليس عندهم حرج في أن يتبعوا قولاً جاء به أحد علماء الأمة وإن كان مخالفًا لهم في المذهب. (وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا) [المائدة:8]. وهذا متبع عند الإباضية.

فلذلك يقول الشيخ السالمي –رحمه الله–:

فنأخـــذ الحـــقَّ متـــى نـــراه ... وإن يكـــنْ مـــبغِضٌ لنـــا أتـــاه

ويقول أيضًا:

ولا تنـــاظرْ بكتـــاب الله ولا كـــلام المصـــطفى الأوَّاهِ

معنـــاه: لا تجعَـــلْ لـــه نظـــيرًا ولـــو يكـــون عالمًـــا خبـــيرًا

فهذا القول يدعو إلى عدم تقديس العلماء، وعدم إضفاء نوعًا من العصمة عليهم؛ لأن العالم يجتهد في فهم النص وليس هو صاحب النص الأصلي. ففهم النص اجتهاد، والاجتهاد يتغير من عالم إلى آخر، ويحتمل الصواب والخطأ.

**انتبه:**

- يجب على المسلم أن يقبل الحقَّ وإن كان هذا الحق مع الأعداء، فقد روى البخاري في صحيحه: أن الشيطان جاء إلى أبي هريرة رضي الله عنه وهو يحرس أموال الصدقة وقال له -قال الشيطان لأبي هريرة-: (إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي مِن أولها حتى تختم الآية: (اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) [البقرة: 255]... الآية، وقال له أيضًا: لن يزال عليك مِنَ الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فجاء أبو هريرة رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال له ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم مَن تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟» قال أبو هريرة: لا. قال ﷺ: «ذاك شيطان». فأمر النبي ﷺ أبا هريرة رضي الله عنه أن يقبل كلام الشيطان؛ لأنه حق.

**ثانيًا: التراجع عن الاجتهاد إن كان خطأ:**

نجد من علمائنا مَن تراجع عن كثير من أقوال المذهب في السابق، وهناك العديد من الأمثلة التي تدل على ذلك، منها:

**المثال الأول: القول بوجوب صلاة الجمعة دون إذن الإمام:**

كان علماؤنا الإباضية في السابق لا يرون إقامة صلاة الجمعة في جميع الولايات أو في جميع الأماكن، وإنما يقولون: تقام الصلاة في الأمصار الممصرة من قِبَلِ الخليفة أو الإمام. وعندما جاء شيخنا الخليلي حفظه الله قال: إن صلاة الجمعة واجبة على جميع المسلمين، وأنه إذا أمر بها الحاكم المسلم في أي زمان فإنها تكون ملزمة، ويجوز للحاكم المسلم أن

يأمر بإقامة صلاة الجمعة في أي ولاية، وصلاة الجمعة واجبة ليس شرطًا أن يأمر بها الإمام.

فالشيخ الخليلي اجتهد في هذه المسألة، وخالف كثيرًا من أقوال علماء المذهب، وما منعه أن يتمسك بأقوال المذهب عندما رأى الحق.

**المثال الثاني: القول بخطبتين لصلاة الجمعة:**

كان كثير من علماء الإباضية يرون أن خطبة الجمعة خطبة واحدة، ولكن بعد البحث من قبل الشيخ أحمد الخليلي والشيخ سعيد القنوبي في بحثه (قرة العينين) أثبتَا أن الرسول ﷺ كان يخطب الخطبتين في يوم الجمعة، ويجلس بينهما جلسة خفيفة، وأصبح جميع الإباضية ملتزمين في هذا العصر بهذا الرأي. مع أن غالب علمائنا يرون أنها خطبة واحدة.

فالإباضية أنفسهم عندما يجدون الأدلة ويبحثون في المسائل ويتبين لهم الحق فإنهم يردون إلى الحق، ولا يتمسكون برأي أسلافهم بحجة إن هذا أقوال السلف، وأنه لا يجوز الخروج عليها، لكن الحق أحق أن يتبع، كما يقول الشيخ السالمي:

فَهُمُ رجالٌ وسواهُمْ رجلُ  والحقُّ مِمَّنْ جاء حتمًا يُقبَلُ

**المثال الثالث: القول بوجوب صلاة الجماعة على الأعيان:**

من الآراء التي خالف فيها الشيخ الخليلي رأي الشيخ السالمي، أن الشيخ السالمي كان يرى أن صلاة الجماعة فرض كفاية، والشيخ الخليلي يرى أن صلاة الجماعة فرض عين، وأنه لا يجوز امتناع المسلم عنها أو عدم إقامتها مع الجماعة إلا لعذر مقبول شرعًا، لكن بعض علمائنا السابقون قالوا: أنها فرض كفاية إذا قام بها البعض سقط عن الباقي.

والشيخ السالمي نفسه -كما ثبت في كثير من مسائل- كان يخالف أساتذته ومشايخه السابقين، وَنَصَّ على ذلك فيقول:

ورُبَّما أخالِفُ المشهورَا  وأذكرَنْ مَا لَمْ يكن مذكورَا

لأنني أقْفُو الدليلَ فاعلما ... لم أعتمد على ما قال العُلَمَا

فالعلماء استخرجوا ما استخرجوا ... مِنَ الدليلِ وعليه عَرَّجُوا

فهُمْ رجالٌ وسواهُمْ رجُلُ ... والحق ممن جاء حتمًا يُقْبَلُ

فمورِدُ الكلِّ هو الدليلُ ... يقصدُهُ مَن له التحصيلُ

فالكل ينبغي أن يقصد الدليل، ولا بد أن نلجأ إلى الحق، ولذلك يقول الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي –رحمه الله– في رده على أحد سائليه يقول: (ومن العجب أن أنص لك عن رسول الله ﷺ، وأنت تعارضني بعلماء الإسلام بغير دليل، أليس هذا في العيان نوعًا من الهذيان).

**انتبه:**

**قد يتراجع الفقيه عن قوله السابق إذا تبين له خطأ مذهبه، لذلك لا يصح من المسلم أن يتعصب إلا لقول الله تعالى، وقول رسوله ﷺ.**

**ثالثًا: تقديم قول النبي ﷺ على أقوال العلماء:**

إن قول الرسول ﷺ يجب أن يُقدَّم على أقوال العلماء إن خالفت هذه الأقوالُ قولَ النبي ﷺ، وإن كان العلماء لهم مقامهم ومكانتهم ومنزلتهم، لكن لا ينبغي أن نرفعهم فوق منزلة الرسول ﷺ، ولا ينبغي أن نقدس أقوالهم بحيث لا نخالفها؛ لأنهم مجتهدون، وهم أنفسهم قد يغيرون آراءهم، فبعض علمائنا المعاصرين يغيرون من آرائهم، فكانوا على قول، ثم لما تبين لهم الدليل غيروا آراءهم.

والتمسك بأقوال العلماء السابقين فيه تضييق على المسلمين، وفي نفس الوقت قد يكون فيه مخالفة للحق، ولا نتهم علماءنا السابقين والسلف الصالحين بأنهم حادوا على الحق، ولكنهم اجتهدوا، والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ، فمَن أصاب فله أجران ومَن أخطأ فله أجر الاجتهاد.

وقد كان الإمام محمد بن عبد الله الخليلي –رحمه الله تعالى– يقول: (وقول بخلاف الحديث يُضرَب به عرض الحائط)، حتى لو كان هذا القول لأحد العلماء المشهورين ولكنه مخالف للحديث الثابت الصحيح الواضح الدلالة فإنه لا ينبغي أن يعبأ به، ولا يجوز أن يُقدَّم على قول الرسول ﷺ.

**انتبه:**

**إذا تعارض قول أحد العلماء مع حديث النبي ﷺ، فإنه يجب على المسلم أن يقدِّم حديثَ رسول الله ﷺ على كل قول سواه.**

إن البحث عن الحق أحد الخصائص التي يتميز بها مذهب الإباضية، والتي يسعون من خلالها إلى الوصول إلى الحق، وإلى القول الفصل. ولذلك نجد المذهب الإباضي من خلال فتحه باب الاجتهاد مذهبًا متطورًا وليس جامدًا، وقابلاً لكل ما هو موافق للحق ولكل جديد فيه مصلحة الإسلام والمسلمين بما يتفق مع كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ.

- خاتمة:

بهذا القدر نختم الدرس الثالث عشر، بعد أن شرحنا خصيصتين من خصائص الدعوة عند الإباضية، على أن نستأنف الحديث عن باقي الخصائص في الدروس اللاحقة، ونتناول في الدرس الرابع عشر عن الخاصية الثالثة وهي خاصية: انعكاس العقيدة على العمل.

* * *

مقدمة الدرس

- وصف الدرس:

نتناول في هذا الدرس: الخصيصة الثالثة والرابعة من خصائص الدعوة عند الإباضية وهما: انعكاس العقيدة على العمل، والتعامل مع الواقع بما يناسبه.

- تمهيد الدرس:

بدأنا في الدرس الماضي الحديث عن الخصائص التي تتميز بها الدعوة عند الإباضية، وقد تناولنا في الدرس الماضي خصيصتين، هما:

**الخصيصة الأولى: التسامح**، وقلنا: إن التسامح سمةٌ مهمة لدى الإباضية، ويطبقون هذه السمة في تعايشهم وتقبلهم للآخرين، ودللنا على ذلك بأدلة كثيرة من أقوال علماء الإباضية ومن أفعالهم.

**الخصيصة الثانية: تقبُّل الحق ممن جاء به**، وهي ميزة مهمة، ودللنا عليها أيضًا من أقوال الإباضية ومواقفهم.

ونتطرق في هذا الدرس إلى استكمال خصائص الدعوة عند الإباضية، ومن تلك الخصائص:

## الخصيصة الثالثة: انعكاس العقيدة على العمل

من خصائص الدعوة عند الإباضية: انعكاس العقيدة على العمل، ولا شك أن الإباضية مختلفون في بعض مسائل العقيدة عن بعض المذاهب الأخرى، وهذه المسائل الاعتقادية لها تأثير في الواقع العملي لحياتهم، ومن أهم هذه المسائل التي ينعكس فيها تأثير العقيدة على العمل لدى الإباضية:

المسألة الأولى: أن الإيمان قول وعمل:

الإباضية ومعهم بعض الفِرَق الإسلامية الأخرى يعتقدون أن الإيمان قولٌ وعمل، وليس فقط مجرد التصديق، فالشيخ السالمي يقول:

إيماننا القول والتصديق مع عمل ... فالقولُ مر فصدِّقْهُ، وَكُنْ عَمِلَا

بما عليك مِنَ الإيمان مفترض ... والنفل إن تستطع فافعله مبتهلَا

❖ التطابق بين القول والعمل:

فلا بد أن يكون هناك تطابق بين ما يؤمن به الإنسان في قرارة نفسه، وبين ما يطبقه في أرض الواقع، فالإنسان إذا كان يؤمن بأن الصلاة فريضة، فلا بد أن يصلي، وإذا آمن بأن الزكاة واجبة فعليه أن يزكي إن بلغ المال النصاب وحال عليه الحول، وكذلك إذا علم أن الربا حرام فعليه أن يمتنع عن الربا، وإذا علم أن شرب الخمر حرام فعليه أن يجتنبها. ولا يكفي الإنسان أن يقول: أنا مؤمن بأن الربا حرام، ثم يأتي ويأكل أموال الربا، فهذا تناقض.

فمفهوم الإيمان يشمل: التصديق بالقلب، والقول باللسان التصريح بذلك، وكذلك العمل بالأركان، وليس الإيمان مقتصرًا على مجرد الاعتقاد أو النطق.

❖ الأدلة على أن الإيمان قول وعمل:

هناك أدلة كثيرة من القرآن والسنة على أن الإيمان قول وعمل:

الدليل الأول: قول الله تعالى: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) [العصر: 1-3]. فإن هذا العمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر هي رديفة للإيمان، وبدونها لا يتحقق الفلاح، بل يتحقق الخسران والعياذ بالله، فإذًا لا بد أن يجتمع القول مع العمل.

**الدليل الثاني**: القرآن الكريم يسمى بعض العبادات بالإيمان، كما جاء في قوله تعالى في قضية تغيير القِبلة من التوجه إلى المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) [البقرة: 143]. قال كثيرٌ من المفسرين المقصود بقوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ). أي: ليضيع صلاتكم التي اتجهتم بها نحو المسجد الأقصى.

**الدليل الثالث**: قول الرسول ﷺ فيما رواه عنه مسلم: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ». فإماطة الأذى شيء عملي، وليس أمرًا اعتقاديًّا أو نطقًا باللسان، والرسول عليه الصلاة والسلام ضمنه ضمن مفهوم الإيمان، فهذا مما يدل على أن الإيمان ليس مجرد قول، وإنما يصاحبه عمل.

❖ **أَثَرَ هذه العقيدة في الدعوة عند الإباضية:**

الاعتقاد بأن الإيمان يشمل التصديق والنطق والعمل، ولا بد أن تكون مترابطة، وقد أَثَرَ هذا في العمل لدى أتباع المذهب الإباضي ولدى أئمة المذهب الإباضي ولدى علماء ودعاة المذهب الإباضي، فكانوا ملتزمين بهذا تمام الالتزام بحيث أنه لا يوجد في تناقض بين ما يعتقدونه وبين ما يطبقونه في أرض الواقع.

المسألة الثانية: اعتقاد الإباضية أن مرتكب الكبيرة خالد في النار:

❖ **اعتقاد الإباضية أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار:**

يعتقد الإباضية أن مَن مات على كبيرة ولم يَتُبْ منها فإنه ممن يخلد في النار، وهذه مسألة خلافية بين المذاهب، فبعض المذاهب ترى أن أهل الكبائر ليسوا مخلدين في النار، وإنما يُعَذَّبُون في النار في الآخرة بقَدْرِ معاصيهم، ثم يخرجون من النار ويدخلون الجنة.

أما الإباضية فيعتقدون أن أهل الكبائر إذا ماتوا بدون التوبة فإنهم مُخَلَّدُون في النار، وبالطبع يختلف مقامهم في النار عن أهل الشرك في درجة العذاب، ولكن من ناحية الخلود فهو واحد.

❖ **أدلة الإباضية على خلود صاحب الكبيرة في النار:**

استدل الإباضية بأدلة من القرآن الكريم، ومِن السُّنة النبوية على صحة مذهبهم (خلود صاحب الكبيرة في النار إن لم يتب منها) بأدلة، منها:

**الدليل الأول:** قوله سبحانه وتعالى: (وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) [الجن:23]. والعصيان هنا عام، فيشمل جميع الكبائر؛ لأن ما دون الكبائر مغفور باجتناب الكبائر، بدليل قوله تعالى: (إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا) [النساء:31]، ويقول تعالى: (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) [النجم:32]. فالكبائر لا تغفر إلا بالتوبة، والتوبة بابها مفتوح ما لم يغرر المرء (ما لم تأت لحظة الموت).

**الدليل الثاني:** قوله تعالى: (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فأولئك يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) [النساء:17-18]. فمفهوم هذه الآية: أن هناك فئتين لا تُقبل توبتهما: فئة المُصِرِّينَ على الكبائر والذين يموتون بلا توبة، وفئة الكافرين الذين يموتون على كفرهم، فهؤلاء إن ماتوا غير تائبين أو تابوا لحظة الموت فلا تُقْبَل توبتهم، ولا تنفعهم التوبة حينئذٍ.

**الدليل الثالث:** قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». وهذا الحديث رواه الإمام مسلم.

**الدليل الرابع**: ما رواه الإمام أحمد أنه عليه الصلاة والسلام قال: « لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ وَلا مَنَّانٌ».

**الدليل الخامس**: ما رواه الإمام البخاري: « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا».

فهذه الأحاديث تدل على أن أهل الكبائر إن ماتوا على هذه الكبائر ولم يتوبوا فإنهم يموتون على معصية، وبالتالي فهم يخلدون في النار.

❖ **أثر هذه العقيدة في الدعوة عند الإباضية:**

الاعتقاد بأن صاحب الكبيرة مخلد في النار جعلت الإباضية يحافظون على دينهم، ويتورعون عن الوقوع في الكبائر، ويبتعدون عن الولوج في الفواحش الكبيرة، وهذا معروف في تاريخهم، فكانت نسبة الكبائر قليلة في المجتمع الإباضي.

أما الآن وبعد الانفتاح العالمي، وتأثير العولمة، وتأثير وسائل الإعلام الحديثة والتداخل الحضاري والثقافي بين دول العالم فقد أصبحت هذه العقيدة قليلة مقارنة بالزمن الماضي، لأن الانفتاح والعولمة لهما تأثير كبير على الأفراد، ولكن ما زال هناك الملتزمون بمبادئ المذهب الإباضي، ويعتقدون أن مرتكب الكبيرة إذا مات فإنه يُخلَّد في النار، فلذلك يجتنب الوقوع فيها ويبتعد عنها. فكان لهذه العقيدة تأثير وانعكاس في السلوك، بحيث إنهم يجتنبون الكبائر ويسارعون إلى فعل الواجبات.

**المسألة الثالثة: عقيدة الولاية والبراءة:**

يتفق الإباضية مع غيرهم من أهل المذاهب الإسلامية الأخرى على أن الولاء والبراء (الولاية والبراءة) من المسائل العقدية المهمة التي ينبغي أن يتمسك بها المسلم.

❖ **معنى الولاية والبراءة:**

الولاية والبراءة تعني: الحب في الله، والكره في الله. فالحب في الله هو أن تحب من أطاع الله سبحانه وتعالى. والكره في الله هو أن تكره مَن عصى الله سبحانه وتعالى.

فالحب والكره مبنيان على الأحكام الشرعية وليس مبنيًّا على العاطفة، فأحيانًا قد يكون الشخص قريبًا منك في النسب وتدفعك العاطفة إلى محبته، ولكن في حال وقوعه في أي معصية من الكبائر والعياذ بالله فعلى المؤمنين أن يتبرأوا منه، ويعلنوا البراءة منه، حتى يستيقظ ضميره، ثم بعد ذلك يتوب إلى الله عز وجل، ويسارع بالعودة إلى صف المؤمنين.

وكذلك في حال أنه ملتزم ومطبق لأوامر الله، ومبتعد عن ما نهى الله تعالى عنه فإنه عندئذ يجد القَبول، والحب والتعاون بحيث يبقى في دائرة المؤمنين الطائعين الصالحين.

❖ **الأدلة على عقيدة الولاء والبراء:**

**الدليل الأول:** قول الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أولئك بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) [الأنفال:72]. فالذين التزموا بالإيمان وجاهدوا في سبيل الله وهاجروا مع رسول الله ﷺ فهم يوالون بعضهم بعضًا، يحبون بعضهم بعضًا في الله، ثم قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتى يُهَاجِرُوا) [الأنفال:72]. وكانت الهجرة واجبة، فالذين آمنوا لكنهم ما التزموا بالهجرة فعندئذ لا يوالونهم، وعدم ولايتهم في الدين يؤدي إلى عدم نصرتهم في حال بين المؤمنين وبين أعدائهم ميثاق، فالله سبحانه وتعالى يقول: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حتى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا على قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ) [الأنفال:72]. فهؤلاء لا نحبهم حتى يطبقوا أمر الله، ولا تعني البراءة أن الشخص محكوم عليه بالنار، أو الخروج من ملة الإسلام -كما يفهم البعض-، ولكنه أسلوب تأديبي من أجل إعادة الذي خرج عن دائرة الإيمان والطاعة إلى دائرة الإيمان والطاعة.

**الدليل الثاني:** ما ورد في السنة النبوية، فإن الرسول ﷺ أَمَرَ بمقاطعة الثلاثة الذين خُلِّفُوا عن غزوة تبوك، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت إلى أن تاب الله تعالى عليهم ورجعوا إلى صف المؤمنين.

**نشاط (1):**

**يقول الله تعالى:** (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) [التوبة: 118]. **بالرجوع إلى كتب التفسير لديك، اقرأ قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا عن غزوة تبوك، لتتبين دور البراءة في توبة العصاة، ورجوعهم إلى الطاعة.**

فهؤلاء الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ ولم يذهبوا معه للجهاد في غزوة تبوك واجهوا الحصار من قِبَل المسلمين، فمَنَعَ الرسول ﷺ المؤمنين من محادثتهم، ومنع زوجاتهم من معاشرتهم، وهذا يشكل لهم عقابًا نفسيًّا، مع أنهم باقون على الإيمان، ولكن هذا الأسلوب أشعرهم بالذنب، وجعلهم يعودون إلى الصف، ويتوبون إلى الله توبة نصوحًا، فعندئذ نزلت التوبة وقَبِلَ الله سبحانه وتعالى توبتهم، ورَدَّهُم إلى صف المؤمنين الطائعين.

**نشاط (1):**

- **بالرجوع إلى الحديث رقم (4418) من صحيح البخاري، اقرأ حديث** كعب بن **مالك رضي الله عنه، واكتب أثر مقاطعة النبي ﷺ والصحابة له لما تَخَلَّفَ عن غزوة تبوك، وبالتواصل مع أستاذ المحاضرات الافتراضية، تناقش** معه فيما **توصلت إليه.**

ويقول الشيخ السالمي في ذلك:

وَحِـرْزُهُ أَنْ تُـوَالِي مَـنْ أَطَـاعَ وتَبْـــ ـرَا مِنْ مُصِرٍّ، وَقِفْ عَنْ كُلِّ مَـنْ جُهِـلَا

فحفظ الدين والمحافظة عليه بأن تحب في الله مَن أطاع الله، وأن تبرأ (تَكْرَهَ) في الله مَن عصاه، ولا يجوز وأنت تعلم أن هذا الشخص يشرب الخمر ويزني ويرتكب الموبقات وأنت تُكِنُّ له في قلبك كل الحب وكل المودة، فهذا تناقض، لأنت تحب ما يبغضه الله، وهذا خطأ، فإذًا لا بد أن تقر في نفسك كراهية ما يفعله هذا الإنسان، وتشعره بأنك غير راضٍ عن فعله، وأنك تتبرأ مما فعل حتى يعود إلى صف الإيمان.

❖ **أثر هذه العقيدة في الدعوة عند الإباضية:**

يجب أن ينتبه الداعية خصوصًا والمسلم عمومًا إلى أن يكون هناك حكمة في اتباع هذا الأسلوب (أسلوب الهجر لمن يفعل المحرمات)، فلا ينبغي الشتيمة أو مواجهة هذا الإنسان بالتهم التي ليست فيه، أو معاقبته بأمور لا يجوز معاقبته بها، أو غير ذلك، فالولاية والبراءة مبنية على أسس شرعية وليست مبنية على أهواء شخصية، وليست مبنية على مزاج، وإنما تبنى على أدلة شرعية واضحة وصريحة.

فلو بلغني أن فلانًا يعمل كذا وكذا، فهذا لا يكفي لمقاطعته وإعلان البراء منه، بل يجب التثبت من هذا الكلام، فالله سبحانه وتعالى يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) [الحجرات: 6]. فلا ينبغي أن أقول: أنا سمعت عن فلان أنه فعل كذا وكذا، ثم تعلن البراءة منه.

هذه المنهجية انعكست على الأفراد، وبالتالي أصبح الإنسان المؤمن الملتزم عند الإباضية يخشى الوقوع في معصية مخافة ردة فعل المجتمع أو العلماء أو الدعاة أو أهل الدين والصلاح، فالرجل عندما يعلم أن هؤلاء سيتخذون منه موقفًا صارمًا فإنه سيُحْجِم عن فعله المحرم، وإذا وقع في معصية والعياذ بالله ووُجِّهَت له النصيحة فإنه يسارع إلى قبول النصيحة وإعلان التوبة أمام الآخرين، حتى يبرئ ذمته، ويعود إلى صف المؤمنين؛ لأن باب التوبة مفتوح.

ومثال ذلك: لو فعل مسلم معصيةً فإن باقي المسلمين عليهم أن ينصحوه ويبينوا له خطأه، ثم يُفتَح له باب التوبة ويَستتاب، فإن تاب رجع إلى الولاية، وبالتالي يصبح من أفراد المجتمع المؤمن الملتزم بدينه، وإلا أقام عليه المسلمون عقيدة البراءة.

وهذا الأسلوب له تأثير في الأفراد، وينعكس على الأتباع وعلى الدعاة من أهل الاستقامة ومن أهل الدعوة عند الإباضية، بالتالي أصبح كل واحد حريصًا بحيث أن يكون ملتزم بما أوجبه الله عز وجل ومبتعد عن ما نهاه عنه.

ونجد في تجربة الإباضية في المغرب العربي بما يسمى بنظام العزابة -وسنتطرق إليه في الدروس القادمة- فإنهم كانوا يطبقون مبدأ الولاية والبراءة على الأفراد في مجتمعهم؛ وذلك لأن مجتمع العزابة لا يوجد فيه حاكم، ولا إمام، ولكن فيه مجلس عزابة يدير شؤون المسلمين في تلك البقاع، فكانوا عندما يعلمون أن شخصًا ما اقترف كبيرة مِن الكبائر فإنهم بعد أن يتثبتون من ارتكابه لتلك المحرمات فإنهم يَسْتَتِيبُونَهُ، فإن تاب رجع إلى الإيمان والدين وإن لم يتب أُعلِن في المجتمع أن فلانًا مرتكبٌ لكبيرةٍ، وبالتالي على الجميع أن يقاطعه، وبناءً على هذه المقاطعة فإنه سيضطر إلى ترك المنكر الذي كان يفعله، وقد كان هذا له تأثير قوي في صلاح الأفراد.

وهذا السلاح قد يكون أقوى من إقامة الحد أحيانًا؛ ففي المذهب الإباضي: لا تُنفَّذ الحدود إلا بأمر من الإمام، وفي حال غياب الإمام فإنه يكتفى بتطبيق مبدأ الولاية والبراءة، وبالتالي تكون كافية في تأديب المرء، ويسارع اليوم الثاني إلى التوبة والندم.

هذه المبادئ الثلاثة (الإيمان قولٌ وعمل - مرتكب الكبيرة مخلد في النار - قضية الولاية والبراءة) لها انعكاسات على الأفراد، وبالتالي أصبح الشخص ملتزما بعيدًا عن الكبائر، مطبقًا لأمر الله عز وجل، مؤديًا للواجبات.

وهذه العقيدة انعكست على سلوك الأفراد، وكان لها تأثير قوي، وبالتالي كانت المجتمعات الإباضية نظيفة وفيها التزام ديني، واتباع لمنهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم.

الخصيصة الرابعة: التعامل مع الواقع بما يناسبه

الخصيصة الرابعة من خصائص الدعوة عند الإباضية: التعامل مع الواقع بما يناسبه، فالدعوة تمر بظروف مختلفة، فقد تكون هذه الظروف مناسبة ومهيأة وليس فيها مشكلة أن يمارس العلماء والدعاة الدعوة إلى الله بكل حرية وبدون قيود. وقد تكون هناك ظروف تضطرهم إلى اتخاذ أساليب أخرى، فلذلك الإباضية وضعوا ما يُسمَّى (مسالك الدين) -وسنتطرق إليه في الدرس التالي بالتفصيل-، ولكن نتطرق إليه في هذا الدرس من باب أن الدعوة ليس لها أسلوب واحد في جميع الظروف والأحوال، بل قد تتغير أساليب الدعوة بناء على الواقع المَعِيش.

الدليل على ذلك: قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح:5-11]... إلى آخر الآيات. فالنبي نوح عليه السلام اتخذ كافة الأساليب مرة بالجهر، مرة بالإسرار، ومرة بالليل، ومرة بالنهار، وهذه أساليب مختلفة في الدعوة إلى الله تعالى.

وقد سلك الإباضية في الدعوة إلى الله تعالى عدة مسالك نظرًا لاختلاف الواقع الذي يعيشون فيه، واستخدموا كل مسلك من هذه المسالك في الوقت الذي يناسبه، وهذه المسالك هي:

المسلك الأول: مسلك الكتمان:

استفاد الإباضية مسلك الكتمان من منهج الرسول ﷺ في الدعوة، فعندما كان في مكة المكرمة في الثلاث سنين الأولى اتخذ الرسول -عليه الصلاة والسلام- منهج الكتمان -كما قلنا ذلك سابقًا-، ثم بدأ في الجهر السلمي، ثم بعد ذلك عندما هاجر إلى المدينة المنورة وصارت له دولة شرع الله سبحانه وتعالى الجهاد في سبيل الله.

إذن فالإباضية يتعاملون مع الواقع المحيط بما يناسبه من أساليب الدعوة، ففي حال الخوف ويكون الوضع فيه وخوف وشدة واضطهاد فعندئذ لا بد أن يلجئوا إلى الكتمان؛ حفاظًا على الدعوة وعلى أتباعها -كما دللنا على ذلك في الدروس السابقة-.

المسلك الثاني: مسلك الدفاع:

عند الإباضية مسلك آخر يسمونه (مسلك الدفاع)، وهذا المسلك يستخدم عندما تتعرض الدعوة لغزو خارجي أو لعدو غاشم، فإذا حدث هذا فلا بد من أن يَهُبَّ المسلمون جميعًا سواء من الإباضية أو من إخوانهم المسلمين الآخرين لصد هذا العدو الغاشم، حتى لو كان هذا العدو من المسلمين إذا كان ظالمًا أو متكبرًا أو باغيًا، وهذا يُسمَّى في المذاهب الأخرى: (رد الصائل)، وعند الإباضية يُسمى أيضًا: (رد البغاة) أو (الدفاع)... وعند الإباضية يُعَيِّنُون إمامًا لهم يسمى (إمام الدفاع)، وتنتهي مهمته بانتهاء العدوان والاعتداء عليهم.

المسلك الثالث: مسلك الشراء:

يوجد مسلك آخر يسمى (مسلك الشراء)، ويكون هذا المسلك عندما يتسلط على المسلمين حاكم باغٍ، أو عدو من أي جهة، فعندئذ لا مجال للكتمان، ولا مجال للدفاع، ولا مجال للظهور -كما سيأتي-، فعندئذ يعلنون ما يُسمى (الشراء)، وكلمة الشراء مأخوذة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾

[التوبة:111]، فيُعلن المؤمن أنه يبيع نفسه لله سبحانه وتعالى، ويشري الجنة مقابل أنه يقدم روحه رخصة في سبيل الله.

فإذا تعرض المسلمون لمثل هذا فإنه ينبري عدد من (الشُّرَاة) الذين يدافعون عن الدين، ويدافعون عن الوطن، ويدافعون عن الأعراض والأنفس والأموال، وبالتالي يخلِّصُون المسلمين من شر هذا الباغي، فإما أن ينالوا الشهادة في سبيل الله، وإما أن يحقق الله سبحانه وتعالى النصر على أيديهم.

المسلك الرابع: مسلك الظهور:

يوجد مسلك آخر يُسمى (مسلك الظهور)، ومسلك الظهور يكون عندما يكون غالبية المجتمع متقبلة لأحكام الدين؛ فإنهم عندئذ ينتخبون إمامًا أو حاكمًا يحكمهم بالعدل، ويُظهِرون به دينهم، فيكونون فيه أقوياء، أعزة، لا يخافون من الأعداء، وهذا ما كان عليه الرسول ﷺ في المدينة المنورة، وما كان عليه كثيرٌ من الأئمة عند الإباضية على مراحل التاريخ، منذ عهد الإمام الجُلندى حتى عهد الإمام محمد بن عبدالله الخليلي، فهذا تسمى إمامة الظهور، بحيث يكون المسلمين في عهد قوة، ويستطيعون أن يمارسوا دينهم وعبادتهم، ويطبقوا الأحكام والشرعية بكل أريحية وبكل حرية.

وهذه المسالك المختلفة فيها نوع من المرونة في التعامل مع الواقع، ولذلك نجد في الدعوة عند الإباضية كثير من المخارج للواقع الذي يعيشه الداعية، بحيث إن الداعية في أي زمان ومكان ينظر في الواقع الذي يحيط به، فإن كان الزمن الذي يعيش فيه الداعية تباح فيه ممارسة الشعائر الدينية بكل حرية، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن واقع المسلمين مشجع على نشر الدين والدعوة، فعندئذ يعتبر عهد ظهور، وبالتالي يمارس المسلمون فيه دينهم وشعائرهم ودعوتهم إلى الله عز وجل بيسر وبسهولة وبدون الاعتداء على أحد، وبدون رفع السيف، وبدون استخدام القوة في هذه الأحوال.

أما في حال تعرضهم لإيذاء أو ضغط فإنهم ينظرون في الواقع، هل يسلكون مسلك الكتمان وبالتالي يبتعدون عن مواجهة الأعداء أو البغاة؟ أم يسلكون مسلك الكتمان؟

وإذا كان الوضع في غاية الخطورة من ناحية عدم السماح لهم بالدعوة فعندئذ إما الشراء وإما الدفاع. ولكل وضع أسلوبه الخاص.

هذه الأمور انعكست على الدعوة ومسار الدعوة عند الإباضية، وعلى من يريد أن يقوم بواجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى أن يدرس هذه المسالك، بحيث ينظر الداعي إلى الله سبحانه وتعالى في الواقع الذي يعيشه، ولا يستخدم أسلوب الشراء في وقت الظهور، ولا يستخدم أسلوب الكتمان في وقت الشراء، أو العكس، فكل مرحلة ولكل ظرف له أسس مدروسة ومعروفة.

- خاتمة:

هذه الخصائص الأربع من خصائص الدعوة عند الإباضية -التي درسناها في هذا الدرس والدرس السابق- ضبطت مسار الدعوة عند الإباضية، وبالتالي كانت لها ضوابط بحيث لا يُترَك الحبل على الغارب، وتكون الدعوة عشوائية، وإنما لا بد أن تكون الدعوة مبنية على أسس فقهية شرعية، مستَمَدَّة من كتاب الله عز وجل أو مِن سُنَّة الرسول ﷺ، وينطلقون منها إلى العمل الدعوي بكل بصيرة وهدى وعلم ورؤية واضحة.

* * *

# مراحل الدعوة عند الاباضية

## مقدمة الدرس

- تمهيد الدرس:

ذكرنا في الدروس السابقة خصائص الدعوة عند الإباضية، ونتناول في هذا الدرس: «مسالك الدين» ونحن نسميه: بـ «مراحل الدعوة عند الإباضية» في المصطلح الحديث، وهو ناتج عن التعامل مع الواقع بما يناسبه، لأن طريق الدعوة ليس طريقًا مفروشًا بالورود، فالناهي عن المنكر والساعي إلى الخير لا شك أنه سيواجه عقبات كثيرة وقد يؤذى أو يضطهد حسب العوامل والظروف، ولكن عليه أن يتحلَّى بالصبر.

### مسالك الدِّين في دعوة الإباضية

تقديم:

لعلماء المذهب الإباضي تجارب في مجال الإصلاح والدعوة بهدف الوصول إلى مجتمع تحكمه الشريعة، واستطاعوا من خلال تلك التجارب أن يصنفوا مسالك الدعوة إلى الله عز وجل إلى أربعة مسالك، أطلقوا عليها: "مسالك الدين" والبعض يسميها "طرق الدين".

❖ المقصود بمسالك الدين:

عرفها الشيخ القطب –رحمه الله– بقوله: «هي الطرق التي يتوصل بها إلى إنفاذ الأحكام الشرعية» فالهدف هو إقامة المجتمع المسلم، والوصول إلى هذه الغاية له عدة طرق وهو ما يسمَّى بمسالك الدين.

كما وضع الشيخ أحمد الخليلي -حفظه الله- تعريفًا آخر يقول: «هي طرقٌ يسلكها المسلمون حسب ملاءمة الظروف وتهيُّؤ الأسباب» إذن ما يبغونه من الحق والرشد وإقامة نظام الدين هو معنى متقارب.

ويتضح مما سبق أن مسالك الدين هي: «الأساليب والطرق الموصلة إلى إقامة الحق والإصلاح» وقسَّم علماء الإباضية هذه المسالك إلى أربعة هي: الكتمان، والشراء، والدفاع، والظهور.

**نشاط (١):**

**يمكنك الرجوع إلى المصادر التالية للاطلاع على تعريفات مسالك الدين:**

- **كتاب «شرح عقيدة التوحيد» للشيخ محمد بن يوسف أطفيش.**
- **شرح الشيخ الخليلي لمنظومة الإمام السالمي «غاية المراد في نظم الاعتقاد».**

يقول الشيخ السالمي في منظومته بعد أن جمع هذه الطرق في بيت واحد:

**ثم الظهور ودفعٌ والشراء مع الكتمان طرقٌ له أكرم بها سبلا**

وفيما يلي نعرض لك بيان مسالك الدين أو الدعوة عند الإباضية:

## المسلك الأول: الكتمان

**تقديم:**

نحن تكلمنا عن مسلك الكتمان فيما مضى عندما كان في زمن الرسول ﷺ وتكلمنا عنه أيضًا عندما تطرقنا إلى سيرة الإمامين جابر بن زيد وأبي عبيدة رحمهما الله تعالى، وقلنا إنهما المؤسسان الرئيسيان وسلكا مسلك الكتمان في الدعوة اقتداء بالرسول ﷺ.

❖ تعريف الكتمان في اللغة:

الكتمان في اللغة: نقيض الإعلان، والإعلان هو الإشهار والإظهار، أما الكتمان فهو إخفاء الأمر وعدم إظهاره وإشهاره للناس.

❖ تعريف الكتمان في الاصطلاح:

هو: «إخفاء أمر الدعوة عمن يريد بها السوء والقيام بواجب الإصلاح سرًّا في وقتٍ تكون الدعوة فيه ممنوعة ويتعرض الدعاة لخوفٍ شديد» لذا وجب إخفاؤها بحيث لا يطَّلع عليها إلا الأمين الثقة الذي لا يبوح بسرِّ الدعاة ولا يكشف نهجها.

وهذا التعريف اجتهاد مني، وهو اختصار لما فهمته من هذا المسلك وما درسناه في كتب علمائنا، وهذا المسلك لا يلجأ إليه الدعاة إلا في حالة الضعف؛ لأن الأصل أن تكون الدعوة جهرية.

❖ الدعوة بين الجهر والكتمان:

الدعوة تُخفى عندما يكون إظهارها فيه خطرٌ عليها وعلى أصحابها، أما في حالة عدم وجود هذا الخطر وهذا الخوف فإنه لا ينبغي أن تُخفى الدعوة عن الناس لأن هذا حق للناس وهذا أمر الله ﷻ: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر:٩٤]، فالمقصود هو إيصال الدعوة إلى كل الناس، لأنها ليست أمرًا خاصًّا بفئة معينة قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ) [سبأ:٢٨]، فالرسول ﷺ أُمر بالتبليغ لعامة الناس، وليكون رحمة للعاملين.

إذن لا ينبغي أن نحتكر هذا الدين وهذه الدعوة وهذا الإصلاح والصلاح لأنفسنا؛ بل علينا أن ننشره للناس.

وحقيقةً قد يتعرض بعض الدعاة في بعض العصور أو في بعض الأماكن إلى اضطهاد حيث لا يُسمح لهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد يسجن الداعية وقد يعذَّب وقد يُمنع المسلمون في ذلك المكان أو الزمان من ممارسة الشعائر.

كما أن بعض الدول غير المسلمة لا تسمح بإقامة الشعائر التعبدية، أو تمنع المساجد أصلًا، أو تعتبر إقامة الدين أو الصلاة ممنوعًا، كما نلاحظ مثلاً أن بعض الدول تمنع الحجاب، مما يجعل المسلم غير قادر على التمكن في تلك البيئة من تحقيق مبادئ الدين في نفسه وفي مجتمعه على النحو الذي أمر الله تعالى به فعندئذٍ لابد للدعاة والمصلحين الذين يريدون إقامة الدعوة اتباع مرجع وطريق يدلهم على الرشد.

## نماذج لتطبيق مسلك الكتمان في الدعوة

### النموذج الأول:

كما هو الحال عند إباضية المغرب، فعندهم مجلس يسمى مجلس «العذَّابة» يجلس فيه مجموعة من العلماء والمشايخ من أهل الدين والفطرة يذكرهم بالله وباليوم الآخر ويصلح ذات بينهم ويقوم بما أمكنه من مصالحة ويرعى شؤونهم وينظم حياتهم بقدر المستطاع، وهذا كله سرًّا وليس جهرًّا بحيث لا يعلمه إلا الخاصة منهم.

وقلنا إن الدعاة لهم في رسول الله ﷺ أسوةٌ حسنة في هذا المجال فقد كان ﷺ يجتمع بأصحابه سرًّا في دار الأرقم بن أبي الأرقم وكانوا يؤدون الصلاة في شعاب مكة أو في الجبال متفرقين، وظلوا على هذا النحو تقريبً ثلاث سنوات حتى نزل قوله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) [الحجر:٩٤].

### النموذج الثاني:

سلَك الإمام جابر بن زيد طريق الكتمان خوفًا من الحَجاج وبطشه وخوفًا من حكام بني أمية الذين بغوا في الأرض، فالإمام جابر ومن بعده الإمام أبو عبيدة لما

لاحظا القتل في المصلحين ومن ضمنهم قتل الإمام أبي بلال المرداس بن حدير؛ رأوا أن الاستمرار بإعلان الدعوة قد يسبب خطرًا عليها وعلى أفرادها، فنهجوا منهج الكتمان وصاروا يجتمعون سرًا في السراديب التي تحت الأرض وأحيانً في البيوت؛ وكانوا يستخفون عن أعين الأمويين وقادتهم.

وهذا المسلك جعلهم يمارسون الدعوة سرًّ وينكرون ما يلاحظونه من الفساد في قلوبهم، ولا يعلنون ذلك إلا من جازف منهم ولم يبال لما قد يصيبه من أذى في سبيل الله.

وكان في ذلك الوقت مسموحًا لمن أراد أن يُعلن عن نفسه وعن دعوته؛ بشرط ألا يدل على بقية إخوانه المسلمين، فلو أراد أن يصلح بشكل علني وألا يبالي بما يلاقيه من تعذيب أو من أذى أو من اضطهاد فهذا مباح في الأصل وليس فيه شيء؛ لكن إذا كان ذلك سيسبب ضررًا على الدعوة أو على الدعاة فعليه أن يلتزم بما التزم به المسلمون.

## من أحكام مسلك الكتمان عند الإباضية

مسلك الكتمان له أحكام عند الإباضية ففيه مسائل عدة منها:

**١ - جواز التقييد وعدم تطبيق الحدود الشرعية:**

يعني في حالة الكتمان يضطر الإنسان أحيانً إلى فعل شيءٍ قد يكون غير جائز في الأصل ولكن الاضطرار يدفعه إلى ذلك، ونحن نعلم من القواعد الشرعية في الإسلام أن الضرورات تُبيح المحظورات بدليل أن الله عز وجل قال عن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ) [البقرة:١٧٣] فالإنسان لا يلجأ إلى فعل غير جائز إلا مضطرٌّ.

كذلك من الأحكام في حال الكتمان والضعف عدم السعي لتطبيق الأحكام الشرعية كحد السرقة مثلًا، ففي أحوال الضعف لو طالب الداعية بتطبيق الحدود سيعرض نفسه وغيره للخطر، فالسعي للمطالبة بتطبيق الحدود يكون في عصر القوة عندما يكون هنالك سلطة ودولة؛ لذلك قالوا إنه لا ينفذ الحدود إلا إمامٌ منتخب ومبايع من قبل المسلمين وله من الصلاحيات ما يحق له أن ينفذ الحدود أما في حالة الكتمان لا تطبق الحدود الشرعية لما لها من وضع خاص.

٢- جواز التعامل بالتقية مخافة الهلاك:

قالوا إنه إذا خاف الأذى أو العذاب أو القتل فعندئذٍ يجوز له أن ينجي نفسه بالتقية، والتقية تكون إما بالقول وإما بالفعل كما يقول الشيخ السالمي:

**أجـز تقيـة بقـولٍ إن خلـص مـن ... نيـل در مـن بـه القـول يخـص**

**وأمنعهـا في إتـلاف نفـس إن ... جنى والخلف في إتلاف مال ضُمن**

**ولم تجـز تقيـة بالفعـل كـالحرق ... والغـرق ومثـل القتـل**

**لكـن جـواز مـا أبـيح للضرر ... كالأكـل للميتـة والـدم اشـتهر**

**ومكـرهم جـاء بـما الحـد يجـب ... عليـه في أن لا يحـد نسـتحب**

وهذا يعني أن التقية قد تكون بالقول وقد تكون بالفعل، لكن التقية بالقول جائزة ولكن بشرط أن لا تقع الضرر بأحد مثل جواز كلمة الكفر، ومما يدل على جواز ذلك:

الدليل الأول:

بدليل أن عمار بن ياسر عندما اشتد عليه التعذيب ورأى أن أمه قد قُتلت وأن أباه قد قُتل وخشي على نفسه الهلاك؛ طالبوه بأن يقول كلامً في حق الرسول ﷺ وهذا



لا يجوز وقد يعتبر كفرًا، وقد ورد في الحديث: أن المُشركينَ أخذوا عمّارًا فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ رَسُولَ اللهَ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللهَ ﷺ، قَالَ: " مَا وَرَاءَكَ ؟ " قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهَ، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نُلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟ قَالَ: أَجِدُ قَلْبِي مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ، قَالَ: فَإِنْ عَادُوا فَعُدْ».

فقال العلماء أن هذه رخصة للإنسان حتى ينجي نفسه بأن يقول كلمة هو لا يعتقدها في ذاته، يعني مثلاً عندما يُسأل هل أنت مسلم؟ يقول لا، وهو في داخله مسلم مطمئن، حتى ينجي نفسه من موقف قد يكون فيه قتله.

الدليل الثاني:

كذلك رُوي عن بعض الصحابة أن مسيلمة الكذاب قبض على اثنين منهم، فقال للأول ما تقول في محمد؟ فقال: رسول الله، فقال: ما تقول في أنا؟ قال: وأنت أيضًا، ولما سأل الثاني ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: ما تقول في أنا؟ قال: إني أصم لا أسمع.

فلما بلغ الأول الرسول ﷺ فقال: أن الأول أخذ بالرخصة، وأما الثاني فهنيئًا له لإنه قتل، أي قد صدع بالحق، فيتضح من ذلك أنه يجوز للإنسان أن يصدع بالحق ويجوز له يأخذ بالرخصة وأن ينجي نفسه؛ لكن بشرط أن لا يعتقد ما يقوله وإنما لينجي نفسه مما يواجهه من العذاب، ولا يجوز له أن ينجي نفسه ويقتل غيره؛ لكن إذا كان القول ليس فيه ضرر على أحد وحتى لو كان فيه بعض المخالفات للدين فهذا لا إشكال فيه ما دام القلب مطمئنٌّ بالإيمان.

❖ ما لا تجوز فيه التقية الفعلية:

لا تجوز لو قيل له إما أن تقتل فلانً وإما أن نقتلك، فهنا لا يجوز له أن يقتل فلانًا لأن هذا فعل فيه إتلاف نفس وإيقاع ضرر، ولا يجوز له أن يغرق فلانًا أو يحرقه أو يقطع شيئً من أعضائه، أن يهلك غيره في سبيل النجاة بنفسه.

❖ ما تجوز فيه التقية الفعلية:

كأن يقال له: كل من لحم الخنزير وإلا قتلناك، قال العلماء يجوز قياسً على الجوع، أو يقال له: كل من لحم الميتة أو غير ذلك، فهذا ليس فيه ضرر على أحد.

❖ مسألة:

هل يجوز له أن يأخذ من أموال الناس لينجي نفسه، بقصد أن يضمنه ويرد الحق إلى أصحابه؟ والإجابة: أجاز ذلك البعض.

تعقيب:

مما سبق يتضح لكم رخص التقية التي من الممكن أن يتقي بها الداعية شر من أراد به الشر، ويعد هذا مخرجًا من مخارج الدين خاصة في وقت الكتمان، فهذا المخرج يساعد الداعية على الخروج من المضيق الذي يمر به والشدة التي يعانيها قال تعالى: (لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) [البقرة:٢٨٦]، فإذا وجد مجال للإنسان لينجي نفسه وغيره فلا بأس بشرط أن يكون مطمئنً بالإيمان، وإذا إعتدى أو أخذ من مال أحد أن يضمنه بأن يعيده إليه فيما يأتي وأن لا يعتدي على أحد أو ينجي نفسه بهلاكِ أحدٍ آخر.

ولذلك هنا ينبغي على الداعية أن يتفقه في مثل هذه الأمور لأنها تساعده على المرونة في الدعوة.

## المسلك الثاني: الشراء

❖ التأصيل اللغوي لمعنى الشراء:

الشراء في اللغة: البيع، وهو من مصدر شرا يشري شراءً وجاء في لسان العرب: شَرى الشيءَ يَشْرِيه شِرىً وشِرَاءً واشْتَرَاه سَواءٌ، وشَرَاهُ واشْتَرَاهُ: باعَه، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله) [البقرة:٢٠٧] أي: يبيع نفسه ابتغاء مرضاة الله وقال سبحانه: (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ) [يوسف:٢٠] أي باعوه وشراه مشاراةً وشِراءً أي: بايعه وقيل شراه من الشراء والبيع جميعً، وعلى هذا وجه بعضهم مدَّ لفظ: الشراء فتقول: (شرااء) قال أبو زيد بعتُ وشريتُ أي اشتريتُ قال الله عز وجل: (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [المائدة:٦٢] قال الفراء: بئسما باعوا به أنفسهم.

وللعرب في (شروا واشتروا) مذهبان: (شروا) بمعنى (باعوا) و (اشتروا) بمعنى (ابتاعوا) وربما جعلوهما بمعنى (باعوا)، وقال الجوهري: يُمدُ ويقصر شريتُ الشيء أشريه شراءً إذا بعته وإذا اشتريته أيضًا وهو من الأضداد أي: الكلمة التي تحمل المعنى وضده والشرا يكون بيعً واشتراءً والشاري: المشتري والشاري: البائع قال ابن الأعرابي: الشراءُ من (ممدودٌ) ويقصر فيقال: الشرى، وقال: أهل نجدٍ يقصرونه وأهل تهامه يمدونه.

❖ الشراء في الاصطلاح الشرعي:

هو: «أن يشري المسلم نفسه، أي يبيعها في سبيل الله ابتغاء مرضاته ودخول الجنة»؛ لذلك سميت المرحلة التي تقتضي بيع النفس والتضحية بها بمرحلة الشراء أو مسلك الشراء يقول القطب هنا في تعريف الشراء: «أي شراء الإنسان نفسه من النار أو شراء الجنة بنفسه، أو بيع نفسه بالجنة» فإن الشراء يطلق أيضًا على البيع فالمقصود أن يشتري نفسه، أي يبيعها مقابل

أن يدخل الجنة وأخذ هذا المصطلح من قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ) [البقرة:٢٠٧] ويشري نفسه أي يبيعها في سبيل الله، ومنه قوله أيضًا سبحانه وتعالى: (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) [التوبة:١١١].

ولذلك يلقب هؤلاء بـ: البائعين أنفسهم في سبيل الله الشراه ومفردها شارٍ أي بائع نفسه لله مقابل الجنة حسبما ورد في الآية الكريمة.

## من أحكام مسلك الشراء في الدعوة

تقديم:

مسلك الشراء –حسبما يقول الشيخ الخليلي– «يكون في حال عدم ظهور كلمة أهل الحق وذلك بأن يكون العدو متسلطاً عليهم، يُنزل بهم المصائب ويسعى إلى صدهم عن الهدى ولا يبالي بانتهاك الحُرَم وإضاعة الحقوق ونهب الأموال فتنبغي طائفةٌ من المؤمنين لمحاولة الحد من هذا الفساد لإقلاق العدو ومحاولة مباغتته تأديبً على تصرفاته».

❖ نموذج لتطبيق مسلك الشراء:

تطبيق هذا المسلك موجود في العصر الحديث، فنحن نلاحظ ما يسمى بـ: (الاستشهاديين) الذين يقومون بتنفيذ العمليات الاستشهادية التي يبيع فيها المسلم نفسه في سبيل الله فيقتُل العدو –كما هو حاصل في فلسطين اليوم– حيث يقوم المقاوم بتلغيم نفسه ويذهب إلى معسكر المغتصبين الصهاينة ويفجر نفسه فيقتل عددً من هؤلاء الأعداء، ويطلق الإباضية مصطلح (الشُّراة) على هؤلاء الذين يبيعون أنفسهم لله.

وعلينا أن نفرق بين الذين يقومون بالتضحية بأنفسهم لأجل التصدي لعدو باغ وبين من يلبسون الأحزمة الناسفة ويقتلون الناس الأبرياء، بدعوى أن هذا من الجهاد في سبيل الله، فهذا

غير جائز؛ لأنه قتل للأنفس بغير حق، وفيه إثم عظيم، لأن من يفعل ذلك يقتل نفسه ويقتل غيره.

❖ كيفية تطبيق مسلك الشراء:

قال العلماء: إن أقل عدد يجتمع فيه (الشراة) هو أربعين شخص، يختارون لهم إمامًا يسمونه إمام الشراء أو (إمام شراء) ويتعاهدون على بيع أرواحهم في سبيل الله والتضحية بكل غالٍ ونفيس لأجل التخلص من هذا العدو الجائر والفئة الباغية التي معه.

فإما أن يكتب الله لهم النصر أو يكتب لهم الشهادة وبذلك تبرأ ذمتهم أمام الله وأمام خلقه، بأنهم لم يتخلفوا عن نصرة الدين ونصرة الحق وهم يقومون بهذا الدور ابتغاء مرضاة الله ونصرة للإسلام.

❖ متى يلجأ (الشراة) لهذا المسلك؟:

يلجأ (الشراة) لهذا المسلك إذا لم يوجد طريقة أخرى للدعوة، وعندما يجدون أن اتباع مسلك الكتمان أصبح أمر غير مُجدي، بمعنى أنهم غير قادرين لا على الكتمان ولا على الظهور فعندئذٍ تبيع هذه الفئة نفسها لله سبحانه وتعالى وتعاهد الله عز وجل على التخلص من هذا العدو والنيل منه وتخليص المسلمين من شره وبالتالي إراحة المسلمين منه حتى يستطيعوا أن يقيموا شعائر الدين والإسلام التي أمر الله تعالى به.

فمن قُتل وهو في سبيل الله يعتبر شهيدً بشرط ألا يعتدي على الأبرياء وأن لا يسلب حقوق الناس فإذا انتهت المعركة تعاد لهم حقوقهم، خاصة لو كانوا مسلمين بغاة، إلا السلاح فقيل أنه يباع، فلا يعطوه لهم، حتى لا تعود إليهم قوتهم، كما أن أموالهم التي أخذت منهم ترد إليهم لأن الحقوق ترد حتى إلى الباغي طالما كانت أموالهم الخالصة، ولم ينهبوها من دولة المسلمين لأن الأموال المنهوبة من دولة المسلمين ترد إلى بيت المال لكن أموالهم الخالصة فلا تسلب عنهم بل ترد إليهم.



## مقدمة الدرس (١٦)

- **نشاط تمهيدي:**

لخِّص ما تناولناه في المحاضرة السابقة حول "مسلك الكتمان" و"مسلك الشراء" وهما مِن مَسَالِك الدين.

## مسلك الدفاع

- **التعريف اللغوي:**

مأخوذ مِن: دَفَع دفعًا ودفاعًا، والدفعُ هو الإزالةُ بقوة، يُقال: دفعه يدفعه دفعًا ودِفاعًا أو ودَفَاعًا، و"تدافعوا الشيءَ" أي دَفَعَه كلُّ واحد منهم عن صاحبه، و"دافع عنه" بمعنى دَفَع، ومنه: "دَفَع الله عنك المكروه دَفعًا"، و"دافع الله عنك السوء دَفَاعًا".

فمجمل المعنى اللغوي يتضمن معنى الإزالة بقوة، أو صرف الشيء بقوة.

- **التعريف الاصطلاحي:**

هو مسلكٌ يلجأ المسلمون إليه في حال تعرض بلدهم لعدوٍ يريد أن يحتل ديارهم، ويهدد أمنهم واستقرارهم، فيصدونه عنهم، ويثنونه عن مقصده بكل الوسائل الشرعية بعد استفراغ الحوارِ والتفاوض.

**انتبه:**

**قد لا تجد في الكتب التعريفَ الاصطلاحي الدقيق لمصطلح الدفاع، وهذا التعريف إنما جاء به أستاذ المادة لتقريب المعنى.**

- **فراغ السلطة حينها:**

قد لا يكون للمسلمين إمامٌ في تلك الفترة، أي يوجد فراغ في السلطة، فإن جاء لهم عدو يؤذوهم؛ فإنهم لا يقفون مكتوفي الأيدي؛ بل يتشاورن ويتحدون، ويجتمعون على رجلٍ واحد، يولونه القيادة، ويقاتلون معه، ويدافعون عن بلادهم وأعراضهم.

أو قد يكون لهم حاكم أو إمام ضعيف، ولا يقدر على القيام بهذا الدور، وقد يهجم العدو ويحتل ويغزو، ويسلبهم أراضيهم، وأموالهم، وممتلكاتهم، وينتهك أعراضهم، فعندئذٍ إذا خاف المسلمون من تفرق كلمة ذلك الحاكم الضعيف؛ لأنه متنازع الرأي؛ فإن عليهم أن يقدموا رجلًا مِن أهل النجدةٍ والشجاعة، والسياسة في الحرب، يقاتل بهم عدوهم لزمنٍ معين؛ كأشهرٍ معدودة أو سنين معدودة، فتلزم طاعته وحقوقه، كما تلزم للإمام المطلق.

**نشاط:**

إنْ أردت المزيد حول هذه الجزئية فراجِع كتاب (النور الوقاد على علم الجهاد) أو(النور الوقاد على الرشاد) للشيخ محمد بن سالم الرقيشي.

وبهذا يتحد المسلمون على رجل قائد من أهل النجدة والشجاعة؛ لأن الظرف يقتضي أن يكون الرجل عنده شجاعة وحزم وسياسة في الحرب ودهاء، ويجيد القتال والمناورة والكر والفر، ويعرف متى يداهن ومتى يضرب؛ فهذا القائد هو الذي يُنتَخَب في تلك الفترة، ويكون لفترة محددة، يقال له: ننتخبك إمامًا، ونسميك إمام الدفاع ، مثلاً مد ثلاثة أشهر أو حتى ينجلي هذا العدو وينتهي شره.

فالفترة تحدد له سابقًا، ويكون له حق الطاعة كحقِ طاعة الإمام المطلَق، أو ما يسمى إمام الظهور.

فوجوده لحرب طائفةٍ معينة أو لزمنٍ معينٍ فإن زال حرب تلك الطائفة، أو مضت المدة المعينة؛ زالت إمامته بزوالها، ولا يحتاج إلى قَول كسائر العقودات، بمعنى أنه ينتهي تلقائيًا ولا يحتاج أن يقال له: انتهى دورك؛ لأنه باعتبار أنه بمجرد انتهاء الخطر وزوال العدو أو انتهاء المدة التي تم تحديدها ينتهي دوره.

- **تجديد الإمامة له:**

يجوز للمسلمين التجديد له ولو للإمامة الكبرى، حيث يجوز تحويله من إمام دفاع إلى إمام ظهور، فيصبح إمامًا دائمًا، وليس إمامًا مؤقتًا، أي ليست حكومة مؤقتة كما هو في مصطلح الحديث.

**نشاط:**

**اطلب من أستاذ الفصول الافتراضية أن يسلط الضوء على مصطلح "حكومة مؤقتة" أو"حكومة انتقالية" كما وردت في الدرس.**

فإذن هذا المسلك كان موجودًا لدى الإباضية، وكانوا يتعاملون مع الواقع بمثل هذه الأمور، إن كان الظرف يقتضي وجود فلان؛ فإذن بمجرد انتهاء الظرف ينتهي دوره؛ لأنه قد لا يكون مثلًا فقيهًا لكن عنده قدرات سياسية قدرات حربية، والوضع اقتضى أن يقود المسيرة في ذلك الوقت، أو يقود الدفاع عن الوطن والديار، وهذا اقتضته الضرورة بما يمتلكه من موارد، لكن ربما لا يستطيع في حال السلم أن يمارس دور الإمامة؛ لأنه ليس عنده الفقه الكافي، وليس عنده سعة الصدر، فهو إمام حربي مخصص للظروف الطارئة واجتمع عليه هذا.

لكن إذا رأوا منه فقهًا وحكمة وسياسة، وعدم رغبة في التشبث بهذا المنصب وأنه مستعد للتخلي عنه مثلما أراد المسلمون منه ذلك؛ فعندئذٍ يجوز للمسلمين أن يبقوه في هذا الموقع.

- **الحاجة لهذا الإمام:**

هذا الأمر يُرجع إليه لصدِ عدوانٍ معين، وعلى الجميع في تلك الفترة أن يتعاون مع هذا الإمام، وأن يساعدوه على القضاء على هذا العدو، حيث يعلن حالة الاستنفار الكامل؛ لأنه في حالة الاعتداء على الوطن لا يسع التخلف لأي إنسان قادر على الحرب،

أما الضعفاء والمساكين والنساء والشيوخ والأطفال فمعذورين؛ لكن الإنسان القادر عليه أنه يهب لتخليص وطنه ولصد هذا العدوان القادم عليه، ويصبح هنا الجهاد واجبًا، فهذا نوع من أنواع الجهاد، وهو الدفاع في سبيل الله، وهذا يكون في مرتبة الوجوب، وليس في مرتبة الندب؛ لأنه في حال التخلي ربما سيتسلط العدو الغاشم ويحتل البلد، وتضيع الحرمات والحقوق، وتصبح الديار مستباحة.

- **نماذج من التاريخ:**

باستقراء التاريخ نجد إمامة الإمام ناصر بن مرشد فقد كانت في بدايتها إمامة دفاع، وذلك من أجل صد غزو البرتغاليين، لكن بعد ما استطاع أن يحقق الانتصارات عليهم ويبعدهم عن أرض عمان وبعض دول الخليج؛ صارت إمامته إمامة ظهور، وثبتوه نتيجة أنه أثبت جدارته، وكان كُفئًا لهذه الإمامة، فالمقصود الحفاظ على الوطن والأعراض والممتلكات، وهذا يؤدي إلى أن يكون المجتمع المسلم مجتمعًا آمنًا مستقرًا، وبالتالي تمارس فيه العبادة بكل اطمئنان {فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [النساء:١٠٣].

- **الأصل في الحروب:**

الأصل أن الحروب طارئة، فليست هي الأساس، والأصل هو الاستقرار والأمن والسلام، لكن في الحالات التي يتعرض فيها الوطن لغزو فعندئذٍ لا بد من الاستنفار الجهاد وصد هذا العدوان، والتخلص من العدو الغاشم بكل ما أوتينا من طاقة، وأن نقف خلف قائدٍ أو إمامٍ يكونُ كُفئًا لهذه المهمة، هذا المسلك يسمى مسلك "الدفاع".

إذن نلاحظ أن الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- ليست رتيبة على نوعٍ واحد، وإنما لها ظروف، والرسول ﷺ اضطر لخوض المعارك، والدخول في الحروب من أجل نصرة الدين، فكذلك المسلمون في كل زمانٍ ومكان يتعرضون لشيءٍ من هذا النوع، ففي كل الأحوال تكون الأمور مطَمْئِنة وسليمة مائة بالمائة، ولكن في حالة الاضطرارات لا بد أن

تكون هناك آلية وطريقة وأسلوب ومسلك من مسالك الدين، وطريقة من الطرق التي تؤدي إلى إعزاز الدين ونصرته، وتطبيق الحق، وإقامة الشريعة على أكمل وجه.

## مسلك الظهور

هو آخر المسالك، و أفضلها وأقواها.

- **التعريف اللغوي:**

الظهور في اللغة بمعنى الوضوح والبيان، ظهر الشيءُ ظهورًا يعني تَبَين، وأظهرت الشيءَ بينته، والظهورُ بدو الشيء الخفي، أي كان خفيًّا ثم ظَهَر؛ ويقال: أظهرني الله على ما سُرِق مني؛ أي أطلعني عليه، واستظهر به أي استعان، وظهرت عليه أي أعنته، وظهر عليَّ أي أعانني، كلاهما عن التعاون، وتظاهروا عليه يعني تعاونوا، وفي تنزيل العزيز: {وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ } [التحريم:٤] في قصة أزواج النبي ﷺ حيث ظَاهَر بعضُهم بعضًا يعني أعانه، والتظاهرُ التعاون، وظاهر فلانٌ فلانًا عاونه، والمظاهرة المعاونة، والظهير العون.

- **التعريف الاصطلاحي:**

يُقصَد به الانتصار والتغلب على المعادين، والقدرة على تطبيق الأحكام والحدود الشرعية بكل وضوح وقوة، مع انتفاء حالة الخوف، وتجاوز حالة الضعف.

**انتبه:**

**انتبه: هذا التعريف الاصطلاحي إنما اجتهاد من أستاذ المادة.**

وقد تم أخذ هذا المصطلح من قوله تعالى: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف:١٤] أي منتصرين قاهرين لعدوهم، وكذلك من قول الرسول ﷺ عندما عَرض عليه كفار قريش المُلك، والمال، والرياسة مقابل ترك الدعوة، رد عليهم: «والله إذا وضَعُوا الشَّمس في يميني، والقَمَر في يَسَاري على أن أتْرُك هذا الأمر ما تركته

حتى يظهره الله» أي يعلنه الله، ويبينه ويجعله منتصرًا فوق كل شيء، لذلك فالله تعالى قال: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ } [التوبة: ٣٣] والتعبير القرآني دقيق في هذا؛ ولذلك أخذ الإباضية هذا المصطلح القرآني {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ } وفي الحديث «حتى يظهره الله».

- مسلك الظهور مسبوق بجهد كبير:

مبدأ الظهور يكون بعد جهدٍ جهيد وإعداد كبير، وقد تسبقه مرحلة الكتمان، كما كان الحال في زمن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة حيث كان في فترة الكتمان، وأعد حَمَلَة العلم، وأرسلهم إلى بقاع الأرض دعاة إلى البلدان الأخرى، واستطاعوا أن يقيموا إمامة الظهور.

مثال: عبد الله بن يحيى طالب الحق، فإنه عندما ذهب إلى اليمن كتب إلى أبي عبيدة: إنني قادر على إقامة الحق، فماذا تقول؟ فقال: إن استطعت ألا تتأخر فقُم بالحق، فأقام الإمامة، وصار إمامًا على أهل اليمن.

مثال: الجُلندَى بن مسعود في عمان، وكذلك عبد الرحمن بن رستم وهو جد الإمام أفلح بن عبد الوهاب، فإن هؤلاء أقاموا دولاً وممالك إسلامية صارت دولاً مستقرة، إلا أن اليمن لم تدم طويلًا، أما في بلاد المغرب العربي فإنه استمرت إمامة الظهور ما يقارب مئة وستين سنة.

انتبه:

**ذكر أستاذ المادة في محاضرة الفيديو أن من المؤسسين لإمامة الظهور في المغرب العربي الإمام أفلح بن عبد الوهاب، والحقيقة أنه عبد الرحمن بن رستم وهو جد الإمام أفلح بن عبد الوهاب، كما ذكر أن الإمامة الإباضية استمرت في بلاد المغرب العربي قرابة مئتين وستين سنة، والصواب أنها استمرت قرابة مئة وستين سنة.**

**وهذا التصحيح أشار إليه أستاذ المادة في بداية فيديو المحاضرة ١٧.**

أما عمان فصارت بين مدٍ وجزر، مرةً تقوم ومرةً تختفي، لكن ظهر أئمة كُثر كلهم يسمون "إمامة الظهور" مثل الإمام الجلندَى بن مسعود -رحمه الله- والإمام المُهَنَّا بن جَيفَر اليحمدي، والإمام كعب بن وراث الخروصي، والإمام الصلت بن الخروصي، والإمام راشد بن سعيد اليحمدي، والإمام ناصر بن مرشد، والإمام سيف بن سلطان، وغيرهم من الأئمة الذين تعاقبوا.

- **أعلى المراتب والغايات للدعوة إلى الله:**

الوصول إلى إقامة إمامة الظهور هو أعلى المراتب بالنسبة للدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- لأن فيها قوة وعزة للمسلمين ما فيها ضعف، وفيها إقامة الدولة الإسلامية، وتنفيذ الأحكام الشرعية، وممارسة الشعائر بكل حرية.

فهذا ما يسعى إليه المسلمون، ويحاولون الوصول إليه، وهو أقصى الغايات، وهذا ليس بمستحيل كما يظن البعض، فهو من الغايات التي يُسعَى إليها، وإن تيسرت السبل إلى ذلك، واستطاعوا الوصول إلى هذا الأمر فذلك حسن، والملاحَظ في سيرة كثير من العلماء الدعاة أنهم كانوا يهدفون إلى إقامة إمامة الظهور لأن فيها القوة والعزة والتمكين للمسلمين.

مثال: الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي -رحمه الله- اجتهد حتى استطاع أن يقيم إمامة الظهور للإمام عزان بن قيس البوسعيدي، وكذلك الإمام نور الدين السالمي اجتهد حتى استطاع أن يقيم إمامة الظهور للإمام سالم بن راشد الخروصي، ثم من بعده الإمام محمد بن عبد الله الخليلي.

- مسالك الدين والواقع الحديث:

هذه اجتهادات، وكل زمان له أحكامه وظروفه، وفي العصر الحديث على كل الدعاة أن يسلكوا هذه المسالك للدين حسب الظروف والأحوال التي يعيشونها، فكل داعية في كل زمان وكل مكان يختار المسلك الذي يناسب عصره، ويستقرئ الواقع الذي حوله، وربما تلك المسالك -حسب الظروف- لا يكون فيها فواصل بينها، فمثلًا قد نجد أحيانًا إمام الشراء وإمام الدفاع متقاربين ومن الصعب الفصل بينهما، أو قد يكون إمام دفاع وشراء في نفس الوقت، وقد يتحول بعد الدفاع والشراء إلى ظهور، فالواقع هو الذي يجعل الدعاة يتغيرون من حيث أساليبهم وطرقهم.

والعصر الحديث أصبح يحتاج أسلوبًا جديدًا في الدعوة، وينبغي فيه استقراء الواقع؛ فنحن الآن نعيش -والحمد لله- في وضع مطمئن، ونستطيع أن نمارس الشعائر التعبدية بكل حرية، وأن نقوم بدور الدعوة إلى الله بكل حرية.

فهو عصر شبيه بالظهور، وإن لم تكتمل فيه مواصفات الظهور بشكل كامل؛ لكن هو قريب؛ لأنه ليست هناك قيود كبيرة على الدعوة.

- دور الدعاة في هذا العصر:

ينبغي أن تكون وسائل الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- متجددة، وأن تكون لها أسس تؤخذ من سيرة الرسول ﷺ ومن سيرة العلماء والدعاة، فهذا العصر به أساليب جديدة في الدعوة، فمثلًا هذا "التعليم عن بُعد" حيث يوجد الإنترنت، ولم يكن موجودًا في السابق، وكذلك وسائل التواصل الاجتماعي، وهي وسائل كثيرة للدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- أيضًا وسائل الانتقال بين دولة وأخرى أصبحت من الأمور السهلة، وإنشاء الجامعات والكليات، ونشر الكتب، ووسائل الإعلام الحديثة كالقنوات

الفضائية، فهذه في مجموعها تساعد على نشر الدعوة وإقامة المجتمع المسلم؛ والقضاء على مظاهر الفساد، وعلاج الأفراد بعودتهم إلى دين الله.

ولا بد من مكافحة الظواهر الإفسادية بالأساليب الحديثة، بحيث يتم سد الفراغات وإحلال الخير محل الشر، وتلك الأساليب كثيرة، وعلى الدعاء أن يجتهدوا لسدها.

هناك فرصة للدعاة في العصر الحديث خاصةً أهل العلم وأهل الفكر بأن يضعوا خطوطًا جديدة يستطيع الداعية في العصر الحديث أن ينهجها ويسلكها حتى لا يعيش بعيدًا عن عصره، أو بعيدًا عن واقعه، وحتى يستطيع الإصلاح بالحكمة وبالموعظةِ الحسنة وبالأسلوب الناجح، ويبتكر من الأساليب ما يحقق الوصول إلى الغاية، والأخذ بمعطيات العصر أمرٌ لا بد منه، ويساعد على الوصول إلى الغايات.

فالدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- أبوابها كثيرة، ومجالها واسع، فينبغي على جميع الذين يرغبون في مجال الدعوة أن يبتكروا من الأساليب بما لا يعارض ولا يخالف أوامر الدين، وفي نفس الوقت يستعينون بما درسوه من سيرة الرسول ﷺ وسيرة العلماء والدعاة السابقين.

وأيضًا عليهم الاستفادة من التجارب المعاصرة، ففي العصر الحديث كثير من الجماعات الإسلامية حاولت الدعوة ولها تجارب لا بد من أن يستفاد منها، لكن علينا أن نبتعد عن مسالك التطرف والبعد عن المسلك الوسط؛ لأن الدعوة إلى الله تحتاج إلى مسالك وسطية، بحيث لا يكون ضررها أشد من نفعها، فلا يُستَخدم أسلوب القتل والتفجير وإزهاق أرواح الأبرياء والمساكين ثم يُقال: هذا دعوة في سبيل الله!!

- **أثر بعض الجماعات الإسلامية في تشويه الإسلام:**

هناك جماعات ترفع شعارات إسلامية ولكن في حقيقتها هي بعيدة عن الإسلام، إما أن تكون ناتجة عن جهل وعدم فقه في الدين، حيث يأخذون ببعض الأقوال التي فيها

نوع من التطرف والشدة، وإما أن تكون بتوجيه مؤامرات خارجية -والعياذ بالله- مقصودة لتشويه صورة الإسلام.

ولذلك نجد اليوم صورة الإسلام في الغرب صورة مشوهة، والنظرة إلى المسلم الملتزم على أنه إرهابي أو قاتل أو سفاك للدماء، أو يحب قتل الأبرياء، هذه نتيجة الأخطاء التي وقعت فيها بعض الجماعات الإسلامية، والتي لا تتورع في حقيقة الأمر عن سفك الدماء، وسفك الدماء هذا من الموبقات، فالله سبحانه وتعالى حرم قتل النفس بغير حق، يقول تعالى: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: ٩٣] فهذا من الأمور المحرمة، ولكن من العجيب أن بعض الجماعات الإسلامية تفعله وترتكبه بلا مبالاة، حيث تقتل أعدادًا كبيرة بدعوى أن هذا لنصرة الإسلام!! بل هذا ضد الإسلام في حقيقة الأمر، وعلينا أن نتجنب قتل الناس، أو نسلب حقوقهم بغير وجه حق، وعلينا أن ندعو إلى الله -سبحانه وتعالى- بالحكمة والموعظة الحسنة والأسلوب الذي يرضي الله -عز وجل- وليس يغضبه -سبحانه وتعالى- حتى لا نقع في المحظور، وبدل أن نسعى إلى رضا الله نقع في غضبه والعياذ بالله.

والعلاج في كل هذا هو التفقه في الدين، ومعرفة كيف ندعو إلى الله -عز وجل- بالحكمة والموعظة الحسنة، وكلما كان هناك علماء وفقهاء ومفكرون ومخلصون وورعون في نفس الوقت في مجال الدعوة إلى الله كان انعكاس هذا الأمر على الدعوة أفضل.

فأحيانًا يوجد الفقيه ولكن لا يوجد المفكر الفقيه، وأحيانًا يلتزم الفقيه بالنصوص التزامًا حرفيًّا بعيدًا عن الواقع؛ ولكن يُفترض فيه أن يكون عنده مِن بعد النظر ما يساعده على التعامل مع كل واقع بما يناسبه.

الواقع الذي يعيشه الإنسان يتسبب في اختلاف الحكم، ومثال على ذلك "الصلاة"ففي حالة الاطمئنان تُصَلى تامة، وفي السفر تُصلى قصرًا، وفي الخوف تصلى {فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا } [النساء: ٢٣٩] وقد تُقصر الصلاة إلى ركعة واحدة، فلكل واقع ما يناسبه، أما الالتزام بحالة واحدة لكل الظروف فإنه دليل على عدم الوعي أو الفقه.

- **خاتمة:**

بهذا نكون قد انتهينا من مسالك الدين الأربعة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

وذلك ما لم تكن معركة بين المسلمين وأهل الكفر (المشركين) فتلك لها أحكام خاصة لأن هذه تدخل تحت مسمى الغنائم.

انتبه:

هناك أحكام كثيرة مفصلة في هذا المجال يمكن الرجوع إليها في كتب الفقه مثل كتاب المصنف للشيخ أحمد بن عبد الله أبو بكر الكندي وكتاب: «بيان الشرع».

كما قالوا أن من ضمن أحكام مسلك الشراء، أن وطن الشاري يكون حيث غرس رحمه أو سلاحه، لأن الشاري ليس له وطن يستقر فيه فيصبح وطنه حيث غرس رحمه أينما حل في أي مكان يصبح ذلك وطنه.

ووطنه الأصلي يصلي فيه قصرًا لأنه خرج في سبيل الله بايع نفسه لله، ويصبح وطنه أينما وقف واستقر في أي مكان، ويجوز له الرجوع عن الشراء إذا نقص عدد (الشراة) عن ثلاثة، فيجوز لهم الرجوع متى شاءوا، كما يجوز لهم الرجوع حسبما يتفقوا.

تعقيب:

نلاحظ مما سبق أن مسلك الكتمان يكون في مرحلة الصعوبة، ولكن في أحيانًا أخرى قد يكون العدو أو الظالم أو الباغي متسلطً يعمل على منع العمل الدعوي بكل أشكاله،بل ويقتل الأبرياء ويسلب الحقوق فهنا يجوز لهذه الفئة (الشراة) أن ترفع هذا الظلم والفساد من على المسلمين بشرط أن يكون ذلك بخطوات مدروسة، وهذا هو الذي ينبغي أن يفقهه المسلمون في كل زمانٍ ومكان.

- خاتمة:

بعد أن شرحنا مسلكين من مسالك الدعوة أو (مسالك الدين) نكتفي بهذا القدر ونكمل إن شاء الله بقية المسالك في الدروس القادمة.

* * *

# من انجازات الاباضية في مسيرتهم الدعوية

## مقدمة الدرس

نتناول في هذا الدرس بمشيئة الله ما حققته الدعوة الإباضية عبر التاريخ، ولا شك أن تلك الجهود الكبيرة التي بذلها علماء الإباضية متواصلة منذ نشأتهم وإلى يومنا هذا، وسوف يستمرون بإذن الله تعالى في الدعوة والعطاء والتعليم والتثقيف ونشر العلم والحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولن تتوقف عند حَدٍّ معين، وليس من السهل أن نحصي ما تم إنجازه عبر التاريخ، فهذا باب كبير وأمر واسع، ويحتاج إلى بحوث ومجلدات في حقيقة الأمر.

ولا شك أن الله سبحانه وتعالى قد أحصى ما عمل أولئك العلماء، وبارك في جهودهم، وأثَّرَت جهودهم في الأجيال المتعاقبة؛ مما أوجد مدرسة فكرية إسلامية ناصعة على مدى التاريخ، تستند إلى القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة وإلى ما أجمع عليه المسلمون وإلى القياس... وغير ذلك من الأصول التي يُرجع إليها في استقاء العقيدة والأحكام والآداب والشرائع.

يقول الدكتور حسين غباش: (ليست الإباضية فرقة بالمعنى الضيق للكلمة، بل هي بالأحرى مدرسة فكرية تستند إلى خمسة مصادر تشريعية (القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية، والإجماع، والقياس، والاستدلال)، فهذه هي المصادر الرئيسية للتشريع عند الإباضية، ولذلك يُعتَبر مذهبهم مذهبًا إسلاميًّا ناصعًا، وليس فيه خروج عن مبادئ الإسلام، وليس فيه غلوٌّ – كما يذكر بعض المغرضين–، وهو منهج معتدل يستند في جميع ما يصدر منه على ما ورد في كتاب الله سبحانه وتعالى وما ورد في سُنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما أجمع عليه الصحابة والتابعون، وما أجمعت عليه الأمة باتفاق، وغير ذلك من مصادر التشريع كالقياس والاستحسان والاستصحاب وغير ذلك مما يُرجع إليه، ويُعتمد عليه في استنباط الأحكام الفقهية.

فعندما نتأمل المراحل المتعاقبة من الدعوة عند الإباضية نكتشف أن هناك إنجازات كبيرة تحققت على عدة مستويات، ومن تلك الإنجازات:



## أولًا: مِن إنجازات الإباضية في الفكر

عمل الإباضية على نشر الفكر الإسلامي الناصع النقي البعيد عن الغلو والتطرف والتحيُّز، وقد تمثل ذلك في:

١ – البعد عن الغلو:

إن مذهب الإباضية بعيد عن الغلوِّ، فلم يسلك الإباضية مسلك الخوارج الذين كانوا يكفِّرُون المسلمين كما يُروى عنهم، وأنهم يستحلون دماءهم، ويصدرون عليهم أحكامًا بالشرك، ولا يجيزون التصاهر معهم ولا التوارث، فالإباضية في هذا الجانب معتدلون، حيث يرون الأمة الإسلامية –وإن اختلفت مذاهبهم– أُمة واحدة، وأن هذه الأُمة ينبغي أن توحدها كلمة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، وبالتالي فيجوز التصاهر والتوارث والدفن في مقابر المسلمين والصلاة معهم... وغير ذلك، فهذه الجوانب بعيدة تمامًا عن الغلوِّ الذي سلكته بعض الطوائف.

٢ – البعد عن الظلم والجور والاستبداد:

إن الإباضية بعيدون عن منهجية الظلم والجبر والاستبداد، فمنذ بداية مذهبهم يحاربون هذا المسلك، خاصة عندما استولى بنو أُميَّة على الحكم، وأبعدوا الصحابة والتابعين والصالحين من هذه الأمة، وحَكَّمُوا السيف في الناس وقهروهم بالقوة وقتلوا كثيرًا من الصحابة والتابعين، وجعلوا المُلك متوارثًا فيما بينهم.

فمنهج الإباضية بعيد تمامًا عن هذا المنهج، بل هو منهج يقوم على العدل والمساواة وإقامة المنهج الإسلامي الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، فهذا الفكر تربَّى عليه الإباضية منذ بدايتهم وتعلموه فيما بينهم، وعلَّموه أتباعهم؛ ولذلك كان أبو عُبيدة مسلم بن أبي كريمة، ومِن قَبلِهِ الإمام جابر بن زيد يتخذون هذا المنهج الوسط في التربية وإعداد طلبة العلم ليقوموا بنشر هذا الفكر الناصع البعيد عن العصبية، سواء كانت عصبية

قَبَلية أو عصبية مذهبية أو عصبية الحكم أو غير ذلك، والبعيد أيضًا عن الغلوِّ والتطرف، وإنما هو منهج معتدل يتساوى فيه جميع المسلمين، وهذا جعل له القبول، وبالتالي أقدم كثير من طلبة العلم إلى الإمام أبي عبيدة فرَبَّاهم في تلك الفترة، وسلك بهم مسلكًا معتدلًا، ثم بثهم في بقاع الأرض فانتشروا في اليمن وفي عُمان وفي المغرب العربي وفي شمال إفريقيا وفي خُراسان وفي بلاد فارس... إلى غير ذلك، ولاقت هذه الأفكار المعتدلة قبولًا وانتشارًا من خلال ما سُمي بـ (حَمَلَة العلم)، أي: حملة العلم إلى عُمان وإلى اليمن وإلى المغرب العربي، وبذلوا ما في وسعهم، وبذلوا الغالي والنفيس من أجل نشر هذه المبادئ، وهي مبادئ الإسلام وليست مبادئ أفراد أو مبادئ طائفة، وإنما هي كلها مبادئ مستقاة من الكتاب العزيز ومِن سُنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا الفكر هو الذي بقي إلى يومنا هذا، وما زال الإباضية يعتبرونه فكرًا ناصعًا نقيًّا بعيدًا عن الغلو، وبعيدًا عن الخرافات والروايات الضعيفة أو الإسرائيلية التي يعتمد عليها بعض علماء المذاهب الأخرى، فالمنهج عند الإباضية هو التمحيص والتدقيق، وبالتالي فقيام العقيدة والسلوك مبني على الأدلة الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

**ثانيًا: مِن إنجازات الإباضية في تطبيق المنهج**

الإنجاز الثاني هو تطبيق هذا المنهج على أرض الواقع، ولم يكن هذا المنهج مجرد نظريات، وإنما تبعه بعد ذلك التطبيق العملي، ومما يدل على ذلك:

١- قيام الإمامة الإباضية على أساس الشريعة الإسلامية:

تبع المنهج التطبيقي المنهج النظري عند الإباضية مِن خلال قيام دول إسلامية قائمة على الشريعة الإسلامية، وعلى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام والخلفاء الراشدون مِن بعده، وهذا التطبيق العملي كان موجودًا في اليمن بزعامة عبد الله بن يحيى طالب الحق حيث استطاع أن يستولي على اليمن، ووصل قائده أبو حمزة الشاري إلى مكة والمدينة ودخلت الحجاز في دولته.

وكذلك في دولة الإمام الجلندى بن مسعود في عُمان، وكذلك في دول المغرب العربي -كما تطرقنا إلى ذلك- في زمن أبي الخطاب المعافري، ومن بعده عبد الرحمن بن رستم في الدولة الرستمية، حيث ظلت الدولة ما يقارب مائة وستين سنة، وهذه الدول اعتمدت الشريعة الإسلامية والعدالة والمساواة بين الناس، وعدم تميُّز الإمام عن سائر الرعية، واعتمدت أيضًا الشورى وطبقتها، وظلت الإمامة في عمان واقعًا ملموسًا قرابة اثني عشرًا قرنًا، وهي تتعاقب دولة بعد دولة، وقد يحدث غياب لدولة الإمامة، لكن في غالب الأمر لا تستمر، وتعود دولة الإمامة مرة أخرى؛ ولذلك لمس الناس عدالة الإسلام في ظل الدول الإسلامية التي قامت على منهج الإباضية.

فالإباضية منهجهم ليس جديدًا ودعوتهم ليست جديدة كما هو مُشاهد في العصر الحديث، فهناك حركات إسلامية تعمل على قيام دول إسلامية ولم تستطع، أما الإباضية فقد استمروا منذ القرن الثاني للهجرة في هذا المنهج، واستطاعوا إقامة هذه الدول على العدل وطبقوا مبادئهم وأفكارهم ونظرياتهم الإسلامية على أرض الواقع.

وقد شهد بذلك كثير من العلماء غير الإباضية، ومنهم الدكتور حسين غباش في كتابه (عُمان والديمقراطية الإسلامية)، ومهدي طالب هاشم في كتابه عن الحركة الإباضية، وكذلك الدكتور عوض خليفات في (نشأة الحركة الإباضية).

**٢- وضوح الرؤية في تنصيب الأئمة:**

نجد في كتب الفقه ما يشبه الدستور في تعيين الأئمة وانتخابهم عند الإباضية، وكيف يحكمون، وكيف يمارسون الحكم، في الوقت الذي لا تجد هذه الثروة العلمية والفكرية في بعض المذاهب الأخرى، فتجد في كتب المذهب الإباضية الفكرية القديمة ما يشبه الدستور في العصر الحاضر، وهو يحدد واجبات الإمام ويحدد حقوقه ويحدد صلاحياته وكيف يُعين القضاة وكيف يُعين الولاة... ومَن أراد أن يستزيد فلينظر إلى الكتاب المصنف لأبي بكر الجندي، يجد

في ذلك تفصيلًا كبيرًا، ويستطيع الباحث في العصر الحديث أن يقرأه بتمعن، ويستنتج منه ما يشبه الدستور في العصر الحاضر.

٣- إقامة مبدأ الشورى:

مِن أهم الإنجازات التي حققها الإباضية في مسيرتهم التاريخية ودعوتهم وعملهم في مجال الدعوة والإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو: إقامة مبدأ الشورى في حكمهم، فمبدأ الشورى قائم على أن يكون الإمام منتخبًا من قِبَلِ أهل الحل والعقد (العلماء)، وأن يكون هذا الإمام عالمًا تقيًّا صالحًا قدوةً شجاعًا، ليس به ما يقدح في سيرته ويؤثر في ممارسته لعمله سواء من عيوب الخَلْقِية أو الخُلقية، وأن ينتخب انتخابًا حُرًّا، بحيث لا يكون في انتخابه قرابات أو وراثة أو غير ذلك؛ لذلك نجد الأئمة الذين يتعاقبون في غالبهم ليسوا من أسرة واحدة، وتجد الإمام له أبناء لكن لا يرثونه في الإمامة، وكذلك الإمام في ممارسته للحكم يستشير العلماء وأهل الرأي، وأهل الحل والعقد، فيستشير العلماء فيما يتخذه من قرارات ولا يستبد برأيه، ويمكن للعلماء إذا رأوا تقصيرًا من هذا الإمام أن يعزلوه، وقد حصل بأن عزلوا بعض الأئمة وعيَّنُوا بدله.

وكان العلماء السابقون يفرون من منصب الإمامة، ولا يسعون إليه لما يترتب عليه من مسؤولية، لكن إن وُضِع أحدهم في منصب الإمامة فإنه يكون ملزَمًا باستشارة العلماء؛ لذلك نجد الدكتور حسين غباش يقول عن الإباضية: (يستند نظام الإمامة في إدارة أمور الدولة والمجتمع إلى مبدأ الشورى الذي يؤلِّف قانونًا ثابتًا إلزاميًّا، وهذا المبدأ مبدأ العدل والمساواة الذي يمثل روح السلطة السياسية في الإسلام يرمي أساسًا إلى توحيد الأمة وتوحيد المجتمع من خلال المشاركة الفعلية للمواطنين كما يهدف إلى تحقيق مبدأ الإجماع). فالقرار يُتَّخذ بمشورة وإجماع وليس قرارًا فرديًّا، فليس هناك استبداد في الحكم عند الإباضية.

ويقول كذلك: (لقد دخلت الديمقراطية إلى عُمان مع مذهب الإباضية أي مع الدين، وهذا الشكل من الديمقراطية الأول من نوعه في العالم).

**انتبه:**

مفهوم الديمقراطية في العصر الحديث يختلف عن مفهوم الديمقراطية الإسلامية، إذ إن هناك فرقًا بين الديمقراطية الغربية المطبقة والديمقراطية الإسلامية القائمة على مبدأ الشورى.

فالإمامة عند الإباضية فيها انتخاب حر، وليس هناك وراثة ولا إجبار ولا استبداد، وهذا المبدأ كان عند الإباضية منذ القدم وليس جديدًا، ولذلك يظن البعض أن التجربة الديمقراطية في عُمان حديثة، لكن في حقيقة الأمر أن التجربة الديمقراطية الإسلامية قديمة جدًّا؛ ولذلك يقول: (يعتبر الأول من نوعه في العالم تجسد في نظام الإمامة الدستوري المعتدل والقادر بفضل دستوره على ضمان استمرار الديمقراطية، كما أن هذا الشكل من الديمقراطية ضمن بدوره استمرار الإمامة خلال مدة تزيد على اثني عشر قرنًا)، ولم تخلُ هذه المدة من انقطاع وغياب لدولة الإمامة –كما سبق–.

إن مبدأ الشورى والديمقراطية الإسلامية –إن صح التعبير– كان معمولًا به عند الإباضية، ومطبَّقًا على أرض الواقع وليس مجرد نظريات، ولذلك فالإمام ليس مستبدًّا وليس حرًّا فيما يفعله، وإنما لا بد أن يرجع إلى هيئة العلماء (أهل الرأي والمشورة) في اتخاذ القرارات.

## ثالثًا: مِن إنجازات الإباضية في نشر الإسلام

مِن أهمِّ الإنجازات التي استطاعت الدعوة الإباضية تحقيقها هو: نشر الإسلام في أرجاء المعمورة، فالإباضية في حقيقة الأمر ما احتكروا الإسلام لأنفسهم، بل قاموا بجهود كبيرة، منها:

### ١ – نشر الإسلام في أفريقيا:

استطاع الإباضية نشر الإسلام في أفريقيا من خلال العلماء الإباضية في شمال إفريقيا توجهوا إلى أوساط إفريقيا، وكذلك توجه علماء الإباضية إلى شرق إفريقيا فنشروا الإسلام في

مالي وفي بعض مناطق السودان، وكذلك نشروا الإسلام في شرق إفريقيا وتوغلوا في أدغالها، وكان لهم قدم السبق في نشر الإسلام في تلك الديار.

وقد قَلَّ هذا الدور فيما بعد، وتحول كثير من الإباضية إلى مذاهب أخرى، لكن الأهم أنهم قاموا بإخراج الناس من ملة الكفر إلى ملة الإسلام، وأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

٢- نشر الإسلام في آسيا:

أ- نشر الإسلام في الصين:

قام الإباضية بنشر الإسلام في الصين، وأول مَن قام بذلك هو عبد الله بن قاسم، الملقب بأبي عبيد الصغير، حيث كان يقوم بنشر الإسلام في القرن الثاني الهجري عن طريق التجارة، وعن طريق أخلاقه الطيبة، حتى إن الإمبراطور الصيني كرمه وقَدَّرَه، وكان يهديه الكثير من الهدايا، فنشر الإسلام في تلك الأماكن وأعجبوا بسيرته وسيرة المسلمين الذين معه وما قاموا به من دور.

ب- نشر الإسلام في الهند وإندونيسيا وماليزيا:

استطاع الإباضية نشر الإسلام في الهند وإندونيسيا وماليزيا، وكان لهم قدم السبق في ذلك، وهي جهود لم تسجل بشكل كبير ولم تؤرخ بصورة كبيرة، ولكن ما زالت بعض الآثار التي تدل على جهودهم ودورهم في نشر الإسلام في بقاع الأرض موجودة.

☯ نشاط (١):

بالرجوع إلى مادة تاريخ عمان، اكتب ثلاثة من أعلام الإباضية الذين كان لهم دور في نشر الإسلام في جنوب شرق آسيا، موضحًا كيفية الاستفادة من تلك النماذج في العصر الحاضر.

رابعًا: مِن إنجازات الإباضية في مقاومة الاحتلال

١ - مقاومة الحملات الصليبية:

من جهود الإباضية في مقاومة الاحتلال الأجنبي عبر التاريخ: صد الحملات الصليبية على الإسلام، فقد تعرضت بلاد المسلمين والبلاد التي يقطنها الإباضية إلى حروب صليبية، ومنها حملات البرتغاليين على عُمان في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وكانت عمان في تلك الفترة تحت حكم النباهنة، وحكمهم لم يكن يقوم على نظام الإمامة، فنظام الإمامة لم يكن مستمرًّا على وتيرة واحدة –كما مَرَّ–، فالنباهنة لم يلتزموا بالمنهج الإسلامي الإباضي الذي نَصَّ عليه العلماء في كتبهم، فكانوا يحكمون بالوراثة، وهذا ما انتقده عليهم الإباضية، وثاروا عليهم في آخر الأمر، واستطاعوا أن يرجعوا الحكم إلى الأئمة، وكان أول مَن قام بذلك هو الإمام ناصر بن مرشد اليعربي، وبجهود بذلها من قبله الشيخ خميس الشقصي وهو الذي رباه وأعده، واستطاعوا أن يوحدوا العمانيين تحت راية واحدة، واستطاعوا أن يقاوموا الغزو الصليبي البرتغالي على عمان، وكان البرتغاليون قد استولوا على بعض الولايات الساحلية في عمان مثل صحار ومسقط، ولكن العمانيين بقيادة علمائهم وأئمتهم استطاعوا تحرير كل المناطق التي استولى عليها البرتغاليون، وطردوهم وأخرجوهم من الخليج العربي وحتى شواطئ الهند وتتبعوهم إلى شرق إفريقيا حتى خلصوا البلاد والعباد منهم.

وكذلك استطاع الإباضيون الموجودون في جزيرة كلباء مقاومة العدوان الإسباني الذي كان يغزوهم، وتكاتفوا مع العثمانيين، وصدوا الهجوم الإسباني على بلادهم وحرروها، وكان هذا بقيادة وزعامة العلماء الإباضيين في ذلك الزمان.

٢ - المشاركة في تحرير المغرب العربي:

شارك الإباضية في تحرير الجزائر من الفرنسيين وحصولها على الاستقلال، وكان من شعراء الثورة الجزائرية مفدي زكريا، وهو من الإباضية.

وكذلك شارك الإباضيون في تحرير ليبيا من الإيطاليين، وكان مِن أكبر زعماء الإباضيين المشاركين في هذه الثورة الشيخ سليمان الباروني، حتى إنه كان أسبق من الشيخ عمر المختار الذي لا يُنكَر جهاده، ولكن الشيخ عمر المختار يُعتَبر من آثار جهود الشيخ سليمان الباروني، حيث كان الشيخ الباروني هو المؤسس والداعي إلى مقاومة الطغيان وإخراج المحتلين من ليبيا، واستطاعوا بعد ذلك الحصول على الاستقلال.

خامسًا: من أعلام المذهب الإباضي:

١ – مِن أعلام الإباضية في العلم الشرعي:

تكوَّنت نخبة من العلماء على مر الحقب كانوا من آثار تربية وإعداد العلماء الذين سبقوهم وتخرجوا على أيديهم، واستطاعوا أن يحملوا مشعل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، واستطاعوا أن يكونوا أئمة وهُداة إلى الحق وإلى البر وإلى الصلاح وإلى التقوى؛ ولذلك نجد أن هذه الفئة الكبيرة المتعاقبة من العلماء ينبغي أن تدرس وأن تُعطَى حقها؛ لما لها من جهد كبير، ومِن أهم هؤلاء العلماء: الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه، والشيخ أبو نوح صالح الدهان، والشيخ أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي أعد طلبة العلم ونشرهم إلى أصقاع المعمورة، والإمام الربيع بن حبيب صاحب (المسند الصحيح)، هذا الرجل الذي حفظ لنا سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، والشيخ أبو غانم الخراساني صاحب كتاب (المدونة)، وهذا الكتاب فيه من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الكثير لقربه من عصر التابعين، واستطاع أن يسجل الكثير من أقوال الأئمة كأبي عبيدة والإمام جابر وغيرهم ممن استقوا من الصحابة رضي الله عنهم.

وهناك الكثير من العلماء منهم: المحبوب بن الرحيل، وابنه محمد بن محبوب، والشيخ أبو بكر الكندي صاحب كتاب المصنف، والشيخ محمد بن إبراهيم الكندي صاحب كتاب (بيان الشرع)، وهو في سبعين مجلدًا، والشيخ خميس الشقصي صاحب كتاب (منهاج الطالبين) في خمسة عشر مجلدًا، والشيخ جاعد بن خميس الخروصي والشيخ سعيد خلفان الخليلي المحقق الكبير صاحب كتاب (تنمية قواعد الإيمان)، والشيخ صالح بن علي الحارثي، والشيخ نور

الدين السالمي الموسوعة الكبير صاحب المنهج الإصلاح والدعوة والتربية، وفي عصرنا الحاضر سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، والشيخ سعيد بن مبروك القنوبي، والشيخ محمد الغاربي، كل هؤلاء وغيرهم الكثير لا يتسع المجال لذكرهم.

بالإضافة إلى علمائنا في شمال إفريقيا ومنهم: الشيخ محمد بن يوسف أطفيش قطب الأئمة، والشيخ إبراهيم بيومي، فهؤلاء من العلماء الكبار، وكذلك مَن سبقهم كالشيخ عامر الشماخي صاحب كتاب (الإيضاح)، والشيخ أبو يعقوب الوارجلاني صاحب كتاب (العدل والإنصاف)، والشيخ الدرجيني صاحب كتاب (طبقات المشايخ)، وغيرهم الكثير ممن يصعب حصرهم.

وكان هؤلاء العلماء الكبار ذوي جهد كبير وذوي دور فعال في العصور المتعاقبة في بلدانهم وأوطانهم وخارج أوطانهم، وهذا من ثمار الدعوة عند الإباضة مما أكسب الأمة الإسلامية علماء نابغين ودعاة هادين مهتدين، وهؤلاء مِن إنجازات هذه الدعوة المباركة.

**نشاط (٢):**

للإباضية تراث علمي وحضاري كبير، بالرجوع إلى مادة تاريخ عمان والحضارة الإسلامية، اكتب ثلاثةً من أعلام الدعوة الإباضية، وأثر مؤلفاتهم في إثراء الحياة العلمية الإسلامية.

**٢- مِن أعلام الإباضية من الأئمة والقادة:**

الأئمة والقادة الذين أخرجتهم هذه الدعوة كثيرون، ومن أهمهم: عبد الله بن يحيى طالب الحق الكندي، أول إمام إباضي في اليمن، كذلك الإمام الجلندى بن مسعود أول إمام إباضي في عُمان، وأبو الخطاب المعافري أول إمام في الشمال الإفريقي في طرابلس، وعبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الذي أسسها على أسس إسلامية، وأفلح بن عبد الوهاب والأئمة من بعدهم كالإمام المهنا بن جيفر، والوارث بن كعب والصلت بن مالك، وغيرهم من الأئمة المتأخرين المتعاقبين من بعدهم كالإمام عزان بن قيس ومن قبله الإمام أحمد بن سعيد ومن بعدهم الإمام سالم بن راشد الخروصي والإمام محمد بن عبد الله الخليلي... هؤلاء الزعماء

والقادة العظام سجل لهم التاريخ الدور الكبير، وهذا ناشئ عن الجهد الكبير الذي بذله العلماء في تربيتهم وإعدادهم، وما قاموا هم به بأنفسهم، مثل ما قام به الإمام ناصر بن مرشد وما قام به الإمام سيف بن سلطان اليعربي، وكيف حرروا البلدان العربية والإسلامية من كيد الصليبيين.

## سادسًا: من التراث العلمي والفكري للإباضية

يُعدُّ التراث العلمي والفكري مِن أهم الإنجازات التي تركها علماء الإباضية، فالعلماء الإباضية تركوا علمًا غزيرًا وافرًا كبيرًا، ومن ذلك:

١ - من تراث الإباضية في العلوم الشرعية:

كان أول كتاب في هذا المجال ما ألفه الإمام جابر، وهو (ديوان الإمام جابر بن زيد)، وقيل عنه: إنه حمل بعير، وقد ضاع هذا الديوان، وقيل: إنه أُحرق ضمن المكتبة البغدادية التي أحرقها التتار -والله أعلم-، واختفى هذا الديوان الذي كان يضم أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يعاصرونه.

وتتابع بعد ذلك مسند الإمام الربيع، وجامع ابن بركة، وهذا من أهم الجوامع الفقهية، وكذلك جامع البسيوي، وكتاب الإيضاح للشيخ الشماخي، وهذا من الكتب المرجعية التي تستند على الأدلة من القرآن الكريم ومِن السُّنَّة النبوية ومن أخبار الصحابة والتابعين وكبار العلماء.

ومن ذلك التراث أيضًا: كتاب (المصنف) لأبي بكر الكندي في واحد وأربعين مجلدًا، وكتاب (بيان الشرع) في سبعين مجلدًا، وكتاب (قاموس الشريعة) للشيخ السعدي، ويصل إلى تسعين مجلدًا، وقد طُبع في طبعة جديدة فاخرة، وكتاب (شرح النيل) للشيخ قطب الأئمة، وهو مِن أهم الكتب، ويقع في سبعة عشر مجلدًا، وكتاب (معارج الآمال) للشيخ السالمي، وكذلك كتاب (جوهر النظام)، و(شرح مسند الإمام الربيع)... وهذا من أهم الكتب في مجال

الشريعة والعلوم الإسلامية التي تركها الإمام السالمي. وهذه الكتب جميعها ألفها العلماء الإباضيون، وهي من آثار دعوتهم وقيامهم بمجال الدعوة والإصلاح.

٢- من تراث الإباضية في الثروة الأدبية:

الثروة الأدبية التي تركها الإباضية كبيرة، وتُعدُّ من أهم الإنجازات التي حققها الإباضية على مر التاريخ، فهناك أدب نثري وأدب شعري، وهذا الأدب عندما نقرأه ونطلع عليه نكتشف الروح الإسلامية التي تشربها هؤلاء الخطباء أو الشعراء، فكانت خطبهم بليغة جدًّا، وأقوالهم مؤثرة ولها صدى، وهي نابعة عن تشربهم للإيمان وتشربهم للقرآن وحماستهم في الدين ورغبتم في الإصلاح والدعوة، وكانت هذه الأقوال التي تركوها دافعًا للشباب وللدعاة في كل عصر لأن يهبُّوا لنصرة الإسلام، وأن يهبوا للدعوة إلى الله، وأن يهبوا للإصلاح.

وتوجد رسالة دكتوراه قدمها الدكتور محمود السُّليمي عن أدب الإباضية، وهو كتاب قَيِّم جدًّا، ونحن نحاول أن نأخذ نماذج من أدب الإباضية الذي تركوه والذي يستحق أن يدرس اليوم، وهو حقيقةً ما زال يُدرَّس في الجامعات، وإليك بعض تلك النماذج الأدبية:

أ- أمثلة على التراث النثري:

من أجمل تلك النصوص الأدبية التي يمكن الاستشهاد بها على صحة ما قلناه: خطبة أبي حمزة الشاري عندما صعد على منبر الرسول صلى الله عليه وسلم فقال بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه: (تعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرًا ولا بطرًا ولا عبثًا، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأر قديم نِيلَ منا، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت، وضعف القائل بالحق، وقتل القائم بالقسط، ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وسمعنا داعيًا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، فأجبنا داعي الله، ومَن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض. أقبلنا من قبائل شتى، النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم، يتعاورون لحافًا واحدًا، قليلون مستضعفون في الأرض، فآوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا والله بنعمة الله

إخوانًا، ثم لقينا رجالكم بقُدَيْد، فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الغي والرشد).

ثم قال في تلك الخطبة: (يا أهل المدينة، بلغني أنكم تنتقصون أصحابي، قلتم: شباب أحداث، وأعراب جفاة، ويحكم! يا أهل المدينة، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابًا أحداثًا؟! شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أقدامهم، قد باعوا لله أنفسًا تموت بأنفس لا تموت، قد خالطوا كلالهم بكلالهم، وقيام ليلهم بصيام نهارهم، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مروا بآية خوف شهقوا خوفًا من النار، وإذا مروا بآية شوق شهقوا شوقًا إلى الجنة، فلما نظروا إلى السيوف قد انتضيت، وإلى الرماح قد شرعت، وإلى السهام قد فوقت، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت، استخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله، ولم يستخفوا وعيد الله لوعيد الكتيبة، فطوبى لهم وحسن مآب، فكَمْ مِن عينٍ في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله تعالى، وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها في طاعة الله. أقول قولي هذا، وأستغفر الله من تقصيرنا، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب).

وقد روى هذه الخطبة المباركة غيرُ الإباضية في كتبهم، كما في كتاب (الأغاني) للأصفهاني، وكتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه، فهذا دلالة على أهمية مثل هذه الخطب وعلى وقعها في النفوس، وأثرها العظيم؛ فإنهم حفظوها أول ما سمعوها، ونحن لا نجدها في كتب الإباضية ولكننا نجدها في كتب غير الإباضية، وهذا دليل على إعجابهم بها وتسجيلهم لها.

ب- أمثلة على التراث الشعري:

أما الشِّعْر في التراث الإباضي فما أكثره؟! ولا نستطيع أن نحصي ما كتبه الإباضية في أدب الأشعار، لكن نتناول نماذج من شعر أولئك الشعراء والدعاة في نفس الوقت، ومنهم: الشيخ أبو إسحاق الحضرمي، وهو من إباضية حضرموت في القرن الخامس الهجري، يقول في بعض من شعره:

| | | |
|---|---|---|
| أحوال بالأقلام وعظ الأعاند | | ووعظهم بالمرهفات النواضد |
| وعظت سفاهًا قد يرون سفاهة | | عظاتي بالقرآن أو بالقصائد |
| ورمت لهم خفض الجناح تكرمًا | | وما الشر إن لم يلق شرًّا بخامد |
| لأن جرت الأقلام بالحبر حجة | | فمِن بعدها بالبيض ماء القماحد |
| أجود بنفسي دون ديني سماحة | | لأبلغ في العليا منال المجاهد |

ومن أمثلة ذلك أيضًا: ما قاله الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي قصيدته المعروفة بـ(سموط الثناء)، فيقول داعيًا الله سبحانه وتعالى:

| | | |
|---|---|---|
| ومُنَّ علَى عبدٍ دعاك بنظرة | | تجلي على الآفاق شمس سعودِي |
| فتشمل مَن في الأرض حتى أراهم | | إلى الله أنصاري وفيه جنودِي |
| فأحشد في نصر الإله ودينه | | ومَن قام بالدين الحنيف حشودي |
| فأصبح منصورًا مطاعًا مؤيَّدًا | | بفتح وتمكين وجاه سعيد |
| عسى ولعل الله يظهر دينه | | على كل دين لم يكن بسديد |
| فتخضر آمالي وتورق منيتي | | ويثمر في دوحِ المكارم عودي |
| فإنك فَعَّال لما قد تريده | | قدير على ما شئت خير مريد |

ومن أمثلة ذلك أيضًا: ما قاله الشيخ أبي مسلم البهلاني:

| | | |
|---|---|---|
| يا للرجال وداعي الله بينكم | | لَبُّوا الدعاء فإن الصوت قرآن |
| يا للرجال ألَم يأن الجهاد لكم | | بلى لقد فات إبان وإبان |
| يا للرجال أقيموا وزن قسطكم | | فما لكم قبل وزن القسط ميزان |
| يا للرجال احفظوا أوطان ملتكم | | فما لكم بعد خذل الدين أوطان |

إلى آخر الأبيات التي تشتمل على الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وحث الناس على التمسك بهذا الدين والإصلاح في المجتمع.

**انتبه:**

استخدم الأدباء الإباضية (الكُتَّابُ والشعراءُ) الأدب كوسيلة للدعوة إلى الله تعالى، وحَثِّ الناس على التمسك بالدين، وإصلاح المجتمع.

وهناك دور كبير للإباضية في مجال الأدب واللغة، فهناك مؤلفات في اللغة، ولكن لن نتطرق لها بحكم التخصص في هذه المادة، لأننا نتناول ما يناسب مجال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

إن ما استعرضناه خلال هذا الدرس هو أهم ما قام به الإباضية في مسيرتهم الدعوية من إنجازات، والتي يحتاج منا إلى دراسة، ولا شك أن دراسة الشخصيات الدعوية في المذهب الإباضي مهمة جدًّا، واستنباط ما كانوا يقومون به من جهد وعمل يصب فيما قاموا به من جهود دعوية، سواء في العصور المتقدمة أو العصور المتأخرة إلى أن يشاء الله تعالى، وكل ذلك كان بجهد هؤلاء العلماء السابقين.

إن الحديث عن إنجازات الدعوة عند الإباضية واسع جدًّا، وينبغي أن نهتم به، وأن نعطيه حقه من الدراسة، وهذا يحتاج إلى بحث مستقل، ولا يتسع المجال في هذا المنهج إلى أن نتوسع ونبسط الكلام فيه؛ إذ إننا ربما نجد عالمًا واحدًا يحتاج إلى دراسة مستقلة، فلو أخذنا مثالًا واحدًا مثل الشيخ نور الدين السالمي وما قام به من جهد في الدعوة ونشر العلم ونشر الفضيلة ومكافحة الفساد لظهر لنا من ذلك الكثير، فقد كان دوره كبيرًا تمثل -كما يقول الدكتور سالم الرواحي- في ثلاثة أمور:

أولًا: التعليم وإعداد العلماء.

ثانيًا: التأليف والاهتمام بنشر العلم من خلال المؤلفات والتمحيص والتدقيق، فلم يكن يكتفي بما ورثه من علوم السابقين، وإنما كان مجدِّدًا في العلم فألف الكثير من الكتب.

ثالثًا: دوره في إعادة الإمامة في العصر الحديث من خلال تنصيب الإمام سالم بن راشد الخروصي، والإمام محمد بن عبد الله الخليلي، وأقاموا إمامةً على حكم كتاب الله وأقاموا الشريعة في الأرض.

فهذه بعض إنجازات شخص واحد، فما بالكم بإنجازات علماء كثيرين قاموا بدور كبير على مر التاريخ، فهذا يحتاج إلى دراسات وبحوث مستقلة.

- **خاتمة:**

بذلك نكون قد تناولنا في هذا الدرس بعضًا من إنجازات الإباضية في الدعوة إلى الله تعالى، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى طاعته ومرضاته، وأن يوفقنا إلى السير على منهج العلماء الصالحين الدعاة الهادين المهتدين، إنه على كل شيء قدير.

* * *

## تلخيص

عزيزي الدارس الكريم، تناولنا خلال هذا الدرس الحديث في النقاط التالية:

### أولًا: مِن إنجازات الإباضية في الفكر

عمل الإباضية على نشر الفكر الإسلامي الناصع النقي البعيد عن الغلو والتطرف والتحيز، وقد تمثل ذلك في:

١ – البعد عن الغلو:

ـــــ فمذهب الإباضية بعيد عن الغلوِّ، فلم يسلك الإباضية مسلك الخوارج الذين كانوا يكفِّرُون المسلمين بل ابتعد الإباضية عن هذا المنهج تمامًا.

٢ – البعد عن الظلم والجور والاستبداد:

إن الإباضية بعيدون عن منهجية الظلم والجبر والاستبداد، ومنهجهم يقوم على العدل والمساواة وإقامة المنهج الإسلامي الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

### ثانيًا: مِن إنجازات الإباضية في تطبيق المنهج

الإنجاز الثاني هو تطبيق هذا المنهج على أرض الواقع، ولم يكن هذا المنهج مجرد نظريات، وإنما تبعه بعد ذلك التطبيق العملي، ومما يدل على ذلك:

١ – قيام الإمامة الإباضية على أساس الشريعة الإسلامية:

تبع المنهج التطبيقي المنهج النظري عند الإباضية مِن خلال قيام دول إسلامية قائمة على الشريعة الإسلامية، وقد ظهر ذلك خلال الفترات التي كان يتولى فيها الأئمة الإباضية شؤون الأمة، فإنهم كانوا يحكِّمُون الشريعة، ويلتزمون بتطبيقها.

٢ – وضوح الرؤية في تنصيب الأئمة:

حيث تشتمل كتب الفقه الإباضي ما يشبه الدستور في تعيين الأئمة وانتخابهم، وتحديد صلاحيات الإمام وأهل الحل والعقد، ووضع الآلية التي ينبغي أن يتبعها الإمام أثناء حكمه.

٣- إقامة مبدأ الشورى:

حيث عمل الإباضية على تطبيق هذا المبدأ في الحكم والإمامة، وابتعدوا عن التوريث الحكم لأبنائهم وقرابتهم.

**ثالثًا: مِن إنجازات الإباضية في نشر الإسلام**

١- نشر الإسلام في أفريقيا:

استطاع الإباضية نشر الإسلام في أفريقيا من خلال العلماء الإباضية في شمال إفريقيا توجهوا إلى أوساط إفريقيا، وبعض الدول الأفريقية كالسودان ومالي.

٢- نشر الإسلام في آسيا:

أ- نشر الإسلام في الصين:

قام الإباضية بنشر الإسلام في الصين عن طريق التجارة، وعن طريق التمسك بمبادئ الإسلام في المعاملات التجارية مع الصينيين، مما رغبهم في الدخول في الإسلام؛ لما رأوا أخلاق المسلمين العالية.

ب- نشر الإسلام في الهند وإندونيسيا وماليزيا:

استطاع الإباضية نشر الإسلام في الهند وإندونيسيا وماليزيا، وكان لهم قدم السبق في ذلك، وإن كانت هذه الجهود لم تأخذ حقها في التوثيق في كتب التاريخ.

**رابعًا: مِن إنجازات الإباضية في مقاومة الاحتلال**

١- مقاومة الحملات الصليبية:

تصدى العمانيون لحملات البرتغاليين على عُمان في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، فقد تصدى لها العمانيون بكل شجاعة وبسالة وتضحية حتى استقلوا عن الدول الصليبية التي احتلت بلاد المسلمين.

٢ - المشاركة في تحرير المغرب العربي:

شارك الإباضية في تحرير الجزائر من الفرنسيين وحصولها على الاستقلال، وكذلك شاركوا في تحرير ليبيا من الإيطاليين، وكان مِن أكبر زعماء الإباضيين المشاركين في هذه الثورة الشيخ سليمان الباروني، حتى إنه كان أسبق في مقاومة الاحتلال من الشيخ عمر المختار.

## خامسًا: من أعلام المذهب الإباضي

### ١ - مِن أعلام الإباضية في العلم الشرعي:

أعلام المذهب الإباضي في العلوم الشرعية كثيرون جدًّا، ومن أشهرهم: الإمام جابر بن زيد رضي الله عنه، والشيخ أبو نوح صالح الدهان، والشيخ أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة، والشيخ محمد بن إبراهيم الكندي، والشيخ خميس الشقصي، والشيخ محمد بن يوسف أطفيش قطب الأئمة، والشيخ إبراهيم بيومي وغيرهم من العلماء الذين نشروا العلم بين طلابه.

### ٢ - مِن أعلام الإباضية من الأئمة والقادة:

اشتهر كثير من أئمة الإباضية وقادتهم السياسيين الذين علموا على نشر الإسلام والدفاع عنه، وإقامة العدل بين الرعية، ومن هؤلاء الأئمة على سبيل المثال: عبد الله بن يحيى طالب الحق الكندي، والإمام الجلندى بن مسعود، وعبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الذي أسسها على أسس إسلامية، وأفلح بن عبد الوهاب، والإمام سالم بن راشد الخروصي، والإمام محمد بن عبد الله الخليلي.

## سادسًا: من التراث العلمي والفكري للإباضية

يُعدُّ التراث العلمي والفكري مِن أهم الإنجازات التي تركها علماء الإباضية، فالعلماء الإباضية تركوا علمًا غزيرًا وافرًا كبيرًا، ومن ذلك:

### ١ - من تراث الإباضية في العلوم الشرعية:

كان أول كتاب في هذا المجال ما ألفه الإمام جابر، وهو (ديوان الإمام جابر بن زيد)، وجامع ابن بركة، وهذا من أهم الجوامع الفقهية، وكذلك جامع البسيوي، وكتاب (الإيضاح)

للشيخ الشماخي، وكتاب (المصنف) لأبي بكر الكندي في واحد وأربعين مجلدًا، وكتاب (بيان الشرع) في سبعين مجلدًا، وكتاب (قاموس الشريعة) للشيخ السعدي، وغيرها الكثير.

٢- من تراث الإباضية في الثروة الأدبية:

الثروة الأدبية التي تركها الإباضية كبيرة، وتُعدُّ من أهم الإنجازات التي حققها الإباضية على مر التاريخ، وقد استخدموا الأدب (النثر والشعر) كوسيلة للدعوة إلى الله وحث الناس على التمسك بالمبادئ الفاضلة، والأمثلة على ذلك كثيرة مبثوثة في دواوين الشعر وكتب الأدب.

* * *

# عقبات في طريق الدعوة

محتوى الدرس

عزيزي طالب العلم: لا يمكن للدارس الموضوعي أن يفصل نشأة الإباضية ولا منهجهم في الدعوة عن الظروف السياسية التي عرفها المسلمون حكّاما ومحكومين، وكذا الظروف العلمية والإقتصادية وغيرها ولا شك أن هذه الأمور كان لها تأثير كبير على الجانب الدعوي عند الإباضية ويختلف كل جانب من هذه الجوانب في مدى تأثيره على الجانب الدعوي وهذا ما سنبينه في هذا الدرس إن شاء الله تعالى.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، ومن اتبع هداه، وسار على نهجه إلى يوم الدين، أما بعد؛

نواصل في هذه الحلقة موضوعات الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، حسب المنهج عند علماء الإباضية ودعاتهم، ونتحدث عن بعض جوانب القصور في مسيرة الدعوة لدى الإباضية.

**تنبيه**

كل جهد بشري، مهما كان فيه من الجهود الكبيرة التي تبذل، وتحاول الوصول إلى درجة الكمال، هو جهد بشري يلازمه النقص، وإن حاول صاحبه الوصول إلى التمام، فالكمال لله وحده، وجوانب النقص لا تقدح في المنهج، ولا في المسيرة الدعوية لدى علماء ودعاة الإباضية، وكل مجتهد قد يصيب، وقد يخطئ، وهذا لا يؤثر على ما تم إنجازه من أعمال كبيرة في مجال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

## حول منهج الدعوة

أولًا: الإباضية استطاعوا بدعوتهم تكوين دول إسلامية، على منهج النبوة، في عدد من بقاع الأرض؛ في عمان، وفي شمال أفريقيا، وفي اليمن، وشرق أفريقيا، وغيرها من البقع، وهذه

الدول كانت تسير على نفس المنهج النبوي، وتقيم العدل وهو أهم أهداف الدعوة عند الإباضية، وكذلك المساواة واحترام الإنسان والبعد عن الظلم والطغيان، وهذا بحد ذاته إنجاز دعوي كبير.

ثانيًا: الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، تشمل كل جوانب الخير، ومن أهمها إقامة شعائر الدين، وإقامة مبادئه؛ كالعدل، والمساواة، والشورى، وقد تمثلت هذه الأمور في الدول التي أقامها الإباضية في البقاع التي حكموها، واستمروا عليها، وهذه إنجازات كبيرة على مستوى الدعاة في ذلك العصر.

ثالثًا: صاحب الجانب الدعوي بعض أوجه القصور، ومعرفتها ضرورة؛ لتصحيح المسيرة، وتجنب الأخطاء حتى لا تتكرر، ونُصلح ما يمكن إصلاحه، ونتفادى بعض ما يمكن تفاديه، ومن أهم النقاط التي يمكن أن نلاحظها على مسيرة الدعوة عند الإباضية عدة جوانب منها ما يلي:

**الجانب الأول**: الاهتمام بالجانب السياسي أكثر من الاهتمام بالجوانب الأخرى: عندما ندرس السيرة الإباضية في مختلف بقاع المعمورة، نجدهم في السابق بعد أن تؤمن فئة منهم بأهمية الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وإقامة العدل، وإقامة الشورى، والمساواة، وغير ذلك، يندفعون بسرعة إلى تحقيق هذه الأهداف، ويخوضون في معارك شرسة مع الحكومات والسلطات القائمة، هذه المعارك، وهذه الحكومات تكون أقوى منهم بكثير، وبالتالي ينتج عن هذا انهيار الدولة بسرعة، وعدم استطاعة مواصلة مسيرة الدعوة التي كانت عليها في بدايتها، **مثال ذلك**: عندما استطاع طالب الحق، عبد الله بن يحيى، في اليمن، إقامة دولته، كان بإمكانه أن يحتفظ باليمن، ويوطد أركان حكمه فيها، وألا يتوسع بسرعة في السيطرة على الحجاز والشام، وغير ذلك؛ لأنه لم يكن لديه من القوة الكافية، ما يمكنه من تحقيق مثل هذا الطموح الكبير؛ ولكن نواياهم كانت كبيرة، فبعث أبا حمزة الشاري رحمه الله، واستطاع أبو حمزة، مع قلة عدد الذين معه أن يستولي على مكة، وعلى المدينة ،وأن يخطب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، خطبًا بليغة.

الجانب الثاني: غياب القاعدة الشعبية: كان لا يوجد لأبي حمزة، لا في مكة، ولا في المدينة ولا في الشام قاعدة شعبية كبيرة، فاستطاع الجيش الأموي بتأييد من القاطنين في مكة والمدينة، وعدم نصرتهم لأبي حمزة الشاري، فاستطاعوا القضاء على أبي حمزة الشاري، ومن معه من الجنود لقلة عددهم؛ مع أنهم كانوا مستأسدين في الدفاع عن قضيتهم، ولكن الجيش الأموي كان كبيرًا، استطاع أن يقضي على هذه الفئة القليلة، مع أن هذه الفئة استطاعت أن تقيم شعائر الدين، بشكلها الصحيح على ما كانت عليه في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي زمن الخلفاء الراشدين، ولو لبضعة أشهر، فلم يكن لهم قدرة على الاستمرار، ولذلك كانت المعركة الفاصلة بين الطرفين واستشهد فيها أبو حمزة، ومن معه، وبالتالي استطاع الجيش الأموي أن يسترد مكة والمدينة، ثم يتجه لليمن مباشرةً، فيقضي على دولة الإمام طالب الحق؛ ليؤدي بذلك إلى انحصار الإباضية في اليمن، ثم إلى حضرموت، واستمر وجودهم إلى القرن السابع، أو الثامن، ثم بعد ذلك تلاشى وجود الإباضية في اليمن، وقِس على هذا ما حصل في شمال أفريقيا، فكانوا يتوجهون مباشرة إلى إقامة الدول، وحقيقة الأمر أن إقامة الدول أمر ليس بالهين، ويحتاج إلى جيوش، وإلى أتباع كثر، وإلى تهيئة، وتقبل من الناس للدعوة، وهذا الجهد هو الذي بذله في البداية الإمام جابر بن زيد، وأبو عبيدة، وأسسوا عليه البناء الدعوي، بحيث يتكون العلماء والدعاة؛ لنشر الفكر الحق، والصائب، والسوي بين الناس، ومحاولة كسب الأتباع بقدر المستطاع، هذا سيولد قبولًا لدى الناس عندهم، ولكن الفئة القليلة حتى لو وصلت إلى الحكم في فترة ما، ولم تكن لها قاعدة شعبية كبيرة، فسرعان ما تذهب وتنهار، وهذا سيؤدي إلى انعكاس سلبي على الجيل القادم، وبالتالي يظل الأتباع بعد ذلك في انكماش وفي خوف، لتحل فترة الكتمان مرةً ثانية، وهذه الفترة تكون قاسية، فالأضواء مسلطة عليهم، لذلك نجد الشيخ فرحات الجعبيري يقول في تقييمه لدور ثورة الإمام طالب الحق، وأبي حمزة الشاري: كان أولى في رأينا بطالب الحق أن يكتفي باليمن إلى حين، حتى يوطد أركان الإمامة في هذا الطرف البعيد عن مركز الدولة الأموية، التي يستحيل سياسيًا أن تسكت عن هذه الخسارة، لولاية كانت تدر عليها

من الأموال الكثير، ومن الأنصار غير القليل، وتوطيد الإمامة يستلزم ترويج الناس على العدل، وهذا لا يمكن أن يتم بين عشية وضحاها، فكان يفترض عدم الاستعجال، وعدم التركيز على الجانب السياسي، والاهتمام بتربية الناس، ونشر مبادئ العدل، والمساواة، والعلم، والاهتمام، وهذا السقوط لهذه الدولة في نشأتها، أدى إلى ضعف جوانب أخرى.

الجانب الثالث: ضعف الجوانب العلمية، والعسكرية، والاقتصادية، والله سبحانه وتعالى، أشار إلى ضرورة أن يهتم المسلمون بالجانب التعليمي، وبجانب الجهاد، وألا تصب الجهود كلها في الجانب الجهادي، ويترك الجانب التعليمي، وجانب التفقيه وجانب التثقيف، وجانب التوعية، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة:١٢٢]، فتربية جيل من العلماء في كل عصر له أهميته الكبيرة في توجيه المسيرة العلمية، ولا يكفي أن نعتمد على عالم أو عالمين، وبمجرد وفاتهم، أو استشهادهم يعيش الناس في جهل بأمور دينهم، ولا يجدون من يعلمهم، ويفقههم أحكام الدين، فكان لا بد أن نولي الجانب الفكري، والجانب العلمي، والجانب الدعوي، والجانب الاقتصادي أهمية كبيرة؛ فالكثير من الدول التي قامت لم يكن لديها المال، أو الاقتصاد القوي الذي تسير به الدولة، وكان أغلب الأئمة فقراء متقشفين، ولا يوجد في خزانتهم ما يكفي لتسيير شؤون الدولة، فتسيير شؤون الدولة يحتاج إلى المال، وهو ما يقتضي الإعداد الكافي، وعدم التسرع، والمسألة ليست مسألة إقامة إمامة والتوجه إليها، وصب الجهود في هذا الاتجاه، بقدر ما هي مسألة تطبيق، وإعداد، وتوازن بين جميع الجوانب؛ السياسية، والدينية، والعلمية، والفقهية، والجوانب العلمية تشمل جميع الجوانب اللغوية، والعلوم الأخرى التي لها علاقة بجوانب الحياة، وكذلك الجانب الاقتصادي، والجانب العسكري، فلا بد من الإعداد له إعدادًا كافيًا، ومن هنا فالتسرع في إعطاء الجانب السياسي أكثر من الجوانب الأخرى، أدى إلى السقوط، وانعكاس هذا الوقوع على بقية الجوانب الأخرى.

الجانب الرابع: الدخول في معارك غير متكافئة:

العلماء القائمون بالدعوة، يطمحون في حقيقة الأمر إلى رضا الله سبحانه وتعالى، وكانوا مستعدين لتقديم أرواحهم قرابين في سبيل الله سبحانه وتعالى، فهم لا يبخلون بأرواحهم وأنفسهم في سبيل الله، ولكن القضية ليست قضية تضحيات فقط، وإنما ترتيب وتخطيط، فعندما يكون الجيش قليل العدد في مقابل جيش بآلاف مؤلفة، وبأضعاف مضاعفة، فلا يمكن هلاك الجميع، فالله سبحانه وتعالى، لا يكلف نفساً إلا وسعها، وخفف على المؤمنين، وعددهم أقل من النصف: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال-٦٦]، فعندما يكون العدد أقل من النصف، أو الربع أو العشر في مواجهة جيش جرار، فمهما كان الاستبسال، يبقى الفارق الكبير، ونلاحظ أن خالد بن الوليد في معركة مؤتة، عندما رأى جيش الروم سيقضي على جيش المسلمين، لكثرة العدد، عشرات الآلاف، وهم ثلاثة آلاف فكر في الانسحاب، وانسحاب الجيش أحيانًا من المعركة، خير من القضاء عليه تمامًا، ولما عادوا إلى المدينة المنورة، بعض الصحابة سماهم الفرار، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: بل هم الكرار، فلو تم سحق هذا الجيش بكامله، ستكون لهذا صداه على دولة الإسلام، فينبغي أن نأخذ الدروس والعبر في كل زمان ومكان، فهذه أمور ليست هينة، ولا ينبغي الدخول في مواجهات مع جيوش جرارة، ومع سلطات أقوى منك بكثير، وإنما لا بد من اتخاذ الحكمة، وقياس القدرة، وفي حالة عدم القدرة، لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، ولذلك نجد انعكاسًا لهذا التسرع على وجود الإباضية، فأصبحوا محصورين في بلدان محدودة جدًا، حتى الأمراء والحكام والسلطات القائمة، تتوجس منهم خيفة، بينما المذاهب الأخرى، تداهم السلطات، وتحظى بدعم منها، وتنشر ثقافتها وفكرها، مما جعل كثيرًا من الناس ينضوون تحتها، ويتبعونها، فانتشرت؛ لأنها بعيدة عن السياسة، تهتم فقط بجانب الفقه، والعبادات، والاعتقادات، أما جانب الحكم، وجانب السياسة وغيره فهي متروكة.

| | |
|---|---|
| تنبيه | الدين لا ينفصل عن السياسة، فالدين أن يشمل جميع جوانب الحياة، بما فيها الجوانب السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والشخصية، والجوانب المختلفة في الحياة. |

**الجانب الخامس**: غياب الإعداد والتأهيل والتربية: بعد القضاء على إمامة الإمام عزام بن قيس، والشيخ سعيد بن خلفان الخليلي، لم يبق إلا قلة قليلة من العلماء، منهم الشيخ صالح بن علي، وبعض العلماء وبقي المجتمع العماني في جهل، ولم يجدوا من يفقههم في أمور دينهم، لفترة طويلة حتى بعث الله سبحانه وتعالى الشيخ السالمي، والأئمة سالم بن راشد الخاروصي، والإمام محمد بن عبدالله الخليلي، ليقوموا من جديد بدور الدعوة، ويحيوا الشريعة في المجتمع، ويعلموا الناس، ويفقهوهم أمور دينهم، بعد أن عاش المجتمع فترة طويلة في جهل وفقر، وصعوبات كثيرة، وعلينا أن نهتم بجانب التعليم، والإعداد للتربية، مع بقية الجوانب، فالناس بحاجة إلى فقه، وتوعية، وفهم أمور الدين، فلا يمكن أن نطلب من إنسان الذهاب للجهاد، والدفاع كذا، وهو لا يعلم مبادئ الدين، وهذا لا يقلل من جهد الأئمة، فكثير من الأئمة، وخاصة في عمان استطاعوا الحفاظ على الدولة المسلمة، القائمة على العدل على الشورى، والمساواة، والعلم، وعندما تتاح لهم الفرصة، يقومون بدورهم.

**الجانب السادس**: الإغراق في العزلة والكتمان: انعكست آثار التسرع على المجتمع الإباضي، فأدت إلى فترة من الركود، والجهل، والانكماش، والرجوع إلى عهد الكتمان لا بأس به، ويكمن الخطر في الإغراق في الكتمان إلى درجة يتحول فيها الكتمان إلى جبن، وعدم تعليم، وعدم نشر للدين والمبادئ، التي قام عليها هذا المذهب، وهذا التحول من الكتمان إلى الخوف والجبن، يؤدي إلى الانكماش، وبالتالي تُشاهد المنكرات، ولا ينكرها أحد خوفًا من رد فعل السلطات؛ لتخوفها من الخوض في أمور السياسة، وخلاف ذلك، فهي لا تمنعك من دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن الإغراق في الكتمان أدى إلى توقف بعض الدعاة والعلماء عن الإنكار، خوفًا من أن يتسلط عليهم الحاكم الباغي أو أعوانه، فيتعرض

لكثير من الأذى، وينبغي أن نفهم أن الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، واجبة في جميع الأحوال والظروف، وأن الكتمان لا يكون منهجًا، ولا ينبغي الإغراق فيه، فالرسول صلى الله عليه وسلم، لم يستمر في منهج الكتمان إلا ثلاث سنوات، ثم نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥]، فلم تدم فترة الكتمان إلا ثلاث سنوات فقط، ثم بعد ذلك تم الإعلان عن هذه الدعوة، فلا بد للناس أن تفهم، وأحيانًا لا يوجد مبرر لقضية اللجوء إلى الكتمان، والإباضية في شمال أفريقيا أُغرقوا في الكتمان، وظلوا ما يقرب من ثلاثة قرون على هذا الحال، إلى أن انتبهوا إلى ما يسمى بنظام العزابة، وبدأوا يعلمون أمور دينهم بشكل منظم، وبشكل داخلي، هذا الأسلوب جيد لكن يفترض أن يكون مباشرة.

**الجانب السابع: غياب التواصل مع المذاهب الأخرى:**

الدعوة ينبغي أن يكون لها خط واضح، في كل زمان ومكان، فتعليم القرآن دعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ولا يشكل خطورة لا على الداعية، ولا على السلطة، وكذلك تعليم الناس أمور دينهم؛ أمور الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلقاء محاضرة تفقيه للناس، وتأليف كتاب فيه خير ومنفعة هذا كله يصب في مجال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فينبغي الاهتمام بهذا الجانب، بشكل كاف حتى لا يستفحل الجهل، ويصعب معالجة المجتمع، وتعليمه من جديد، بعد ترسخ الأفكار والعادات السيئة، والمعتقدات الباطلة، والله سبحانه وتعالى، عندما بعث نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم، بعثه للناس كافة، فمن حق أي إنسان أن يعرف الدين بشكل كامل، فالأمور الدعوية عامة، ولكن العزلة، والبعد عن أحداث العالم، وما مر به الإباضية في المعارك الكثيرة، أدى إلى انكماشهم، فلجئوا إلى بلدان طبيعتها صعبة، مثل: جبل نفوسة، أغلبهم ظلوا فيه، وهذه منطقة صعبة ووعرة، وكذلك جزيرة جربة، بعيدة تماما في وسط البحر، وكذلك الإباضية في وادي مزان في منطقة في وسط الصحراء، والإباضية في عمان أغلبهم في الجبال الشاهقة والبعيدة عن مراكز الدول الإسلامية الأخرى، كل هذا أحدث فجوات بين الإباضية، وبين بقية المذاهب الأخرى، أو

بين بقية المسلمين، وهذه الفجوات أدت إلى أن يفهم الآخرون فهمًا خاطئًا عن الإباضية، نتيجة عدم وجود التواصل، فلم يكن هناك تواصل قوي، بسبب الطبيعة التي عاشوا فيها، وبسبب أن الآخرين أخذوا أفكارًا سيئة عن الإباضية، ونظروا إليهم على أنهم خوارج، وأنهم ليسوا من مذاهبهم، ولا من أهل السنة،ولا من الشيعة، وكان يفترض أن الإباضية لا يعزلون أنفسهم عن الآخرين، وأن يبدأوا بالتواصل مع بقية العلماء، ويدخلوا في مناظرات وفي محاورات؛ لتصحيح المفاهيم عند الآخرين، وفي العصر الحديث بدأ التواصل الحضاري، وبدأ علماء الإباضية يتداخلون مع علماء المذاهب الأخرى، سواء من أهل السنة أو من الشيعة وبدأ تقارب مذهبي،وبدأ الناس يسمعون عن المذهب الإباضي، وعن فكره، وأسسه الصحيحة القائمة على الكتاب والسنة، فالإباضية في كثير من معتقداتهم، ومسائلهم الفقهية يستندون إما إلى آية كريمة، أو حديث نبوي، وليس مجرد أقوال، أو آراء لا أدلة لها ولا برهان، كما يعتمدون على الإجماع، وعلى القياس، فلا يعتمدون على الخرافة، لا على الأوهام، ولا على الأقاصيص غير الثابتة، أو الأحاديث غير الثابتة، وإنما يحققون ويمحصون ويستنتجون، فعرف ذلك كثير من أتباع المذاهب الأخرى، وقدروا للمذهب الإباضي جهوده، وبذلوا ما عندهم في للتعريف، وأعدوا بحوثًا في هذا المجال، كما فعل الدكتور عوض خليفات، كتب كتابًا كاملًا عن نشأة الحركة الإباضية، والأستاذ مهري طالب هاشم، له كتاب عن الإباضية، والمؤلف عمر بهاء كتب عن الفكر الإباضي، وكثير من الباحثين والدارسين، وحسين خباش كتب عن عمان والديمقراطية الإسلامية،وفي العصر الحديث بدأت ندوات مشتركة، بين علماء الإباضية وبين علماء المذاهب الأخرى، وبدأ تلاقي الأفكار، ونطمح في المزيد من التواصل بين علمائنا، وعلماء المذاهب الأخرى، لنسعى إلى الوحدة، ففي النهاية كلنا مسلمون، تجمعنا راية، لا إله إلا الله محمد رسول الله، والكل يسعى إلى هذا الهدف ونتمنى أن نصل يومًا ما مع جميع المذاهب، إلى قناعات مشتركة، وأن يكون الإسلام واحدًا للجميع، وإن وجدت بعض المسائل الخلافية، فإنها لا تقدح في الوحدة، وهو ما دعا إليه سماحة الشيخ الخليلي في كثير من كتبه، ومحاضراته، والندوات التي

شارك فيها، فعلينا كإباضية؛ أن نعيد قراءة التاريخ وأن ندرس كيف كانت الدعوة هي المحرك الأساسي لنشأتهم، لنخرج من هذه العزلة، ولننشر في الأرض الإسلام الحقيقي، سواء كان في مجتمعات إسلامية، أو في مجتمعات غير إسلامية، وقد نحتاج المخالفين، لنشر الإسلام في دول غير مسلمة، فالأرض بحاجة إلى من ينشر رسالة الله فيها بين الناس، بدلًا من العزلة، والإنغلاق على الذات، وقد بذل العمانيون جهودًا بسيطة في الهند، وفي الصين، وفي شرق أفريقيا، لكنها جهود فردية، والحاجة ماسة إلى صورة جماعية أكثر، حتى يتعرف العالم على مبادئ الإسلام التي دعا إليها الإباضية، والتي أثبتوها في كتبهم، ليس من باب التحيز، ولكن من باب ما درسه الإباضية، واستنبطوه ووصلوا إليه، مع وجود قصور، وكان ينبغي أن نشد الهمة لنشر الإسلام في بقاع الأرض وأن يتعرف البشر في بقاع الأرض بشكل هذه الدعوة، فالدعوة ليست حكرًا على أفراد، ولا على مذهب، ولا على وطن، ولا غيره، وإنما هي دعوة عامة للناس.

**تنبيه**

- المذهب الإباضي دعوي النشأة، هدفه الإسلام فقط، وليس الملك أو التحكم في الآخرين، وإنما هدفه إقامة الشريعة في بقاع الأرض، وتعريف الناس بالإسلام الصحيح، وإقامة العدل، والمساواة، والشورى، واحترام الإنسان، والتسامح وغير ذلك من القيم.

**الجانب الثامن:** التركيز على الجانب الفقهي دون غيره: الإباضية اهتموا بجانب العلم، وألفوا مؤلفات كثيرة، إلا أن غالبها يصب في الجانب الفقهي، وفيه موسوعات فقهية كبيرة، مثل: بيان الشرع، للشيخ محمد بن إبراهيم الكندي، يصل إلى سبعين مجلدًا، والمصنف لأبي بكر الكندي، يصل إلى واحد وأربعين مجلدًا، ومنهاج الطالبين للشقسي، يصل إلى خمسة عشر مجلدًا، وقاموس الشريعة للسعدي، يصل إلى تسعين مجلدًا، كلها تركز على الجانب الفقهي، وفيها مسائل في جانب الاعتقاد، والتفسير، والحديث، وغير ذلك، لكنها بشكل قليل،

وأغلب الأبواب تنصب على فقه العبادات، وعلى فقه المعاملات، والتطبيقات العملية في الحياة تستدعي وجود فقه قوي، وهذا ميزة المذهب الإباضي، فالواقع العملي الذي عاشوه كانوا ينظرونه، ويضعون له الحلول، ولكل مسألة حكمها ،وهذه حقيقة اجتهادات مباركة وطيبة، أما التفسير؛ فلا نجد من كتب التفسير عند الإباضية إلا القليل، وتدارك هذا الموضوع الشيخ قطب الأئمة محمد بن يوسف أطفيش رحمه الله- وهو من علماء الإباضية بالجزائر، في وادي ميزاب، من علماء المتأخرين، فألف كتاب "هميان الذات"، ثم ألف كتاب "تيسير التفسير" فتدارك هذه الثغرة، كذلك في جانب أصول الفقه لا تجد مؤلفات قديمة، وقد تجد مسائل في كتاب "العدل والإنصاف" للشيخ أبي يعقوب الوارجلاني، وكتاب "الجامع" لابن بركة فيه مسائل مبنية على أصول الفقه، لكن لا تجد كتابًا مستقلًا في أصول الفقه، فجاء الشيخ السالمي وسد هذه الثغرة، فألف كتاب "طلعة الشمس"، ثم شرح كل باب خاصةً في أصول الفقه، كذلك في جانب العقيدة، لا تجد مؤلفًا مستقلًا، فالأمور العقائدية بحثها الشيخ السالمي رحمه الله في كتابه،" مشارق الأنوار" وكذلك التاريخ لم يكن علماؤنا يهتمون بالتاريخ، وتدارك هذه النقطة الشيخ السالمي في كتابه "تحفة الأعيان"، وكان يأمل أن يشمل التاريخ الإسلامي، ولكن إرادة الله فوق كل شيء، توفاه الله قبل أن يحقق أمله هذا، وكذلك الحديث الشريف، أول من دونه الإمام جابر بن زيد، رحمه الله، وهو من أهم أعلام المسلمين بشكل عام، وكان له كتابه المعروف "ديوان الإمام جابر" ولكن هذا الكتاب ضاع، ولم يبق من الحديث إلا ما هو موجود في "مسند الإمام الربيع"، وفي مدونة "أبي غانم الخرساني"، كنا نأمل أن تكون الأحاديث بشكل أوسع وأكبر، كما هو موجود في صحيح البخاري، وصحيح مسلم، فالإباضية لهم أسبقية في هذا المجال، ولكنهم لم يعطوا هذا الجانب الحق الكافي، فكان التركيز بالدرجة الأولى على كتب الفقه، وفي العصر الحاضر بدأت الجهود الكثيرة، منها جهود سماحة الشيخ في تفسير القرآن الكريم، وجهود فضيلة الشيخ سعيد القنوبي، في الحديث النبوي، وفي الأصول، وكذلك العلماء المشايخ مثل:

الدكتور إبراهيم الكندي، والدكتور سليم أولاد ثاني، وجهودهم بدأت تسد ثغرات في الجانب العلمي لدى الإباضية، ونحن نريد أن تسد جوانب النقص.

الجانب التاسع: المبالغة في ولاية وبراءة الأفراد: الولاية والبراءة من الأمور الأساسية في الدين؛ لأنها تؤدي إلى ولاية المؤمنين، من أولهم إلى آخرهم منذ آدم عليه السلام، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكذلك البراءة من الكافرين، من أولهم إلى آخرهم، هذه تسمى ولاية الجملة وبراءة الجملة وعندنا ولاية الحقيقة وبراءة الحقيقة، وهي ولاية الصالحين الذين نص عليهم القرآن الكريم؛ مثل: مؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، والسيدة مريم، وأصحاب الكهف، وقد نص على صلاحهم القرآن الكريم، فينبغي ولايتهم، وكذلك القرآن الكريم نص على كفر بعض الناس، مثل: ابن سيدنا نوح عليه السلام، ووالد سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفرعون، وهامان، وقارون، وأبي لهب، وامرأته، وامرأة نوح، وامرأة لوط، هؤلاء ينبغي البراءة منهم في حكم النصوص القرآنية، فإذا اتفق المسلمون على ولاية الجملة وبراءة الجملة، وولاية الحقيقة، وبراءة الحقيقة، واختلفوا في ولاية الأشخاص والبراءة منهم، فالبعض منهم يولي جميع المسلمين، مطيعهم وفاسقهم، والبعض قال: لا، نتولى الطائعين، ونبرأ من الفاسقين، ونقف عمن نجهل عنه، هذا الموقف الأخير هو الموقف الإباضي لأنهم يتولون الطائعين لله سبحانه وتعالى، ويتبرؤون من الفاسقين، ويقفون على من يجهلون حاله، ولا يعرفون هل هو صالح أو غير صالح، وعندما نقرأ في السير نجد البراءات كثيرة، من بعض الأئمة الذين بذلوا حياتهم وأرواحهم وجهودهم، في سبيل نصرة الدين، وبسبب خلاف مع أحد العلماء فإن هذا العالم، يتبرأ من هذا الإمام، أو من هذه الجماعة، وهذا ينعكس ويؤثر على وحدة الصف، وبالتالي تحدث انشقاقات، وردات فعل، وطوائف وهذا خطأ، ولذلك ينبغي معالجته؛ لأن مسائل البراءة كما يقول سماحة الشيخ: مثل حد السيف، لا ينبغي الاقتراب منها بسهولة، وإنما تدرس، ولا بد أن ندرس حالة الشخص وألا تكون الدراسة فردية، وألا يكون الحكم مبنيًا على اختلاف في وجهات النظر، أو في مسائل فقهية، ودينية، خاصة إذا كان الشخص يستند إلى أدلة من القرآن، ومن السنة،





أو أنه خالف في بعض المسائل لوجهة نظر يراها، فلا نتسرع في قرار البراءة من شخص ما، لأن هذا سيؤثر، وينبغي معالجة هذه الأمور؛ لأن قضايا الولاء والبراء لا بد أن ترجع إلى علماء ثقات، يدرسون حالة الأشخاص، بعيدًا عن التعصب والعواطف والاتجاهات الشخصية، وإنما تكون مبنية على أمور موضوعية، في حالة الإشكال يسع الوقوف، وعدم الخوض في سير هؤلاء الأئمة، أو هؤلاء الصالحين حتى لا يؤدي ذلك إلى الانشقاقات، فالهدف الأصلي لمبدأ الولاية والبراءة هو اللحمة؛ لتوحيد الصف، والتناصر بين المؤمنين، وعدم نصرة البغاة، والفاسقين، والكافرين، وغير ذلك، فالانشقاق يؤدي إلى تصدع الصف، وإحداث الفرقة، فلا بد أن يكون في هذا حكمة، ويدرس بطريقة صحيحة، وألا يتبرأ من شخص ما، إلا بناءً على بينة ظاهرة لا لبس فيها، هذه من أهم النقاط التي ينبغي أن ندرسها، ونعالجها وأن ينتبه إليها الدعاة الإباضيون، في كل زمان ومكان، حتى يكون منهجهم سليمًا، وصائبًا، وموفقاً ومسددًا بإذن الله، وهذه النقاط لا تقدح في الجهود الكبيرة والجبارة التي بذلت، عبر القرون والتي أرست مبادئ الدين، والعدل، والشورى، وأبقت عليها، وعلى الإسلام في البقاع الموجودون فيها، وهذا كله ببركة العلماء، وجهود الدعاة الأجلاء التي بذلوها خلال الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، عبر مسيرتهم التاريخية.

| | |
|---|---|
| نشاط | بعد أن طالعت جوانب قصور الدعوة عند الإباضية: بمشاركة زملائك: قم بإيجاد حل لهذه الجوانب مع مناقشتها وعرض ما تم التوصل إليه على مدرس المادة لإبداء الرأي. |

**خاتمة: بهذا القدر نكون عزيزي الطالب قد انتهينا من الحديث عن درس اليوم: عقبات في طريق الدعوة وما يتعلق بذلك ولنا لقاء آخر إن شاء الله تعالى نتكلم فيه عن مزيد من الأمور سائلين الله تعالى السداد والتوفيق سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.**

# وسائل التعامل مع الجانب الدعوي

محتوى الدرس

نشاط إثرائي: عزيزي طالب العلم: من خلال معايشتك للواقع الدعوي ما هي أكثر وسيلة فاعلة في الدعوة إلى الله في مجتمعك وما أسباب تفوق هذه الوسيلة على غيرها من الوسائل الدعوية الأخرى وكيف يمكن تفعيل باقي الوسائل؟

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هداه، وبعد؛

تمهيد

نصل إلى الحلقة الأخيرة في مسيرتنا لمنهج الدعوة عند الإباضية، ونتحدث اليوم بإذن الله تعالى، عن واقع الدعوة في عصرنا، وما ينبغي أن يكون، و ما هي الاهتمامات التي يركز عليها الدعاة في هذا العصر، وما يتطلعون إليه في المستقبل، فلكل زمن ظروفه الخاصة، وواقعه الذي يختلف عما قبله، وما بعده، وينبغي على الدعاة، أن ينظروا إلى الأساليب التي يتعامل بها الناس بالواقع، وما متطلبات هذا الواقع، وما هي احتياجاته، وكيف يستطيعون التعامل معه، وما هي الآليات والوسائل والأساليب التي يتبعونها في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن الأساليب القديمة، لا تصلح في هذا الزمان، ولذلك لا بد من ابتكار، وإبداع للوسائل، وهذا الابتكار والإبداع، ينظر إلى العالم، وما يحتاج إليه، مع وجود أسس ثابتة معروفة، وهي أركان الإيمان، وأركان الإسلام، والقرآن الكريم ، والسنة النبوية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقيم والأخلاق والمبادئ، كلها لا مساس بها، مع الوعي التام بكل مستجدات العصر الحديث، وينبغي على الداعية الحفاظ على عدة ضوابط، تخدم الدعوة، ومنها:

أولًا: الإلمام بمستجدات العصر:

أحدثت وسائل التواصل والمستجدات في عالم التكتولوجيا طفرة في التطور، أسهمت في إيجاد قنوات للتواصل بالمحمول، أو الإنترنت، أو القنوات الفضائية، والأقمار الصناعية،

وغير ذلك، وأصبحت هذه المستجدات من ثوابت الحياة، والداعية لا يمكن أن يغمض عينيه، عن مستجدات عصرنا، ويتغافل الموجود، ويذهب إلى الوسائل القديمة، فلغة العصر تقتضي أن يكون الداعية إلى الله ملمًا بمستجدات العصر، فيفترض في الداعية إلى الله عز وجل، أن يجيد استخدام جهاز الحاسب الآلي، بكل صوره وأشكاله، وأن يجيد استخدام الهاتف المحمول، والدخول إلى شبكة المعلومات، ويجيد بعض المهارات الحديثة المطلوبة في عصرنا، وكذلك اللغات التي يقتضيها العصر، وينبغي على الداعية إلى الله سبحانه وتعالى، أن ينظر إلى الواقع، ويتعامل فيه، ويتخاطب معه، فلو اتخذ أساليب قديمة في عصر حديث، ربما عرض نفسه للسخرية، وربما أضر بالدعوة أكثر مما نفعها، فلغة العصر مهمة، والتخاطب بها لا بد من دراسته، فأمام هذه المتغيرات، تتداخل الثقافات في عصرنا، أصبح الفرد منشابكًا مع العالم من حوله، ومع بقية البشر كأنهم جميعًا في قرية واحدة، فأصبحنا نطلع على ما يحدث في أقصى الدول بعدًا عنا، نراه في نفس اللحظة.

ثانيًا: الإلمام بثقافة الأمم الأخرى:

الثقافات المختلفة أصبحت متغلغلة في مجتمعاتنا، والعالم له مؤسساته العلمية والمعرفية، والعالم الغربي يفرض قيمه على العالم، وأصبحت بعضها الآن مألوفة في مجتمعاتنا، بعد أن كانت مستغربة، فكثير من النساء يخرجن سافرات، أصبح هذا مألوفًا بتأثير الثقافة الغربية علينا، والاختلاط، وشرب الخمور، وتفشي المخدرات في المجتمعات، كلها أمور تقتضي التنبه، والعلاج، والانتباه من القائمين على أمر الدولة وأمر الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وما لم يكن هناك أمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، سيكون ذوبان للهوية الوطنية، وللهوية الإسلامية، وللقيم الأخلاقية، وبالتالي الذوبان، وفقدان الهوية، والقيم، والمبادئ، وعلاج مثل هذه الظواهر، بتثبيت قيم الإسلام، قيم الأخلاق، ودفع الناس إلى الخير، وهذا كله يتطلب، بجانب الجهود التي تبذلها المؤسسات الحكومية، وجود أفراد ومسؤولين دعاة، يقومون بالإصلاح، وبهذا الدور، ولذلك ينبغي أن يركز عليه الدعاة في عصرنا على عدة جوانب منها:

الجانب الأول: الاهتمام بالتربية والتعليم، فهما جناحان لطائر واحد، ولا يمكن أن نعتمد على تربية القيم والأخلاق، وغير ذلك ولا نغذي الفرد بالعلم والمعارف والمعلومات التي يحتاجها، سواء في أمور دينه، أو في أمور حياته الخاصة، أو فيما يخص حياة المجتمع بشكل عام، ولا نحشوه بالمعلومات ونملأ ذهنه بالأفكار والنظريات، أي لا نهمل جانب التربية الأخلاقية، والقيمية والمبادئ، وغير ذلك، فلا بد أن يكون هناك توازن.

الجانب الثاني: الاهتمام بالنشء منذ صغره، ينبغي أن يركز الدعاة في توجيه الناس إلى الاهتمام بالفرد منذ نعومة أظفاره، سواء أكان في مستوى الأسرة، أو في مستوى المدرسة، أو في مستوى الجامعة، فما بعدها، وفي المؤسسة التي يعمل بها، عن طريق التوعية، وبذل جهود جبارة من أجل أن ينشأ الفرد منذ نعومة أظفاره، وهو يتغذى على مبادئ الدين، فأول شيء قضية الإيمان بالله عز وجل، والإيمان بالله لا يقصد به حفظ أركانه، وإنما فتح ذهنه إلى معرفة هذا الكون المحيط به، ومعرفة نفسه، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، ويتعرف على حكمة الله في خلقه، فتغرس فيه مبادئ الإيمان، فقد روى البخاري في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ)، فتأثير الآباء لا يكون إلا بالقدوة؛ لأن الطفل يرى صنيع والده، وأمه، وسلوكهما، ويحاول تقليدهما، كما يقول الشاعر:

وينشَأُ ناشئُ الفتيانِ منا على ما كان عوَّدَه أبوه

فينبغي تعويد الطفل على حب العلم، والإيمان، والاستقامة، وأفعال الخير، وكره أفعال الشر، والبعد عنها، وعن الصحبة السيئة، إلى غير ذلك، هذا من واجبات الأبوين، وعلى الدعاة أن يقوموا بتوجيه الآباء والأمهات بهذا الجانب، وأن يكونوا هم قدوة، وفي المدرسة ينبغي أن يتم إعداد المعلمين فيها، وأن يتم إعداد الإدارة وفق القيم الإسلامية، ووفق مبادئ الدين، وأن يكون لهم توجهٌ في إصلاح الطلاب، فوجود المدارس الإسلامية، والمعاهد الدينية، والجامعات الإسلامية مهم جدًا، هذه المدارس والجامعات، ينبغي أن تدرس كافة العلوم، وأن تعطي قدرًا معينًا لكل طالب في الجوانب الإسلامية، والدينية، والفكرية،

والأخلاقية، وتطعم هذه المبادئ في بقية الفروض، مع التخصص في المجالات الأخرى؛ في مجال الطب، والهندسة، وغير ذلك، ليكون الطبيب الداعية، والأديب الداعية، والمهندس الداعية، والطيار الداعية إلى الله سبحانه وتعالى، والفني التاجر الإداري، وغير ذلك، كل هؤلاء، وفي كل موقع يكون له دور إصلاحي، ولذلك ينبغي أن تكون دور المؤسسات العلمية بكافة أشكالها تهتم بجانب التزويد العلمي، وتهتم بجانب التربية الأخلاقية، والدينية، ففي الدول الغربية توجد في الجامعات والمدارس كنائس، وأحيانًا يأتي القساوسة، والرهبان، والكهان إلى المدارس؛ ليعلموا أبناء الفئة أمور دينهم، كذلك نحن في مدارسنا، ينبغي أن يكون عندنا علماء، ودعاة، ومعلمون لمبادئ الدين، وكذلك في بقية المواد التي تدرس، وتربط بالجانب الإيماني، وقد لاحظنا أن بعض الجامعات الإسلامية، مثل جامعة الأزهر، يتخصص فيها طالب الشريعة، في جانب الطب، والهندسة، والقانون، والإدارة، وغير ذلك، ووجدنا هذا الأمر معمولًا به في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

ثالثًا: وجود المؤسسات العلمية الرائدة:

ينبغي أن يكون في المجتمع مؤسسات علمية رائدة، تقوم بتدريس العلوم الدينية، والعلوم المعاصرة، وتقوم بتربية الأفراد على القيم والمبادئ والأخلاق، فهذه من الأسس التي ينبغي أن نعتني بها، ونحن نريد إيجاد فئة من العلماء، والباحثين، المعاصرين الذين يتمتعون بعقول دقيقة تستطيع البحث، والاكتشاف، والإبداع في مجال العلوم المعاصرة، فهؤلاء العلماء الذين تربوا على الإيمان، وعلى الأخلاق الفاضلة، وعلى القيم الإنسانية النبيلة، سيكون عطاؤهم كبيرًا، ودورهم في مجال الدعوة أكبر، وتأثيرهم في العالم كذلك، ولا ينبغي أن نفصل، أو نقلل من قيمة العلوم الأخرى، فجميع العلوم مهمة، واعتبرها بعض العلماء من فروض الكفاية، إذا قام بها البعض، سقطت عن الباقين، وإن تركها الكل أثم الجميع، فبعض شرائح المسلمين يجب تتخصصهم في بعض العلوم، وأن تكون عندهم المنهجية العلمية في الاستنباط، والاستدلال، والبحث، والتقصي، والوصول إلى النتائج الإيجابية، في مجال العلوم الدينية، والعلوم الإنسانية، لتدلل على ما عندك من قناعات، بأدلة وبراهين من

يطلع إلى ما عندك من فكر، يعلم أن فكرك يقوم على أسس منطقية، وعلمية، وأدلة وبراهين قاطعة، وليست على مجرد ظنون، أو أوهام، أو أساطير، وينبغي على الدعاة أن يقوموا بدور التوعية، من مسؤولين عن هذه المؤسسات التعليمية، بحيث يبصِّرونهم بأهمية هذه الأمور، ويعقدوا مقارنات بين ما هو موجود في دول أخرى، وبين ما هو موجود في دولنا؛ ليكون لنا منهجنا الخاص، في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، مستلهمين ما كان عليه سلفنا الصالح، رضوان الله تعالى عليهم، وعلى الذين استمدوا منهجهم من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وسيرة الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فالاهتمام بهذا الجانب يعتبر ذا أهمية كبيرة، وعلينا ألا نغفل في هذا العصر جانب التعليم، وجانب التخصصات، ومواكبة كل مستجدات العلوم، في هذا العصر، حتى لا نتخلف عن الركب؛ لأن العالم اليوم يمشي بسرعة، وعلينا أن نتقن لغات كثيرة، وأن نصل إلى حقائق علمية جديدة ،وأن يكون هذا مصحوبًا بالتربية الإيمانية، التي تحفظ لهذا الإنسان كرامته وحقوقه وإنسانيته، وألا تستغل تكون المكتشفات المعاصرة في الشر، كما حدث في اكتشاف القنبلة الذرية، وتم استخدامها في إبادة الناس، وإبادة الحياة، فلا بد أن توظف في مجال الخير وفيما يخدم الإنسان.

رابعًا: تفعيل وسائل الإعلان:

الدعوة في عصرنا تحتاج إلى الإعلان؛ أي استخدام وسائل الإعلام المعاصرة، وهي اليوم كثيرة؛ منها القنوات الفضائية، والصحف، والجرائد، والمجلات، والشبكة العنكبوتية المعلوماتية، ومنها المقالات، والهواتف، والمواقع المشهورة؛ مثل الفيس بوك، والتويتر، والإنستجرام، وغيرها، قد يرى البعض أن الدخول فيها خروج عن المألوف، أو فيه تجاوز للحدود القديمة، وخروج عن المنهج القديم، وهي وسائل ذات حدين، قد تستغل في الخير، وقد تستغل في الشر، وإذا أردنا أن نكون دعاة حقيقيين، لا بد أن نستفيد من هذه الجوانب، في مجال الخير، فكما هو معلوم في العصر الحديث أن الإعلام هو السلطة الرابعة، وغيابه لا يُظهر ما عندك من مبادئ، وقيم، وأخلاق، وفكر، وعلم، ولابد أن نهتم بالجانب الإعلامي كثيرًا، لابد أن يكون لنا قنواتنا الفضائية، لتبث البرامج الدينية، والمسلسلات الإسلامية،

وحتى الرسوم المتحركة التي تتوافق مع مبادئنا وديننا، فالأطفال يظلون الساعات الطوال ،وهم يتابعون الرسوم المتحركة المستوردة من ثقافات أجنبية، وقد يكون في هذه الرسوم ما يخدش العقيدة، والحياء، والأخلاق، ولكن لا وجود لبديل، فلا مانع من إنشاء رسوم متحركة للأطفال، تكون مبنية على أسس إسلامية، وتنمي في الإنسان جوانب الخير، وتكبت جوانب الشر، فالأعمال المستوردة تغرس في الأطفال لا شعوريًا الشكوك في العقيدة، أو غرائز الشر، وغير ذلك، فينبغي الانتباه، كذلك في مجال بث البرامج الدينية والمسرحيات، قد يظن البعض هذه الأمور ليست مهمة، وهي مهمة جدًا، وكتابة الروايات، والمقالات، واتخاذ الصفحات، والمواقع في الشبكة المعلوماتية، والمشاركة في المواقع المشهورة، مثل: الفيس بوك، وأن يكون لنا صفحات ومساحات، ولو قصيرة، نبث من خلالها الفكر الإسلامي، ونبث فيها القيم الدينية، والخير حتى يجد الناس ضالتهم؛ و نلاحظ أن الغرب الآن يعمم ثقافته عن طريق قنواته الفضائية، والسينما، والأفلام السينمائية المشهورة عالميًا، وعن طريق المواقع الإباحية والعياذ بالله، والصحف، فأصبحت هناك هيمنة إعلامية، وأنت الآن مطالب إذا كنت تريد الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، أن يكون لك وجود، وخطاب، ورسالة، تريد أن توصلها، بالحكمة، والموعظة الحسنة، والأسلوب المؤثر، وإنتاج الأفلام المؤثرة، والرائدة التي يكون فيها إجادة في التمثيل، وإجادة في الحبكة، والتصوير وغير ذلك من الأمور، حتى يكون الجذب والتأثير قويًا جدًا، ونحن نعلم أن الأفلام لها دور كبير في إذكاء الهمم، إذا كانت هذه الأفلام ذات قيمة أخلاقية وإنسانية، فنحن عندما نشاهد فيلم عمر المختار مثلًا، نتحفز، وينغرس فينا ضرورة أن يدافع عن كل منا وطنه ودينه، ويبذل الغالي والنفيس، كل ذلك نستكشفه من خلال مشاهدة أمثال هذا الفيلم، وفيه كثير من القيم، التي يعكسها الممثلون، بالرغم من أنهم ليسوا مسلمين، لكن المؤلف والمخرج المسلمان، استطاعا أن يوظفا هؤلاء، ويصدروا فيلمًا ذا تأثير قوي، فنحن بحاجة إلى مثل هذا الفكر، وإلى الجانب الإعلامي، ليروج للقيم الإسلامية، وللأفكار، والعقيدة والقيمة، كل هذه الأمور، لا ينبغي أن تكون غائبة عن بال الداعي إلى الله، حتى

مقاطع الفيديو التي تبث عن طريق الهواتف، يجب أن تختار بعناية، المقالات تختار بعناية، لابد أن تكون مدروسة، وذات تأثير، وبعيدة عن الإشاعات، والهرتقات، وغير ذلك، والأفلام والمقاطع السيئة، والتقول عن الآخرين، أو نشر أكاذيب، أو غير ذلك، فنحن نختار الشيء المفيد، في الجانب الديني والخيري والإنساني، ونبثه حتى ننشر الخير في أوساط الناس ونبتعد عن الشر.

**نشاط**

قال الله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

استنتج من الآية جزاء الدعوة إلى الله، ثم قم مع زملائك بعمل حصر للمواقف التي دعوت فيها إلى الله، وماذا استخدمت في دعوتك، وماذا كانت النتيجة؟

**خامسًا: الازدهار الاقتصادي:**

الدعوة كما أنها تحتاج إلى الرجال، فإنها تحتاج إلى المال، فكثير من مشاريع الدعوة، ومشاريع الخير تحتاج إلى المال، وكل فرد وداعية مطالب بأن يبذل جهده، أن يكون له مصدر دخل، وأن يسعى إلى مزيد من الدخل الحلال المشروع، لذلك يجب أن تكون هناك مؤسسات اقتصادية مبنية على الفقه الإسلامي، وشركات لها دور كبير وحيوي في المجتمع في كل الجوانب، والمصانع والمزارع الإنتاجية في المجتمع، هذا كله يقوم على دور التوعية، وعلى دور الدعاة، وأن يكون للدعاة أنفسهم جهد كبير، كما يقول الشاعر:

بِالعِلمِ وَالمالِ يَبني الناسُ مُلكَهُمُ  لَم يُبْنَ مُلكٌ عَلى جَهلٍ وَإِقلالِ

إذن لابد من المال الذي يدعم الدعوة، والرسول صلى الله عليه وسلم، عندما كان يدعو للجهاد في سبيل الله، يدعو للإنفاق، فكان أصحاب المال يأتون بالمال الكثير، والصحابة كانوا ينفقون ما عندهم من أموال، كما روي عن عثمان بن عفان، والبعض منهم يأتي بأموال كثيرة، ولا يترك شيئا لأهل، أو يأتي بنصف ماله، هؤلاء لم يأتوا من فراغ، وإنما بما عندهم من ثروة مَنّ الله تعالى عليهم بها، وكانوا يجتهدون كما قرأنا عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، جاء فقيرًا من مكة المكرمة، وعرض عليه أخوه الأنصاري، أن يعطيه نصف ماله،

فرفض، وقال: دلني على السوق، وذهب إلى السوق وهو فقير لا يجد إلا القليل، فأصبح تاجرًا كبيرًا، واستطاع أن يُكوِّن ثروة عظيمة، حتى قال عن نفسه: لو قلبت حجرًا لوجدت تحته دينارًا، فلم يمنعه دينه من البحث عن الرزق، والله سبحانه وتعالى حث على ذلك: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة ١٠]، وقال في الحج: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[البقرة ١٩٨]، فأجاز العلماء للحاج أن يتكسب في وقت الحج، يحج ويكسب الرزق، فالإسلام لا يمنعك أن تكون ثريًا، أو أن تكسب الرزق الحلال مشروع من إعمار الأرض بالإنتاج، هذا أمر مشروع، فإذا لم نقم بالزراعة والصناعة والتجارة، سنبقى عالة على الأمم الأخرى، سنستورد كل شيء، وإذا لم يكن عندنا المال لن نستطيع الاستيراد، فسنظل فقراء، والإسلام لا يأمرك بالفقر، وإنما يأمرك بالعمل، والذي جاء يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعطيه مالًا، أعطاه الرسول عليه الصلاة والسلام قدومًا، وقال: "اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ، وَلَا أَرَاكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَجَعَلَ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ، فَقَالَ: اشْتَرِ بِبَعْضِهَا طَعَامًا وَبِبَعْضِهَا ثَوْبًا، ثُمَّ إِنَّ ذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ وَالْمَسْأَلَةُ نُكْتَةٌ فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ"، كان بإمكان الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يعطيه دينارًا، أو درهمًا، ولكن لم يرد أن يميت فيه هذه الحركة والطاقة، فكل إنسان عنده طاقة، يجب أن يستغلها في عمل الخير، وكسب الرزق، وهذا العائد يوظفه لإعالة نفسه وإعالة أسرته، ويسهم في نشر دينه وإعزازه، ونشر قيمه، وليدعم المحتاجين في المجتمع، بما يمكن دعمه من هذه الثروة، فالاهتمام بالجانب الاقتصادي مهم، وعلينا أن نفكر، ونبتكر، ونبدع في مجال إيجاد البدائل، والدخل المناسب، والله سبحانه وتعالى يبارك في هذه الجهود.

سادسًا: تنمية الفكر والوعي للدعاة:

الداعية إلى الله سبحانه وتعالى مطالب بدراسة الأمور الشرعية والفقهية، ولا ينبغي ألا يقتصر على ما عرفه ودرسه، وعليه أن يفكر ويقرأ سير المفكرين، والدعاة إلى الله سبحانه

وتعالى، وأن ينظر إلى الواقع وما يلائمه من حلول، وما يتطلبه من أساليب وحلول، يضعها للمشكلات التي يمر بها الناس، فلا يقفون عند أقوال من سبقهم، بل يجددون طالما أن في الدين سعة، وأنه يمكن التجديد، وتوعية المجتمع، فعليهم مسئولية كبيرة، وجانب المفكرين لا يقتصر على علماء الشريعة، ولا بد أن يكون هناك الفيلسوف المفكر، والأديب المفكر، والطبيب المفكر؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل في الإنسان خاصية التفكير: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [ آل عمران ١٩١]، والتفكر في خلق السماوات والأرض، والنظر فيما هو موجود في العلوم والحياة، وما تتطلبه من اختراعات، وبدائل، ووسائل، وأساليب، مهمة نفتقر إليها في عالم اليوم، خاصة في عالمنا الإسلامي، فهو في أمس الحاجة إلى المبدعين والمخترعين، فكل اعتمادنا على المستورد وهذا خطأ كبير، نحن لا نصنع السيارات، ولا الطائرات، ولا الهواتف المحمولة، ولا الكاميرات التي تصورنا، نحن لا نصنع أشياء كثيرة، وكل شيء نستورده، واعتمدنا على ثقافة الاستهلاك التي عمت بين الناس، وعلى الدعاة أن يبثوا في المسلمين، وفي مجتمعاتهم الرغبة في الاختراع، والإبداع، وتصدير المعرفة إلى الآخرين، وألا نقتصر على ما ألفناه واستوردناه، وألا نعيش مستوردين مستهلكين، لنكون منتجين في الجانب الفكري، والديني، والجانب القيمي، والأخلاقي ، والصناعي، والتجاري، والزراعي، كلها أمور تحتاج إلى أناس تفكر في الواقع، تضع الحلول، والبدائل، والمقترحات من أجل النهوض بالأمة، والمجتمعات المسلمة، ودعوتها إلى الرقي، ومنافسة العالم، والوصول به إلى الدول المتقدمة، وليس الاقتصار على الواقع الموجود، لابد أن تكون هناك طموحات، فالأمم لا تصعد إلا بمفكريها، ونوابغها ،وعلمائها، وما عندها من أصحاب الفكر الثاقب، الذي يستطيع بث روح العمل، والفكر، والعلم، وتنشيط الناس، وحثهم على العمل في المجتمعات الموجودة في عصرهم، ونلاحظ أن المجتمعات التي نعيشها مجتمعات معقدة، تداخلت فيها الثقافات، اضطربت فيها الأمور، أصبح هناك ضبابية، ونلاحظ ظهور فئات متشددة جدًا، والقتل العشوائي غير المبرر، والانطواء

والانزواء، والجماعات التي لها توجهات مختلفة، والعالم الداعية إلى الله ينبغي أن يكون واضحًا، يفهم دوافع كل اتجاه، ويتصدى للمنطلقات المسمومة، بالفكر الصحيح.

سابعًا: دراسة الواقع الفكري والثقافي:

دراسة الواقع بشكل كبير، ومعالجة قضاياه، والتصدي لكثير من الانحرافات الفكرية، ومواجهة أعداء الدين، والتيارات التي تحاول التغلغل في المجتمع، سواء أكانت تيارات حداثية علمانية، أو غيرها من التيارات التي تزعم أنها عقلانية، وتحاول بث أفكار وسموم مختلفة، فالتصدي لمثل هذا لا يكون بمجرد الكلام، والهجوم، والشتائم، وغير ذلك، وإنما لابد من منهجية علمية عقلية، مستندة إلى الأدلة والبراهين، فهذه الحركات والتيارات، تواجه بنوع من الفكر الثاقب، الذي يستطيع أن يهزمها في مجال البحث، والفكر والمعرفة، فيظهر من خلال هذا النقاش والبحث، أن الإسلام أقوى منها كلها، وأنه قادر على القضاء عليها، وأن هذه الدعوات والتيارات المنحرفة، لن تدوم طويلًا، وإنما هي موقوتة، وأن الدين إن شاء الله سيظهر كما وعد الله سبحانه وتعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة ٣٣]، فينبغي أن يكون هناك وعي كامل بهذه الواقع.

ثامنًا: التفاؤل:

التفاؤل مهم؛ لأنه يدفع الإنسان إلى العمل، ويبتعد عن التشاؤم، والتشاؤم قاتل، ومحبط، وموقف عن العمل؛ لأنه سيصور لك أنه لا فائدة من الجهد، ولا داعي لأن تدعو إلى الله، ولا آثار لدعوتك، والحقيقة غير ذلك، استمر مهما كانت الظروف حالكة، مهما كانت الأمور صعبة، مهما كانت الشدائد، ابعث هذا النور، ولو من ثقب مظلم، سيجد هذا النور المكان الذي يشع فيه، وسيجد القلوب التي يضيئ فيها، فلا يدخل اليأس إلى قلوبنا، وعلينا أن نكون متفائلين، و كلما كنا متفائلين بذلنا جهدًا بهذا التفاؤل، ووجدنا نتائج إيجابية، فالله سبحانه وتعالى، يجعل الأمل يتحقق شيئًا فشيئًا، ولنا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، الأسوة الحسنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب ٢١]، وذكرنا هذا في بداية الدروس والحلقات، فالرسول صلى الله عليه وسلم،

كان يواجه الشدائد والصعوبات، وكان يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أدع هذا الذي جئت به ما تركته»، وكان عنده أمل في أن الله تعالى سيظهره، وهكذا ينبغي للداعية ألا ييأس ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، فالإحباط، أو اليأس يؤدي بالإنسان إلى أن ينغلق على نفسه، وبالتالي يتوقف عن الدعوة، وعن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويظن أنه لا استجابة له، والاستجابة موجودة، وستجد صداها يومًا ما، حتى لو كان في مجتمع معاد للإسلام، ومعاد للدين، فيوم ما سيثمر جهدك ودعوتك، ستجد صدى وقبولًا لدى الآخرين، وبهذا تستطيع أن تحقق الكثير، مما كان يظنه البعض أنه مستحيل، ومن يعلم جهود الدعاة السابقين، فكانوا يتحلون بالتفاؤل، والنظرة البعيدة الثاقبة، والله سبحانه وتعالى حقق لهم، ما تمنوه ووفقهم لما يصبون إليه، وهذا من فضل الله عليهم، وكرمه، وفضل الله عز وجل لا ينقطع عن المؤمنين، وينبغي أن نسارع إلى داره.

☯ نشاط

قم بترتيب الضوابط التي تخدم الدعوة تبعا لأهميتها في مجتمعك.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه، وأن يوفقنا للعمل في سبيله، والدعوة إليه على النحو الذي يرضيه عنا، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

خاتمة

**بهذا القدر نكون عزيزي الطالب قد انتهينا من الحديث عن درس اليوم: وسائل التعامل مع الجانب الدعوي، ولنا لقاء آخر إن شاء الله تعالى، سائلين الله تعالى السداد والتوفيق، سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.**

# نظام العزابة

## ثانيًا: وصول الدعوة الإباضية إلى دول المغرب العربي

**١ – انتقال المذهب الإباضي إلى المغرب العربي:**

بدأ الأمر من المجالس التي كان يقيمها الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة، وكان يُعد فيها حَمَلة العلم، وكان يقيم تلك الحلقات العلمية في سراديب تحت الأرض، حيث يتجنب فيها أعين الناس، وأعين الوشاة، والساسة الأمويين وقادتهم وولاتهم، فكان ينأى بطلابه في أماكن بعيدة في هذه الحلقات الخفية.

وكان من ضمن طلابه العلامة سَلَمة بن سعد، والعلامة أبو الخطاب المَعَافري، والعلامة عبد الرحمن بن رُستم، وانطلق هؤلاء الثلاثة باتجاه المغرب العربي في ذلك الوقت، ناشرين دعوتهم، وهي دعوة تقوم على أساس إقامة العدل ونبذ الاستبداد الذي كان مخيمًا على الأمة من قبل الدولة الأموية، ثم الدولة العباسية التي لم تختلف كثيرًا عن الدولة الأموية.

وكان حَمَلة العلم يهدفون إلى إحياء الخلافة الراشدة، والعودة بالأمة إلى ما كانت عليه في زمن الخلفاء الراشدين، وإقامة العدل والشورى ونصرة المظلوم، والمساواة بين الناس.

**٢ – تأثير مبدأ المساواة في دول المغرب الإسلامي:**

كان لـ (مبدأ المساواة) الأثر البالغ في نفوس الناس في بلاد المغرب الإسلامي، وخصوصًا من قِبَل البربر الذين كانوا يشكلون غالبية كبيرة في دول المغرب الإسلامي، وكانوا هم الأساس في تلك البقاع، حيث استهواهم مبدأ المساواة وأن الإسلام لا يفرق بين عربي وأعجمي.

وكانت دعوة الإباضية في ذلك الوقت قائمة على هذا الأساس، فليس هناك فضل للنسب بحكم أن هذا عربي أو قرشي أو أنه يُدعى من آل البيت، أو غير ذلك، اللهم إلا بالتقوى والصلاح، فالمسلمون كلهم سواسية عند الله سبحانه وتعالى.

يقول الرسول ﷺ: (مَن أَبطَأَ به عملُه لم يُسرع به نَسَبه) ولو كان للنسب اعتبار لكان لأبي لهب ولأبي طالب مكانة في الإسلام؛ ولكن القضية ليست قضية أنساب، وإنما هي قضية دين

وإيمان وصلاح واستقامة، فإذا ما آمن الإنسان واستقام وكان أقرب إلى الحق فهو الأفضل عند الله تعالى، (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات : ١٣] سواء من هذه القبيلة أو من العرب أو من العجم.

**٣- معاناة العلامة سَلَمة بن سعد في رحلته لبلاد المغرب الإسلامي:**

يُروى عن سلمة بن سعد أنه توجه ماشيًا من البصرة إلى جبل نفوسة والمناطق القريبة منه. ويعد خروجه ماشيًا على قدميه قمة الجهاد في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والرغبة فيما عنده عز وجل.

كما كان فقيرًا، ليس عنده جيش، ولا خدم؛ ولكنه كان غنيًا بإيمانه بالله، وغنيًا بعلمه وبفكره وبدعوته؛ فلذلك خرج وهو يحمل همًّا كبيرًا وأهدافًا عالية كثيرة.

وفي تلك الديار قام العلامة سَلَمة بن سعد بالدعوة إلى الله تعالى ومعه العلامة أبو الخطاب المَعَافري، والعلامة عبد الرحمن بن رُستم، والتف حولهم الناس، ووجدت دعوتهم صدىً وقبولًا، خصوصًا من البربر.

**انتبه:**

دولة ليبيا في ذلك الوقت كان يطلق عليها اسم جبل نفوسة.

**٤- تولية الإمام أبو الخطاب المعافري إمامة الظهور:**

بعد هذه الثمرة الكبيرة من دعوتهم وإقبال الناس عليهم قرروا أن يعلنوا إمامة الظهور، ونصبوا مِن بينهم إمامًا وهو أبو الخطاب المعافري في سنة مئة وأربعين للهجرة، واستطاعوا التوجه إلى طرابلس واستولوا عليها، وصارت في قبضتهم، واتجه إليهم كثيرٌ من الناس، واستمر أبو الخطاب في التوسع، ولاقت دعوته إقبالًا كبيرًا، وانجذب إليه الناس بحكم المبادئ التي أعلنها، وهي مبادئ العدالة والمساواة والنزاهة.

وكان الهدف من هذا كله هو إقامة الشريعة بما أنزله الله سبحانه وتعالى.

٥- المواجهات مع الخلافة العباسية:

لم تتحمل الخلافة العباسية هذا الواقع، وأرسل أبو جعفر المنصور جيشًا كبيرًا مكوَّنًا مِن ما لا يقل عن أربعين ألفًا، واستطاع أبو الخطاب ومَن معه مِن الانتصار عليه في بادئ الأمر؛ ولكن بحكم تمرُّس الجيش العباسي بالحروب لجؤوا إلى الحيل، وتظاهروا بالرجوع، فلما رجعوا ظن الناس أنهم انهزموا ورجعوا، فَكَرَّ عليهم الجيش العباسي مرة أخرى، واستطاع أن يقضي على هذه الإمامة، واستشهد فيها أبو الخطاب المعافري في سنة مئة وأربعة وأربعين للهجرة، بعد أن استمرت إمامته أربع سنوات تقريبًا.

٦- جهود العلامة عبد الرحمن بن رستم:

كان العلامة عبد الرحمن بن رستم قائدًا فذًّا وصاحب علم وشجاعة وحكمة وسياسة، لم يستسلم، فاتجه صوب الغرب، وخرج من القيروان على الرغم من أنها كانت تحت قبضته إلا أن قوة الجيش العباسي كانت كبيرة، وليس له القدرة الكافية على مواجهته، فانسحب واتجه إلى الغرب، ولجأ إلى مدينة اسمها (تاهرت) أو (تيهرت).

وكانت المدينة عبارة عن منطقة كلها غابات وأحراش، فيها الضباع والوحوش؛ ولكنه لجأ ومَن معه إليها، فنظفوها ورتبوها وجعلوها مدينة عامرة وقابلة للسكنى، وآوت إليهم كثير من القبائل لما علموا من حُسن دعوته، ونُبل أهدافه ورغبته في إقامة الحق والعدل، ونبذ الاستبداد والجور، وتجمعت حوله قبائل كثيرة خصوصًا قبائل البربر.

أ- تولية الإمام عبد الرحمن بن رستم إمامة الظهور:

بعدما رأى عبد الرحمن بن رستم أن كل مَن حوله ينقادون له، وأنهم راغبون في إقامة الدولة الإسلامية التي تطبق الشريعة على أكمل وجه؛ عندئذٍ استشارهم في أن يختاروا إمامًا ويعلنوا إمامة الظهور مرة ثانية، فاتفق الجميع على ذلك، وأعلنوها إمامة أخرى، وانتخبوه إمامًا لهم، فتولاها في سنة مئة وستين للهجرة.

ب- بداية الدولة الرستمية:

بهذه الإمامة الثانية ولدت ما يسمى (الدولة الرستمية)، ونُسبت إلى عبد الرحمن بن رستم؛ لأنه كان الإمام، ثم جاء مِن بعده ابنه عبد الوهاب، ثم مِن بعده حفيده أفلح بن عبد الوهاب، وسار هؤلاء سيرة حسنة.

☜

انتبه:

الدولة عند الإباضية ليست بالوراثة، ولكن إذا وُجد من أبناء الإمام مَن هو بمنزلته في الصلاح وعلى درجته العلمية؛ فلا بأس أن يكون خليفة له، وذلك باتفاق المسلمين؛ وليس عن جبر ولا إكراه ولا توريث للإمامة، فتوريث الخلافة أو الإمامة غير مقبول عند الإباضية.

لما انتُخب عبد الوهاب سار على نفس سيرة أبيه، ولما توفي وورثه ابنه أفلح سار على نفس سيرة أبيه وجده، فكانت سيرتهم سيرة عطرة، وتوجه أهل المغرب كلهم إليه، حتى أصحاب المذاهب الأخرى وَجَدوا في هذه الدولة استقرارًا ومتنفسًا، وراجت التجارة وازدهرت البلد في عهدهم كثيرًا.

ج- نهاية الدولة الرستمية:

استمرت الدولة الرستمية ما يقارب مئة وستة وخمسين سنة، ثم في سنة مئتين وستة وتسعين ظهرت الدولة الفاطمية، والدولة الفاطمية هي دولة شيعية، كانت تنادي بالعودة إلى آل البيت وغير ذلك، وهي في نفس الوقت ضد الدولة العباسية وضد الدولة الإباضية، فخاضت حروبًا ضد الإباضية، واستطاعوا القضاء على الدولة الإباضية نتيجة للضعف الذي طرأ على الإباضية في الفترات الأخيرة.

وفي سنة مئتين وستة وتسعين انتهت الدولة الرسمية كدولة؛ لكن أتباع المذهب بقوا في دول المغرب العربي.

٧- لجوء الإباضية إلى الكتمان:

كان الإباضية يتمنون عودة الإمامة إليهم؛ ولكنهم لم يستطيعوا بحكم ضعفهم، كما أن الدولة الفاطمية فرضت نفوذها عليهم، ولم يستطع الإباضية في ذلك الوقت الإعلان عن دولتهم، فلجؤوا إلى (الكتمان) في نهاية القرن الثالث الهجري.

**انتبه:**

يمكن التحوُّل من الكتمان إلى الظهور، ويمكن التحوُّل من الظهور إلى الكتمان، وذلك حسب القرائن والأحوال المحيطة.

استمر الكتمان لدى الإباضية الموجودين في المغرب العربي بعدة مناطق: في ليبيا بجبل نفوسة، وبتونس في جِربة، وفي تاهرت وما حولها جنوب الجزائر، وهي مسماة اليوم وادي ميزاب.

وكان وجودهم في المدن والقرى بشكل كثيف، ولكن نتيجة الاضطهاد الذي تعرضوا له اضطروا إلى الانزواء والانكماش، فلجؤوا إلى المدن والقرى النائية البعيدة عن مراكز المدن الكبيرة والبعيدة عن مراكز الدول الخطرة، وبالتالي لجأ الإباضية الموجودون في ليبيا إلى جبل نفوسة والقرى التي فيه، كما لجأ الإباضية إلى جزيرة جِربة وهي بعيدة في البحر، ولجأ الإباضية الذين في الجزائر إلى وادي ميزاب، واسقروا على هذا الوضع.

**٨- مرحلة العلامة أبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي:**

استمر وضع الكتمان ما يقارب قرنًا ونِصفًا حتى ظهر في القرن الخامس الهجري العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسي، هو من ليبيا لكنه توجه صوب الغرب نحو وادي ميزاب وما حوله من القرى، وبدأ فيما يسمى (إقامة الحلقة العلمية) حيث ابتكر هذا النظام.

**أ- ظهور نظام الحلقة العلمية (العزابة):**

هي حلقة علم تضم من مجموعة من العلماء والتلاميذ، يقوم العلماء فيها بتدريس القرآن الكريم وعلوم التفسير والفقه والعقيدة وغير ذلك، ثم بعد ذلك بدأوا يتوسعون قليلًا، بحيث

لا تقتصر الحلقة فقط على الجانب العلمي وإنما تشمل أيضًا رعاية المصالح الأخرى؛ كالمصالح الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وبدؤوا ينظمون أمور حياتهم، وكل ذلك كان في السر والكتمان.

وبمرور الوقت تحول الكتمان إلى مرحلة الاستقرار السلمي، حيث أصبح الوضع نوعًا ما ليس فيه قوة وليس فيه ضعف، ولكن الخوف من أن تتلاشى الدعوة وأتباع المذهب الإباضي، فكان لا بد من الحفاظ على كل ذلك من خلال تدريس العلم سرًّا، وإقامة حلقات العلم، ويسمى هذا النظام نظام العزابة.

☜

**انتبه:**

قد يظن البعض أن نظام العزابة (جمع أعزب) مقصود به غير المتزوج؛ وإنما المراد: أن يكون المنتمون للحلقة العلمية مِن الورعيين الذين لا يخلدون إلى ملذات الدنيا، بحيث لا يشغلهم شيء إلا طلب العلم والقيام بدور الإصلاح، وقد يكونون متزوجين.

**ب- انتشار الحلقة العلمية:**

أخذ العلماء في تعليم الناس شيئًا فشيئًا، واستقطبوا زعماء القبائل وبعض أبنائهم النوابغ، ومَن عندهم إقبال على طلب العلم، ومَن تتوفر فيهم شروط الصلاح والاستقامة.

وكانت القبائل تتجه إلى الحلقة وتستسلم لها، وتسلمها القيادة، وأصبحت الحلقة الرئيسية تنشئ حلقات فرعية لها في جميع القرى المحيطة، وكل حلقة فرعية لها ممثل في حلقة العزابة الرئيسية.

وكان الشخص الذي يدخل في الحلقة الرئيسة لا بد أن يكون من الموثوق فيهم، والذين همهم الوحيد هو التعليم والإصلاح، وكانت الحلقة الرئيسية أشبه ما تكون بإمامة الكتمان؛ لأن لها رئيسًا شيخًا يرأسها، فهو المرجع الأساسي لبقية الحلقات الفرعية، التي تتلقى التعليمات من الحلقة الرئيسية.

ج- ممارسة نظام الحكم داخل الحلقات العلمية:

بمرور الوقت أصبحت الحلقات العلمية تمارس نظام الحكم؛ ولكن تمارسه داخليًّا على مجتمعها فقط، فلا تمارسه على بقية المناطق الأخرى، ولم يكن هذا الحكم فيه إقامة الحدود الشرعية؛ ولكنْ فيه تنظيم للحياة الاجتماعية، حيث يفصل في المسائل، ويتولى إدارة المجتمع، ففيه القاضي الذي يحكم بالحق بين المتخاصمين.

أما الحدود كقطع اليد أو الجلد فلا يقيمها إلا إمام الظهور فقط؛ ولذلك لجؤوا إلى عقوبات أخرى، وهي عقوبات المقاطعة، أو ما يسمى (البراءة) بحيث يعلن أن فلانًا يرتكب كذا فيتبرأ منه حتى يعلن توبته مما وقع فيه، وإذا كان عليه شيء من الحقوق للآخرين فإن عليه أن يرد تلك الحقوق، وكان المجتمع متعاونًا ومتقبلًا لما يحكم به مجلس العزابة.

☜

**انتبه:**

كان لمجلس العزابة هيبة، فالجميع يطيعه، واستمر هذا النظام وتتطور في كل من الجزائر وتونس وليبيا، وأصبح المعمول به، وهو المرجع لدى إباضية الشمال الأفريقي.

**د- نظام العزابة بديل عن الدولة:**

يقوم نظام العزابة على أساس إيجاد بديل عن الدولة؛ لأنه لا يوجد دولة إمامة، والدول التي كانوا تحتها كالدولة العباسية والفاطمية لم تكن تهتم بالإباضية، وربما عادوها نتيجة التعصب المذهبي واتخذوا ضدهم مواقف مليئة بالكراهية؛ لأنهم يعتبرون الإباضية من الخوارج.

**☯ نشاط:**

اطلب من أستاذ المحاضرات الافتراضية أن يفنِّد شبهات اتهام الإباضية بأنهم من الخوارج.

## ثالثًا: ازدهار المذهب الإباضي في بلاد المغرب الإسلامي

المذهب في حقيقة الأمر لم يكن يريد شرًّا بالآخرين، إنما يريد الخير لهم، ولكن التشويه المتعمد هو الذي جعل كثيرًا من الناس ينفرون منه، ولم يكن أمام الإباضية من خيار سوى المحافظة على مجتمعهم.

كان مجتمع الإباضية مسالمًا، لم يشن غارات على أعدائه، ولا على بقية المذاهب، وكان يعاملهم كإخوانه؛ ولذلك ازدهرت أماكن الإباضية الموجودة في الجزائر وتونس وليبيا، وكانت عامرة بالحركة الاقتصادية والعلمية، وهناك مؤلفات كثيرة، وظهر منهم علماء ونوابغ كثر، منهم الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، وهو قطب الأئمة، وقد كان من أكبر علماء العالم الإسلامي في ذلك الوقت، ومعاصرًا للدولة العثمانية، علمًا بأن الدولة العثمانية أيضًا احترمت الإباضية وأكرمت وكرمت الشيخ محمد بن يوسف أطفيش -رحمه الله- وكذلك أيضًا ظهر الشيخ بَيُّوض عليه -رحمة الله- وكذلك الشيخ عامر الشماخي صاحب كتاب "الإيضاح"، وعبد العزيز الثميني صاحب كتاب «النيل» وغيرهم من العلماء الكبار الذين تربوا في هذه المدرسة.

ومن اطلع على كتاب شرح النيل للشيخ القطب عرف أن الإباضية يستندون إلى أدلة علمية كبيرة من الكتاب والسنة، وأن مذهبهم قائم على أسس متينة، وليست مجرد أساطير أو خرافات، فالإباضية لا يتعلقون بأي نوع من أنواع الروايات الضعيفة أو الأساطير أو غيرها من الأوهام، وإنما يعتمدون على المبادئ الحَقَّة، وكذلك العقيدة المبنية على الأدلة الحَقَّة وليست مبنية على هوى أو رغبات خاصة.

## رابعًا: دور نظام العزابة في العصر الحديث

تولى نظام العزابة مسؤولية المجتمع؛ وأصبح يدير المجتمع إدارة كبيرة، والناس تتقبل منه طواعية، واستمر منذ القرن الخامس وإلى عصرنا الحاضر، فلا يزال موجودًا في عصرنا هذا، وإن كانت الدولة المدنية الحديثة بدأت تنظم، وأصبح الإباضية لهم وجود واعتراف من قبل

الدول التي هم فيها باعتبارهم مواطنين، وانفتحوا على العالم، وأصبح هناك تداخل بينهم وبين إخوانهم المسلمين، ولم يعد ذلك الانعزال السابق.

بالإضافة إلى أن الإباضية شاركوا في كثير من الثورات التي تهدف إلى تحرير الوطن العربي، حيث وقفوا في الجزائر مع إخوانهم المالكية في طرد الاحتلال الفرنسي، وكان لهم جهد كبير، ولهم شهداء كُثر.

## خامسًا: أهمية نظام العزابة بالنسبة للإباضية

بنظام العزابة حافظ الإباضية على أنفسهم، واستطاعوا أن يُوجِدُوا لأنفسهم مجتمعًا مستقرًا، وقاموا بدور الدعوة فيمن حولهم، فاستطاعوا أن ينشروا الإسلام في أفريقيا الجنوبية ومالي، وفي بعض الدول كان هو مذهب أغلب مَن فيها مِن المسلمين.

## سادسًا: مهام مجلس العزابة

كان لمجلس العزابة أدوار عدة، واستطاع الدكتور محمد صالح ناصر في كتابه «منهج الدعوة عند الإباضية» أن يقسم تلك الأدوار إلى خمس مهام، كما يلي:

١ - «مهام دينية»:

وهذه المهام الدينية تتناول جوانب التشريع والتنفيذ والحكم إلا الحدود فهي مستثناه، حيث لا تُطبق إلا بوجود الإمام، ومن المهام الدينية أيضًا الإفتاء ورعاية المساجد وتحديد الأئمة والمؤذنين ونظار الأوقاف وغسلة الموتى؛ فهذه الوظائف الدينية كان يقوم بها مجلس العزابة في كل قرية، وفي كل بلد.

٢ - «مهام اجتماعية»:

ومنها أن يتولى جانب الإشراف على المناسبات الاجتماعية كالأفراح والأتراح لحمايتها من الانحرافات الدخيلة، وجمع الزكاة من الأغنياء وتوزيعها على الفقراء، ومعاقبة المخلِّين بالآداب، وإعلان البراءة مِن مرتكبي الكبائر، فيُقاطَعون مِن قبل عشائرهم وسكان مدينتهم حتى يعلنوا التوبة والندم وإعادة الحقوق إلى أصحابها.

٣- «مهام تربوية»:

وهي تركز على تربية النشء من حيث تحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم اللغة العربية والشريعة الإسلامية، والاهتمام بصلاحهم وتهذيبهم وغرس قيم الدين في قلوبهم.

٤- «مهام اقتصادية»:

وهي من أهم المهام، ومنها الإشراف على معاملات البيع والشراء في الأسواق حيث كانوا يدخلون الأسواق ويراقبون حركة السوق، ويرون هل هي مطابقة لأحكام الشريعة أم مخلة ومنحرفة؟ ويحاربون الانحراف في التعامل التجاري كالغش والتطفيف والاستغلال والاحتكار وكل الظواهر التي نهت الشريعة عنها.

كما تقوم هيئة العزابة بمراقبة التخطيط المعماري للمدينة لمراعاة الحقوق الفردية والجماعية، ومن أهم هذه الأمور أنهم يضعون المسجد في أعلى منطقة في كل قرية، ليكون المسجد في الأعلى ومن ثَم البيوت حوله، وكذلك مراعاة الأحكام الشرعية في البناء كمراعاة حقوق الجيران وحقوق النساء والحرمات الخاصة التي تراعَى من خلال البناء المعماري.

٥- «مهام سياسية»:

وهي تتناول تبعات الدفاع عن المجتمع ضد التدخلات الأجنبية مهما يكن مصدرها أو نوعها، وكان لها دور كبير في صد العدوان الصليبي والاستعمار الفرنسي.

مثال: كانت جزيرة جربة يحكمها الإباضية وتعرضت لغزو صليبي كثير من قبل الصليبين الأوروبيين؛ ولكن استطاع الإباضية أن يصدوا تلك الحملات، وأن يقضوا على كثير منها، واستطاعوا في معركة من المعارك أن يقتلوا الآلاف من الأعداء، وأقاموا برجًا كبيرًا من جماجم الأعداء سُمِّي برج الجماجم.

فالإباضية كانوا يدافعون عن أراضي الإسلام بشكل عام، ويصدون الحملات الصليبية أينما كانت، حيث شاركوا في طرد الاستعمار الفرنسي والحصول على الاستقلال في الجزائر، وأيضًا شاركوا في ليبيا بزعامة الشيخ سليمان الباروني في طرد الإيطاليين، وقد كان الشيخ

سليمان الباروني –وهو من أعلام الإباضية في ليبيا– من كبار الزعماء المناوئين للاحتلال الإيطالي لليبيا؛ بل كان أسبق من المجاهد عُمر المختار، وقد كان يقود كثيرًا من الحملات ضد الإيطاليين، واستطاع أن يستعين بالعثمانيين وزودوه بأسلحة وغير ذلك للتخلص من الاستعمار الإيطالي.

## سابعًا: أهمية التجربة الإباضية في المغرب الإسلامي

التجربة الإباضية في المغرب الإسلامي كان لها دور كبير حيث استطاعت أن تحافظ على الكيان الإباضي في تلك المناطق، وأن تنشر الإسلام، واستطاعت أن تقيم دُوَلًا في تلك الحقب، كما أن مجلس العزابة كان يعتبر مسلكًا وسطيًّا يجمع بين الكتمان والظهور، فهو ليس كتمانًا بحتًا ولا ظهورًا بحتًا؛ ولكنه صيغة توفيقية يجمع بين تحقيق الأحكام الشرعية على أرض الواقع وإقامة المجتمع المسلم بما يضمن حقوق كل إنسان، وفي نفس الوقت يحافظ على الهوية الدينية والإسلامية في المحيط الإباضي.

## ثامنًا: الدروس المستفادة مما تعرض له الإباضية في بلاد المغرب الإسلامي

**١ – أن الدعوة لا تموت بموت قادتها:**

فبعد انتهاء الإمامة الأولى للإباضية في الشمال الإفريقي –وهي إمامة أبي الخطاب المعافري– لم ييأس الإباضية؛ بل توجهوا نحو الغرب، واستطاعوا أن يقيموا الإمامة من جديد، وأقاموا لهم دولة كبيرة امتدت من تلمسان في المغرب إلى ما يقارب حدود مصر، وصارت دولة كبيرة عند الإباضية.

ثم بعد اختفاء هذه الدولة لم تمت المبادئ والأفكار، فبقيت عند جمهور الإباضية، وما زالت حية إلى هذا اليوم حيث لا يزال كثير من الإباضية متمسكين بها.

فالمبادئ لا تموت بموت الأفراد، والدعوة لا تموت بموت الأفراد، وإنما يُقيض الله تعالى لها مَن يستطيع أن يحمل همها ورسالتها، ويقوم بواجبها في أي وقت آخر، فالفكر المبني على

الحق لا يموت مهما اندثر في فترة ما، لكن الله -سبحانه وتعالى- يقيد له من يحييه ويبعثه من جديد، ويقوم به وينشره بين الناس.

**٢- أن الدعوة لا تنحصر في أسلوب واحد:**

ذكرنا أن الأساليب متعددة؛ كتمان، وشراء، ودفاع، وظهور؛ لكن تم إحداث صيغة جديدة وهي أسلوب (العزابة) حيث استطاع أن يصل إليه إباضية المغرب العربي، واستمروا عليه، وحافظ على وجودهم؛ وبه كانوا يطبقون الأحكام الشرعية، وفي نفس الوقت ولا يصطدمون بالآخرين، وهذا جعل المجتمع ظل حيًا وبقيت الدعوة مستمرة.

فكلما واجهت الدعوة شيئًا من الصعوبات جعل الله -سبحانه وتعالى- لها طرقًا وأساليب أخرى، وينبغي على العلماء والدعاة أن يسلكوها للحفاظ على دعوتهم.

**٣- الابتعاد عن الاصطدام بالدول الحاكمة في حالة الضعف:**

الاصطدام بالحكومات والسلطات القوية يستنزف القوى العلمية والبشرية، وبه وانجراف في صدامات لا طائل من ورائها، فالابتعاد عن السياسة والاصطدام بالدول يشكل للدعوة مجتمعًا مستقرًا وآمنًا، يستطيع به الإباضية أن يحافظوا على وجودهم في تلك الفترة؛ ولذلك نجد الإباضية انعزلوا ونأوا بأنفسهم إلى مناطق وعرة ؛ فالإباضية في ليبيا لجؤوا إلى جبال نفوسة، وهي سلسلة جبلية صعب الوصول إليها، وبالتالي حموا أنفسهم، وابتعدوا عن الاصطدام بالحكومات، وإباضية تونس توجهوا إلى جربة، وهي جزيرة في وسط البحر وبعيدة عن تونس والقيروان، وإباضية الجزائر اتجهوا إلى جنوب الجزائر في الصحراء، وهي بلاد وادي ميزاب الآن، فابتعدوا عن مراكز القوى، وحافظوا على أنفسهم في تلك الفترات، فالدخول في الحروب قد يستنزف القوى ويتسبب في القضاء التام على هذه الفئة، وإفناء هذا المجتمع الذي كان يهدف إلى إقامة الحق والعدل والخلافة الراشدة.

وبهذا استمرت تلكم التجربة في تلك البقاع، وما زال أثرها الكبير باقيًا إلى اليوم، وسيستمر إلى أن تقوم الساعة إن شاء الله.